قشة في الميقات

بحث عن الإنسان لا عن اللّه في الحج

قشة في الميقات

جلال آل أحمد

ترجمة: حيدر نجف

مراجعة وتقديم: عبد الجبار الرفاعي

لوحة الغلاف: للفنان محمود فرشچيان

(وهي ترمز لأمر ابراهيم بذبح ولده اسماعيل)

الطبعة الأولى: بيروت ـ لبنان، 2017

First Edition: Beirut - Lebanon , 2017



لبنان ـ بيروت / الحمرا

تلفون: 541980 1 961+ / 345683 1 961+

daralrafidain@yahoo.com
info@daralrafidain.com
www.daralrafidain.com
dar alrafidain
Dar.alrafidain
DAR ALRAFIDAIN@maassourati



تنويه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 1 - 77322 - 270 - 7

جلال آل أحمد

قشة في الميقات

بحث عن الإنسان لا عن اللّه في الحج

ترجمة:
حيدر نجف

مراجعة وتقديم:
عبد الجبار الرفاعي





www.daralrafidain.com

تقديم

د. عبدالجبار الرفاعي

في ختام يومياته التي دونها في رحلة الحج، يبوح جلال آل أحمد بهدفه، وماكان يفتش عنه في هذه الرحلة، فيقول فيما يشبه الاعتراف الجريء: «قد يُعتبر ماسأقوله اعترافاً، أو اعتراضاً، أو زندقة، أو أي شي آخر، لكنني كنت أبحث في هذه الرحلة عن أخي، وكل إخوتي الآخرين، أكثر من بحثي عن اللّه، فاللّه موجود، في كل مكان، لمن يؤمن به».

ربما يبدو مثل هذا الاعتراف مفارقة، تفزع أصحاب التجارب الروحية، والمرتاضين، والمتصوفة من المسلمين، الذين يرتشفون في مناسك الحج أعبق أدعيتهم، وأذكارهم، ومواجيدهم، ويتوقون إلى بلوغ أقرب منازل السير إلى اللّه تعالى، والاغتراف من مناهل التواصل معه.

غير أن جلال آل أحمد يترجم لنا فلسفة الحج، بلغة أخرى، قد يحسبها البعض نوعاً من الشطحات، باعتبار جلال أتى إلى الحج ليتعرف على أخيه المسلم، بل الإنسان، مما يعني أنه غير مكترث بما يعرّفه باللّه، ويقربه إليه، لكن قراءة متأنية ليومياته في رحلته، تدحض هذا التصور، حيث تتجلى روح آل أحمد، ونزعاته المعنوية، وأخلاقيته، وعواطفه البريئة، ومشاعره الشفافة، ويغدو اكتشاف الآخر، ووعي آلامه وآماله، والتعايش، والتسامح في كل ما يوجب الخلاف معه، كل ذلك أقرب السبل إلى اللّه تعالى، وإن الطريق

إلى معرفة اللّه يمر عبر معرفة الإنسان، وتبني قضاياه، والدفاع عن حقوقه المهدورة، وحرياته المغدورة، طبقاً لفهم آل أحمد للإسلام ومقاصده العامة.

من هو جلال آل أحمد؟

قبل مواكبة جلال في رحلته، نشير بإيجاز إلى محطات حياته، وتكوينه الاجتماعي والثقافي، والمنعطفات الأبرز في مواقفه.

ولد محمد حسين حسيني طالقاني، والذى اشتهر بـ(جلال آل احمد)، في 1923/12/1 في طهران، لعائلة محافظة، إذ كان والده رجل دين، ناشطاً في الحقل الاجتماعي، ويتولى إدارة مكاتب شرعية للأحوال الشخصية، ويؤم المصلين في بعض مساجد طهران، إلاّ أن الأب سرعان ما فقد مواقعه في هذه المكاتب، عندما رفض الرضوخ لقرارات وزارة العدل، بالإشراف على أنشطة مكاتب الأحوال الشخصية، وتوجيه عملها. وفضّل الاقتصار على شيء من نشاطه الديني الاجتماعي في التبليغ والدعوة.

لقد تعذر على جلال أن يواصل دراسته بشكل عادي، بعد أن أنهى المرحلة الابتدائية إثر تدهور الحالة المعيشية لأسرته. وبسبب خشية والده من التعليم الحديث، ورغبته في تواصل أبنائه مع التعليم الديني التقليدي للآباء، لذا قرر جلال الانخراط خفية في دراسة مسائية ليكمل تعليمه الإعدادي في مدرسة «دار الفنون» الشهيرة في طهران، على الرغم من انشغاله نهاراً بأعمال حرفية في السوق بغية تأمين متطلبات العيش.

وعندما بلغ العشرين أرسله أبوه ليدرس في الحوزة العلمية في النجف الأشرف، غير أنه ما لبث أن غادر النجف بعد فترة وجيزة لاتتجاوز ثلاثة أشهر. ويبدو أنه ضاق ذرعاً بنمط التعليم التقليدي، وطبيعة الكتب المتعارفة في المدارس الدينية، وأسلوب التدريس، وهو مايومئ إليه وصفه لذلك النمط

من التعليم في فترة لاحقة بأنه تحول إلى متحف لتخريج «المومياءات المحنطة»[1].

وكان يروم الذهاب من النجف إلى لبنان للالتحاق بالجامعة الأميركية في بيروت، لولا أن السبل لم تكن ممهدة لسفره فقفل راجعاً إلى طهران، والتحق بالمعهد العالي لإعداد المعلمين، وتخرج منه سنة 1949، ونال درجة الماجستير في الأدب الفارسي من جامعة طهران على أطروحة تناول فيها قصص «ألف ليلة وليلة».

وفي سنة 1944م انخرط في حزب توده «الحزب الشيوعي الإيراني»، وسرعان ماتقدم موقعه في السلّم الحزبي، حتى أمسى بعد أعوام محدودة عضواً قيادياً في توده، ومشرفاً على النشاط الإعلامي والثقافي للحزب.

إلاّ أن عدم استقلالية حزب توده، وارتباطه العضوي بسياسات ستالين، وخضوعه لإرادة موسكو، وافتقاره للديمقراطية الداخلية أفزع جلال، وأفضى به إلى الانشقاق عن الحزب سنة 1947 بصحبة جماعة تزعمهم خليل ملكي. ومن الطريف أن إذاعة موسكو هاجمتهم، ووصمتهم بالخونة فسئم جلال العمل السياسي، وانسحب بهدوء بعيداً عن صخب التجارب الحزبية، وملابسات حياتها الداخلية.

واقترن في عام 1949 بالقاصة المعروفة سيمين دانشور بعد أن تعرف عليها في رحلة بالسيارة إلى شيراز.

وفي آيار 1951 أسس خليل ملكي ومظفر بقائي كرماني «حزب كادحي الشعب الإيراني» فالتحق بهما جلال، لكن هذا الحزب انهار بعد مدة قصيرة في عام 1952.

---

(1) غسان طعّان. التغرُّب. بيروت: بيسان للنشر، 2001، ص144.

ومرة أخرى أسّس خليل ملكي بالتعاون مع جلال حزباً جديداً أسمياه «القوة الثالثة». وهو حركة ذات نزعة «عالمثالثية» تهتم بمشكلات التخلف وقضايا التنمية والتحديث في العالم الثالث.

لكن انقلاب 1953 الذي أطاح بمحمد مصدق، وقوض عملية تأميم البترول، ثم هيمنة الشركات الغربية على البترول من جديد، قاد آل أحمد ومجموعة من المستنيرين لمغادرة مواقعهم السياسية، والانخراط في مشاغل أدبية وثقافية وفكرية تنأى عن متاعب السياسة وشجونها.

ومن المؤكد أن تلك التجارب الحياتية، والتقلبات السياسية المتنوعة تظل ترفد حياة آل أحمد باستمرار، وتسهم في توجيه حياته وتحديد اختياراته الثقافية والعملية، ويتواصل تأثيرها على مواقفه الفكرية في السنوات التالية.

ويمكن العثور على عناصر أخرى بجوار تلك التجارب كانت تمثل مناهل أساسية في تكوين وعي جلال، وبناء تفكيره، والتحكم باتجاهاته فيما بعد.

ومن أهم هذه المناهل الكتّاب والأدباء والمثقفون والمفكرون الأوائل الذين تعرف عليهم من خلال كتاباتهم، أو ربطته بهم علاقات شخصية، وفي طليعة ذلك قراءته لآراء أحمد كسروي الذي اشتهر بنزوعه القومي، ومؤلفاته المناهضة للتراث، ونقده العنيف للفكر الديني. وعلاقة آل أحمد بالقاص الشهير صادق هدايت، ورائد الشعر الحديث بالفارسية نيما يوشج، والناشط السياسي خليل ملكي.

فقد كانت آراء كسروي باعثاً لتمرده على بيئته الدينية المحافظة، وطلاقه مع عوالمها، بينما استلهم من صادق هدايت تكنيك السرد الحديث في الكتابة القصصية، أما خليل ملكي فأوقد في وجدانه روح الكفاح السياسي.

ومما لا شك فيه أن طبيعة شخصية آل أحمد، واستعداداته، ليست بعيدة عن تنويعات المواقف والأفكار التي غرقت في فضائها، ذلك أن جلال اتسم بمزاج قلق مضطرب متطرف، يكتنفه تطلع وطموح متوثب، وجدية، وحيوية، وضراوة، وحساسية مرهفة.

وباء التغرب أو الإصابة بالتغرب أو نزعة التغريب

طبعت وعي آل أحمد هواجس أضرابه في عالمنا، هذه الهواجس التي كان يفجرها على الدوام انشطار وعيهم حيال رهانات الهوية والماضي من جهة، والعصر وتحدياته من جهة أخرى، مضافاً إلى الاستفهامات الملتبسة للنهضة والتحديث، وجدل التراث والوافد، وسطوة التكنولوجيا الغربية، وتغلغلها في المجالات كافة، وإزاحتها لمكونات الاجتماع التقليدي، وقيمه الموروثه، واستبدالها بالتدريج بقيم تحكي روح الحضارة الغربية، وتجسّد مفاهيم ومقولات تخترق بنية هذه المجتمعات، وتسود في حياتها على شكل ظواهر حضارية وثقافية واجتماعية واقتصادية.

لقد شعر آل أحمد بعمق تلك التحولات، ورصد آثارها في الحاضر، وحاول أن يستشرف مآلها ونتائجها ليدرك أن مجتمعه يجتاحه إعصار إذا لم تُسخّر كل الطاقات لمقاومته فإنه سيعصف بمرتكزات هذا المجتمع، ويطيح بمقومات وجوده، ويمسخه، فيحيله إلى كائن مشوه.

وأطلق جلال على عملية الاجتياح هذه «غرب زدگي»، وهو مصطلح مشبع بدلالات سلبية، بل دلالات هجائية لكل ما هو غربي، ويوازيه بالعربية «وباء التغرب»، أو«الإصابة بالتغرب»، أو «التسمم بالغرب»، أو «نزعة التغريب»، وغير ذلك.

ويبدو أن الدكتور أحمد فرديد هو أول من نحت مصطلح «غرب زدگي»

بالفارسية[1]. ويوصف فرديد، بأنه مفكر عميق، لكنه صامت، وإذا تكلم فهو مبهم، ولا يدون أفكاره، ولذلك يعرف بـ«الفيلسوف الشفاهي». وقد كان له دور رائد في تعليم الفلسفة الألمانية في إيران، واعتناق آراء هايدغر، وتشغيل بعض مقولاته في المجال التداولي الإيراني، وعرف عنه تطبيقاته لنظريات هايدغر في دراسة الحضارة الغربية، وآثارها السلبية خارج محيطها الخاص، فمثلما يعتقد هايدغر بأن «كل حقبة من حقب التاريخ تختص بسيادة حقيقة معينة تطغى على بقية الحقائق، فيما تقذف بما سواها إلى الهامش»، يعتقد فرديد أيضا بأن «الغربيين أضاعوا اللّه، واستبدلوه بإله آخر، هو النفس المادية، أو النفس الأمارة بالسوء». كما يؤكد أن للبشر ثلاثة أبعاد: الأول علمي، والثاني فلسفي، والثالث معنوي، ومع أن «الأول والثاني احتلا مساحة واسعة في السنن الفكرية الغربية، لكن الثالث ظل غائباً وباهتاً، بشكل فاضح».

ولذلك يحذر أحمد فرديد من مخاطر شيوع حضارة الغرب في عالمنا، ويدعو إلى تجاوز التغريب ومخاطره باكتشاف ذات الغرب، أي أن نكون غربيين، لا بمعنى الاغتراب عن الذات وإنما بمعنى المعرفة الدقيقة بالغرب، والنفوذ إلى كنه الفلسفة والأنطولوجيا الغربية، لأن معرفة الآخر شرط لازم لمعرفة الذات.[2]

وقد أخذ جلال آل أحمد هذا المفهوم الفلسفي من فرديد، لكنه صاغه صياغة أيديولوجية، وعبأه بأفكاره التي استقى شيئاً منها في المرحلة

(1) تحدثت عن شخصية وتفكير أحمد فرديد في مقالتي المنشورة في مجلة الكوفة، العدد: السنة، بعنوان: «أحمد فرديد فيلسوف ضد الفلسفة».

(2) مهرزاد بروجردي. المثقفون الإيرانيون والغرب. ترجمة: جمشيد شيرازي. طهران: فرزان، 1998، ص104 108.

الماركسية من حياته، وهي أفكار تمنح آلات الإنتاج والماكنة دوراً مركزياً في حركة التاريخ، وبناء المجتمعات وفقاً لمعاييرها الخاصة.

يعرّف آل أحمد «نزعة التغريب» بأنها «مجموعة الأعراض التي تطرأ على حياتنا في جوانبها الثقافية والحضارية والفكرية من دون أن يكون لها أية جذور في التراث، أو أي عمق في التاريخ، وبدون أن يكون دخولها تدريجياً يسمح بالاستعداد لها، وإنما تداهمنا دفعة واحدة لتقول لنا: أنا هدية الآلة إليكم، أو قل إنها الممهد للآلة».

ويُعرف آل أحمد بتوجسه الشديد من كل شيء يرمز للغرب وثقافته، وبالأخص معطيات التكنولوجيا الغربية، فهو يرى أن كل شيء في عالمنا تدنسه الماكنة، و«يتمكنن»، وعندما يتمكنن يجري تهشيمه ونسفه.

ولعل مصدر هذا الفزع هو خيبة الأمل المزدوجة من الغرب بقناعه الأمريكي الذي أسقط حكومة الدكتور مصدق، وأطاح بإصلاحاته التي جسدت بعض أحلام جلال آل أحمد والنخبة الإيرانية، وخيبة الأمل من الاتحاد السوفياتي الذي يرمز للماكنة والسلع الغربية أيضاً، وما يلاحظه آل أحمد من قيم وثقافة وافدة يفرضها نمط الماكنة والسلعة الآتية من الغرب، وما تمثله الماكنة من مركزية محورية في خلق إشكالية التغريب الحضاري.

كما أن حظر الشاه رضا خان للحجاب، وإكراه رجال الدين على خلع العمامة، واختصار مكاسب الغرب في أزياء النساء، أو قبعة الرجال اختزن في وجدان آل أحمد وغيره من مواطنيه عداءً كامناً للغرب ما لبث أن انفجر في نزعات نفي وإقصاء شمولية تلفظ كل ما هو غربي.

وعرض آل أحمد آراءه هذه في دراسة كتبها كتقرير إلى مجلس أهداف الثقافة الإيرانية في وزارة التربية والتعليم سنة 1962 تحت عنوان «غرب زدگي» «وباء التغرب» أو «نزعة التغريب».

وكان المجلس الذي يضم في عضويته عشرة أشخاص، من ضمنهم أحمد فرديد قد تداول إمكانية نشر دراسة آل أحمد، غير أنه خلص إلى تعذر النشر بسبب نقده الصريح للنظام، وفضح دوره في تلويث الفضاء الثقافي للمجتمع بوباء التغرب.

من هنا، أثارَ كتاب «نزعة التغريب» عند صدوره ضجة واسعة بين النخبة في إيران، وما لبث هذا الكتاب أن أضحى بعد سنوات من أخطر النصوص لتعبئة الجماهير، وتجييش وتعبئة المجتمع ضد سياسات الشاه المتحالفة مع الغرب.

يكتب الناقد رضا براهني في بيان إثر هذا الكتاب: («نزعة التغريب» لآل أحمد كان له من حيث تحديد واجبات البلدان المستعمرة حيال الاستعمار الدور والأهمية نفسهما اللذان كانا للبيان الشيوعي لماركس وانجلز في تحديد مهمة البروليتاريا إزاء الرأسمالية والبرجوازية، وكتاب «معذبو الأرض» لفرانتز فانون، في تعيين ما يجب على الشعوب الأفريقية فعله إزاء الاستعمار الأجنبي. إن «نزعة التغريب» أول رسالة شرقية ترسم موقف ووضع الشرق مقابل الغرب المستعمر، وربما كانت الرسالة الإيرانية الأولى التي اكتسبت قيمة اجتماعية على مستوى عالمي).[1]

لعل هذا التقييم ينطوي على مبالغة في بيان أهمية كتاب آل أحمد، لكن وبغض النظر عن القيمة العلمية للكتاب فإنه عمل سجالي مشبوب بالإثارة والنقد الأيديولوجي للغرب، إنه خطاب تعبوي، وهو أقرب إلى الشعر المنثور منه إلى البحث العلمي والدراسة الموضوعية. وفي ذلك تكمن أهميته في تحريض الجماهير، وترسيخ عدائها لكل ما هو غربي. وهو عداءٌ

(1) رضا براهني. كتابة القصة. طهران، أشرفي، ط2، ص465.

عمِلَ على تثوير الشعب الإيراني، إلا أنه بدأ يضمحل في السنوات الأخيرة عند النخبة الإيرانية التي راحت تنشد صورة بديلة للغرب، صورة تستبعد الرؤية الخطأ التي تحسب أنّ تمام مكاسب الحضارة الغربية ومعارفها، ليست سوى ماكنة، ثم تهاجم بعنف تلك الماكنة، وتكيل لها ألوان التهم من دون أن تميز بين الأبعاد المتنوعة للغرب الحديث، وكأن الغرب هو ماكنة وحسب، بينما تتجاهل ما أنجزه الغرب، من علوم طبيعية، وعلوم بحتة، وعلوم إنسانية، وآداب، وفنون، وحريات وحقوق... وغير ذلك.

لا يصح اختزال أية حضارة في بعد واحد. أما الخلط العشوائي بين العلم والتكنولوجيا الغربية، من جهة، والوجه الاستعماري للغرب، فهو بحاجة إلى مراجعة وتحليل نقدي يحررنا من الرؤيا الإطلاقية الشمولية غير الموضوعية.

ظل خطاب آل أحمد حيال «المكننة»، وأثرها التغريبي في الشرق، ودورها في استئصال صورة الحياة التقليدية، وتدنيسها طهرانية عالمنا محكوماً بما يمكن تسميته بعقدة «المكننة» في غير واحد من كتاباته الأخرى، لا سيما كتابه الأثير الذي نقد فيه النخبة، ووسم مواقفهم بالخيانة، حسبما يشي عنوانه «المستنيرون: خدمات وخيانات».

عقدة المكننة واحدة من العقد النفسية التي تفجرت في ضمير آل أحمد وغيره من المفكرين، الذين أسرتهم الهوية والموروث، فأصبحت الهوية في ضميرهم وكأنها وثن ملهم، في حين أصبح كل شيء يرمز للغرب في ضميرهم شيطاناً، وهو موقف متطرف من الغرب لصالح التراث وقيمه وما أنجزه الأسلاف، يتبلور في الغالب لدى هؤلاء المفكرين في العالم الشرقي، بوصفه رد فعل على سياسات الحكام المستبدة إزاء ذلك التراث وقيمه، وما يلبث منطق رد الفعل هذا أن يستبد هو الآخر بمواقف المفكرين ورؤيتهم ومنجزهم، فيغدو آسراً لمشاعرهم، محتكراً لطاقاتهم العقلية، مستنفداً

لقدرات تفكيرهم على إنتاج المواقف والرؤى والأفكار العقلانية العلمية. وهو ما ينطبق تماماً على ما وصفناه بـ«العقدة» هنا، التي تمكنت من جلال، حتى وصلت إلى كتابه الجميل «قشة في الميقات» أيضاً. إذ صار يستفزه ويثير قرفه كل شيء يشير إلى الغرب، وسلعه، أو يرمز لعوالمه، بحيث تبدو المصابيح وأنوارها المشرقة في المشاهد المشرفة شيئاً يثير اشمئزازه، لأن تلك المصابيح المصنوعة والمصممة على طراز غربي تدنس الفضاء النقي الطاهر، حسب قوله.

وحين يستعير هذه الفكرة، يعمل جلال على محاكاة مبتذلة لهايدغر ورأيه المعروف في ميتافيزيقيا التكنولوجيا، وكيفية إنتاجها لنمطها الوجودي الخاص في عصرها. وعندما يستعير آل أحمد ذلك فإنه يتورط في تفسير مبسط غائم، تبعاً لفرديد الذي يتعاطى مع مفاهيم هايدغر بفهم ملتبس غائم، يلوّنه بنكهة عرفانية مبهمة، هي للسحر أقرب منها للعقل.

أدب الرحلة إلى الحج

أدب الرحلات من فنون الآداب العالمية العريقة، ويعدّ أدب الرحلات إلى الأماكن المقدسة من أروع أشكال هذا الأدب. وقد استأثرت الرحلة إلى بيت اللّه الحرام في مكة المكرمة، وزيارة الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم والمشاهد المشرفة في المدينة المنورة باهتمام طائفة من المسلمين الذين حرصوا على تدوين مشاهداتهم، وانطباعاتهم وأحوالهم في هذه الرحلة الكريمة، بل طالما شرع بعض المؤلفين بالبدء بتصنيف آثارهم في هذه الديار، والسعي لختامها هناك، أو الفراغ من الآثار التي كتبوها في مواطنهم هنا بغية تسجيل تاريخ الفراغ منها في هذه الأماكن الغالية، والاحتفاظ بذكرى عبقة عنها، تقترن أبداً بجهودهم الفكرية.

كما اشتهرت بعض المصنفات الهامة في التراث الإسلامي بنسخة مميزة، أعاد تدوينها المؤلف في البيت الحرام مثلاً، بعد فراغه من تأليف كتابه في موطنه، أو باشر بالتأليف في مكة المكرمة، وجاور البيت الحرام لسنوات، ريثما ينجز كتابه، ثم كتبه ثانية في بلد آخر.

وظل البيت الحرام على الدوام مصدر إلهام للكتّاب والمؤلفين الذين تشرفوا بالطواف في رحابه الطاهرة. وفي العصر الحديث وفد إلى الديار المقدسة بمعية أفواج الحجاج والمعتمرين، الكثير من الصحفيين، والأدباء، والمفكرين، واهتم جماعة منهم بتدوين رحلته والإفصاح عن تجاربه الروحية ووصف المناسك، والمراسم، والأماكن، والأسواق وطبيعة تقاليد وطبائع مواطني البلدان الإسلامية الذين التقاهم. ومن الواضح أن هذا الكم من أدب الرحلة إلى الحج، يتفاوت في أهميته الثقافية، وقيمته الأدبية، وقدرته على رصد التفاصيل الدقيقة، والوقائع المهمة في هذه الرحلة، لأن ذلك يرتبط بموهبة الكاتب، وإمكاناته الإبداعية، ونمط خبراته السابقة، ومستوى ثقافته وامتداداتها الأفقية والرأسية.

أهمية كتاب «قشة في الميقات»

بالرغم من وفرة الكتابات في هذا الحقل، لكن قلما نعثر على نماذج باهرة منها ترتقي فيها أدوات السرد إلى مستوى رفيع يجعله بدرجة تضاهي روائع الأدب العالمي.

وأحسب أن رحلة جلال آل أحمد إلى الحج الموسومة «خسي در ميقات» تعد واحدة من أندر وأثمن تلك الأعمال. وتكتسب هذه الرحلة أهميتها مما يلي:

1 ـ أن كاتبها من أبرز رواد القصة في الأدب الفارسي الحديث، مضافاً إلى

أنه ناقد، ومفكر، وسياسي، ورحالة، ومثقف متمرد، اجترح مغامرات فكرية لم تتوافر لمعظم أترابه؛ إذ تمثلت هذه المغامرات بتقلبات وتنقلات بين «محطات أربع» وصفت بأنها «كعبات أربع» هي: موسكو، باريس، القدس، ومكة. وإن هذه المدن ترمز إلى مراحل توجهه السياسي، والثقافي، والإلهامي، والإيماني، وأنه غادرها جميعاً، باستثناء مكة المكرمة، كما يؤكد شقيقه شمس آل احمد.[1]

فقد بدأ جلال رحلته الفكرية السياسية بموسكو حين تماهى معها من خلال التحاقه بحزب توده في السنوات 1944 ـ 1947. ثم أقلع منها إلى باريس، فانخرط في تيارات الأدب والثقافة الفرنسية، وشغف بألبير كامو، وسارتر، وغيرهم، فترجم «الغريب» لألبير كامو بالتعاون مع د. أصغر خبرزاده، سنة 1949 و«سوء التفاهم» لألبير كامو أيضاً سنة 1950، كذلك ترجم «الأيدي القذرة» لسارتر سنة 1952.

وتأثر بالعديد من المفكرين الأوروبيين، وأغرق في إطراء جان بول سارتر، عادّاً إياه مقياساً للضغط السياسي والأدبي، ومناهضاً لكل نزعة تسلطية، واستعار منه فكرة الالتزام الاجتماعي كجزء أساسي من مهمة الكاتب، وحذا حذوه في تسمية المستنير بـ«الضمير المريض» للمجتمع.[2]

وفيما مضى أشرنا إلى أنه تأثر بهايدغر، واستلهم أفكاره بشأن طبيعة التكنولوجيا الغربية والمادية الغربية بوساطة أحمد فرديد.

ثم يمم آل أحمد وجهه صوب مكة، وتبلور في وعيه نزوع واضح نحو

(1) غسان طعان. مصدر سابق. ص264.

(2) مهرزاد بروجردي. مصدر سابق، ص77.

الدين، والتراث، والماضي، وكان كتابه «نزعة التغريب» أول بيان صريح حلّل فيه آثار التغريب في إيران، وأردف ذلك بعد سنوات بكتاب هجائي للمثقفين المنبهرين بالحضارة الغربية، والمروجين لقيمها في المجتمع، صدر بطبعة محدودة سنة 1965 بعنوان «المستنيرون... خدمات وخيانات» ثم صدر نصه الكامل بجزأين سنة 1977.

وبوسعنا القول إن رحلته إلى الحج التي دونها سنة 1964، جسدت صورة ناصعة عن الإبحار الختامي لسفينته في شاطئ الديار المقدسة. ولا ندري ماذا كانت تخبئ الأيام لهذا الأديب الناقد في السنوات التالية من تحولات أو مواقف لو لم يختطفه الموت في 1969/9/8.

لقد أوضحت زوجته الدكتورة سيمين دانشور في مقالها الرثائي لزوجها اتجاهاته الايمانية في العقد الختامي من حياته بقولها: «... لم يكن مادياً، بل كان أصيلاً، وإذا كان قد اتجه للدين، فقد اتجه عن وعي وبصيرة، لأنه اختبر قبل ذلك الماركسية والاشتراكية، وإلى حد ما الوجودية، وكانت عودته النسبية إلى الدين... طريقاً للتحرر من الإمبريالية، وصيانة للهوية الوطنية، وسبيلاً إلى الشرف الإنساني، والتراحم، والعدالة، والمنطق، والتقوى... كان جلال يحمل همّ هذا الدين...».[1]

2 ـ اختار جلال آل أحمد الذهاب إلى الحج مع القوافل الشعبية الفقيرة، فكان حجه يماثل حج المتسكع، كما تفصح عنه مذكراته بالنسبة إلى نوع الطعام، والمساكن، ووسائط النقل، وطبيعة المرافقين في الرحلة. وهو اختيار لم يكن عشوائياً فيما أظن، ذلك أنه أراد أن يعيش الصورة

(1) سيمين دانشور. غروب جلال. قم: نشر خرم، ط4، 1992، ص21،22.

الحقيقية لهذه الرحلة، بعيداً عن التشريفات التي تخلعها على منتسبيها بعض القوافل المترفة، أو بعض الوفود والبعثات الرسمية.

أخال أن آل أحمد كان بإمكانه السفر مع قافلة مرفهة، يتبوأ فيها مكانة تمنحه امتيازات مادية ومعنوية تحافظ على مقامه، لأنه كان ينال مكافآت على كتاباته، إضافة إلى مرتبه الشهري، لكنه آثر أن يرافق قافلة شعبية ذات امتيازات متواضعة كي يلامس عن قرب مشاعر الناس، ويتحسس حياتهم عن كثب، مثلما تكلم عن ذلك فيما كتب في هذه الرحلة مشيراً إلى ضرورة اقتراب المفكر من هموم الناس، وقضاياهم عبر معايشتهم.

وكانت هذه عادته في السفر والتجوال بين المدن الإيرانية، إذ يسافر مع الناس في وسائط النقل العام، فينفتح على خفايا حياتهم عن قرب، ويندمج في آلامهم المختلفة، ويتعرف على طبيعة تفكيرهم، وتطلعاتهم، وأحلامهم، ورؤيتهم للواقع، وما يضج به من متاعب، ومشكلات متنوعة.

إن هذه الرحلة منحت آل أحمد فرصة مهمة لإعادة اكتشاف طبيعة العلاقات السائدة بين عامة الناس، ونمط وعيهم وتفسيراتهم للظواهر الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، ورؤيتهم الكونية، وطقوسهم، ولذلك كان يهتم بملاحقة كل صغيرة وكبيرة في أحاديث المرافقين في القافلة، وحالاتهم في ساعات الراحة والسكينة، والاضطراب والتوتر.

ومن ثم تبدو هذه الرحلة مناسبة عزيزة في حياة آل أحمد للفرار من عوالم النخبة ومشاغلها، والعيش مع عامة الناس، والالتصاق بحياتهم، تلك الحياة الزاخرة بالبساطة، والعفوية، والبراءة، المشابهة للبداوة،

أو القريبة من الأشكال البدائية، وهي أشكال ما فتئ آل أحمد شغوفاً بالعودة إليها، لأنه كان يمقت كل الأساليب الحديثة التي اكتسحتها.

ولم تقتصر مطامح آل أحمد في رحلته على الملاحظات العابرة، والانطباعات العاجلة، وإنما كان يسعى للتوغل في الأبعاد الخفية لما يراه من ظواهر، ويعمل على تحليلها، من أجل اكتشاف مضمراتها، وما لا تقوله من نزعات بشرية، وما يدخل في تشكيلها من عناصر ثقافية.

إنه يحاول أن يسجل ملاحظاته من منظور باحث أنثربولوجي، ولذلك يمكن أن تُصنف هذه المذكرات كوثيقة أنثربولوجية، لدارس مهتم بالتعرف على طبائع المجتمعات الإسلامية، وأنماط ثقافاتها، من خلال معايشة الجماعات الوافدة للحج من تلك المجتمعات، والاختلاط بمن يلتقيه منهم، والمبادرة بسؤاله، بما يتقنه من العربية أو الإنكليزية.

3 ـ تشتمل هذه الرحلة على معلومات تاريخية هامة، ذلك أن مؤلفها كان يدوّن ما يشاهده، من عمارة البيت الحرام، والجغرافيا السكانية والعمرانية لمكة المكرمة والمدينة المنورة، والأسواق والمتاجر، والشوارع، وعربات النقل، والمناسك، في عرفات، ومزدلفة، ومنى، وأشكال مخيمات الحجاج فيها، بل حرص على تقديم إحصائيات رقمية لأعداد الوافدين إلى الحج في ذلك العام، وجنسياتهم. وهي أرقام استقاها من الصحافة الصادرة وقتئذ، لأن آل أحمد كان مواظباً على مطالعة الصحف اليومية في الديار المقدسة، وربما استقاها أيضاً من أسئلته المتنوعة للأشخاص الذين يلتقيهم، حين يستقل وسائط النقل، أو يتجول في الأسواق، أو أثناء أداء المناسك، وزيارة المشاهد المشرفة.

وقد ظل يواظب على تسجيل ملاحظاته في دفتر يصطحبه حيثما

كان؛ في محل الإقامة، وفي السيارة، وفي المناسك، وحتى في مواطن الانتظار، في المطار، وغيره.

ولم يتوان جلال في كتابة مذكراته، إلى حين عودته، مثلما فعل غير واحد من الحجاج ممن كتبوا مذكراتهم بعد عودتهم إلى مواطنهم، وإنما حرص على تسجيل ما يعاينه مباشرة. كانت كتابته آنية، يسترق دائماً لحظات، فيخلو بها، ويعكف على تعزيز يومياته، والإضافة إليها في كل مرة يلفت نظره فيها موقف يستحق الذكر، فمثلاً تتمدد كتابته في بعض الأيام، بحسب زحمة حركته، ووفرة لقاءاته، أو تتقلص، عندما يضطر للمكوث في المسكن، ولا يلتقي الآخرين.

4 ـ تصنف رحلة آل أحمد إلى البيت الحرام من النصوص الأدبية الفريدة المدونة باللغة الفارسية في العصر الحديث، لأن نصه يوظّف الموروث الحكائي، والفلكلور، والسخرية، ويبدع في صياغة نموذج مميز للسرد.

ويذهب بعض النقاد إلى أن اسلوب جلال طوّر الأدب الفارسي، لأنه يصوغ عباراته ببيان يمزج فيه بين اللهجة الدارجة واللغة الفصيحة، وتتشكل نصوصه من جمل قصيرة، وأحياناً لا تحتوي الجملة التي يصوغها على فعل في تركيبها، ومع ذلك تعبر عن معناها بوضوح.

وربما كانت جزالة بيانه، وشفافية أسلوبه، وقدرته الفائقة على الكتابة بلغة السهل الممتنع، من العوامل الرئيسة لاشتهار آثاره، وشدة إقبال القراء عليها، ووفرة المطبوع منها.

وقد حاول بعض الأدباء تقليده واستعارة تقنياته في السرد، ومحاكاته فيما كتب، بنحو بات أسلوب آل أحمد أحد النماذج الشهيرة في الأدب الفارسي الحديث.

وقد تجلى هذا الأسلوب كأروع ما يتجلى في «قشة في الميقات»،

بوصفه من النصوص الأخيرة التي كتبها جلال قبل وفاته بسنوات، مضافاً إلى أنه كتبها في ظروف خاصة، مر خلالها بحالات قبض وبسط روحي، ولحظات انفعال، وتوتر، وضراوة، ولحظات استرخاء، وهدوء، وانشراح. وكل حالة ولحظة من تلك الحالات واللحظات تثير لديه شتى الهواجس، وتستدعي في وجدانه مختلف الإيحاءات والصور. وإلى ذلك يعود تميز أسلوبه وفرادته في هذه الرحلة، فهو يتألق في مواضع عديدة، فيرتقي إلى الشعر المنثور، أو قصيدة النثر، حسب مصطلح النقد الأدبي اليوم.

5 ـ ليست يوميات آل أحمد تأملات في استجلاء الأبعاد التربوية لعبادة الحج، واستيحاء فلسفة كل واحد من المناسك، كما فعل بعض الذين كتبوا عن الحج، لأن آل أحمد أراد لمذكراته أن تتدفق بعفوية، وتجري بتلقائية، لا تتقيد بترسيمات وحدود مسبقة، بل تواكب حركة الحاج، وأحداث الرحلة اليومية الشديدة الغنى والتنوع، فهي تضم رؤى أنثربولوجية، ورصد ظواهر اقتصادية، وتحليلات سياسية، وطرائف أدبية، ونقداً ساخراً، ومعلومات تاريخية، وجغرافية... وغير ذلك.

لكن رحلة آل أحمد توهجت فيها ومضات، تحدثت عن فلسفة لبعض المناسك، كشذرات رصعت عباراته، خاصة في المواضع التي كان يكتب فيها مذكراته في الأيام التي أمضاها في بقاع المناسك؛ في عرفات، والمشعر الحرام، ومنى، أو أثناء أداء الطواف في البيت الحرام، والسعي بين الصفا والمروة.

ولا أريد أن أبالغ لو قلت: على الرغم من مطالعتي لمجموعة من رحلات الحج المعروفة، وتشرفي بأداء الحج والعمرة عدة مرات، فإني وجدت نفسي مع «قشة في الميقات» أنبسط حيث ينبسط جلال،

وأنقبض حيث ينقبض، وأعيش في خيالي حالاته وأحاسيسه، في السعي والطواف، وكأني أواكبه في خطواته، وأتماهى مع مشاعره، فأرى ما يرى، وأرتشف ما يرتشف، وأتحسس خطواته، وأستمع إلى ابتهالاته واستغاثاته، وأذكاره. وعندما كنت أقرأ حالاته، أتعطش بوجد وشوق إلى البيت الحرام، والمناسك المقدسة، وأتمنى أن أتمثل تلك الحالات والابتهالات، بل أتمنى أن يطالع الحجاج والمعتمرون رحلة آل أحمد، لينفتحوا على ما تختزنه المناسك من منابع للإلهام الروحي والتربوي، وليغدو الحج مناسبة استثنائية لإعادة بناء الشخصية المسلمة، وإعدادها أخلاقياً ومعنوياً، لتجسيد رسالة الإسلام في الحياة، ومن ثم تجسيد التسامح، وقبول الآخر، والأمن والسلام.

لقد كان الدكتور علي شريعتي شديد الإعجاب برحلة جلال هذه، وكان يأمل أن يرافقه مرة أخرى إلى الحج سنة 1969، لكن آل أحمد التحق بالرفيق الأعلى قبل أن تتحقق أُمنية صديقه شريعتي، وعندما ذهب الأخير للحج في ذلك العام كان يقول: «إن أطياف آل أحمد ما لبثت ترافقني في كل مكان، كنا نؤدي المناسك معاً، لكن لا أدري لماذا وجدته في السعي أكثر حضوراً من أي مكان آخر. إن أشعة حضوره ظلت ساطعة.كنت أسمع صوت أقدامه،كان يهرول مسرعاً. كنت أتحسس زفير أنفاسه كزفير أنفاس عاشق.كنت أهرول مع جموع الناس، غير أني كنت أعانقه حيثما أذهب. ما انفك يهرول معي. أراه كالصخرة المتدحرجة من جبل الصفا. هكذا اندمج مع البشر، كنت أسمعه وأراه كالحلاج، حينما كان يضرب رأسه بعمود الاسمنت، وهو يصرخ بالناس: إنما أضربه لصلابته وعصيانه. لماذا رأيته في السعي أكثر من أي مشعر آخر؟ لأنه تفاعل في حجه بالسعي أشد من أي

منسك سواه. هكذا قرأته في رحلته إلى الحج. أظن أن عمره يشبه السعي. كان كالعطشان الذي يلهث وراء الماء لاسماعيل الظامئ في الصحراء. كان عَدْوه في الصحراء بمثابة السعي...».[1]

كتب آل أحمد يوم السبت الموافق 1964/4/18 في يومياته، وصفا للسعي بين الصفا والمروة، وهو يؤدي هذا النسك يقول فيه: «ذوبان الفرد في الجماعة، أتراه أقصى غايات هذا التجمع الغفير، وهذه الرحلة؟ عشرة آلاف إنسان، وربما عشرون ألفاً يمارسون شعيرة واحدة، في آن واحد. هل يمكنك أن تفكر بنفسك وسط هذا الانعتاق الجماعي الهائل، فتعمل شيئاً بمفردك؟ التيار يجتاحك ويأخذك أخذاً وبيلاً، هل حدث أن كنت وسط جماعة من الناس مذعورة، وهي تهرب من شيء ما؟ ضع كلمة «منعتقة» مكان كلمة «مذعورة» في الجملة السابقة، وضع «حائرة» بدل «تهرب»، أو ضع مكانها كلمة «لائذ». أنت مسلوب الإرادة مائة بالمائة، وسط هذا البحر العاصف من البشر. تنسلخ كلمة «الفرد» هناك عن كل معانيها ومدلولاتها، ولا يبقى فارق بين الألفين والعشرة آلاف... ووجدتني لا أستطيع المواصلة. أجهشت بالبكاء، وهربت. وعنّ لي أن البسطامي أخطأ خطأ فاحشاً، إذ لم يلق نفسه تحت أرجل هؤلاء السعاة، أو على الأقل أن يلقي أنانيته تحت أقدامهم. حتى الطواف، لا يثير مثل هذه المشاعر، والهياج الروحي».[2]

ثم يقارن جلال بين تجليات الروح حالة السعي والطواف، وما يمكن أن يستلهمه الإنسان من ممارسة كل واحدة من هاتين الشعيرتين، فيكتب: «في الطواف حول البيت تسير مع الناس بأكتاف متلاصقة

(1) على شريعتي. مجموعة الآثار. ج6:ص86 ـ 87.

(2) جلال آل أحمد. قشة في الميقات. ص150.

باتجاه ما، تدور معهم حول شيء معين، أي أن ثمة هدفاً فيه ونظاماً. وأنت نقطة في دائرة عظيمة تجول حول مركزها، فأنت إذن متصل بمنظومة معينة، ولست منعتقاً متروكاً لحالك، والأهم من ذلك أنك لا تواجه أحداً هناك. تلاصق عواتق الآخرين، ولا تنظر في وجوههم، فلا تبصر الانعتاق والهيام إلاّ في التدافع والتلاحم، أو تسمعه مما تلهج به الألسنة. لكنك في السعي تذهب وتجيء، حائراً كحيرة هاجر، ليس ثمة هدف أو وجهة... الحاج عند السعي يختزل إلى قدمين، وعينين، ذاهلة، ساهمة، تهرب من نفسها، وتهيم هنا وهناك. العيون يومئذ ليست عيوناً، إنها ضمائر عارية، أو هي ضمائر جلست على أعتاب العيون، تنظر أوامر الفرار، وهل يتسنى النظر في هذه العيون لأكثر من ثانية؟! كنت أظن إلى اليوم أنه لا يمكن التحديق في الشمس فقط، لكنني اكتشفت الآن تعذر ذلك مع بحر العيون الساعية أيضاً، ولذت بالفرار. بعد شوطين فقط من الذهاب والإياب، يتجلى لك بكل وضوح أية لانهاية صنعتها من هذا الصفر، وذلك حينما تكون متفائلاً، وقد شرعت لتوك، وإلا سترى نفسك أقل حتى من الصفر، حيال هذه اللانهاية، كقشة في البحر، بحر من البشر، بل ذرة هباء في الفضاء». ويردف آل أحمد موضحاً ما استولى عليه من ذهول، وتوتر، وانفعال، في المسعى، «أقول بصراحة: شعرت كأني أقترب من الجنون، لقّني شوق عارم أن أرطم رأسي بأول عمود إسمنتي، وأفجره. لا أطيق السعي إلاّ إذا كنت مكفوف البصر».[1]

انتخبنا هذا النموذج من كتاب جلال، ليطلع القارئ على أسلوبه في تحليل مناسك الحج، واستجلاء فلسفة هذه العبادة التي تؤديها أفواج

---

(1) المصدر السابق. ص151.

غفيرة من المسلمين كل عام، باختلاف أعراقهم، ولغاتهم، وبلدانهم، لكنهم يتوحدون في أداء المناسك.

ومع أن آل أحمد لم يتوسع في الحديث عن الآثار المعنوية والأخلاقية للحج، غير أنه بثّ مجموعة أفكار هامة في سياق حديثه عن الأيام التي أمضاها في عرفات، والمشعر الحرام، ومنى، كذلك اهتم بوصف حالته، وحالات من صحبهم من الحجاج، والذين التقاهم حال أداء المناسك، واطّلع على أشواقهم الروحية، ومواجيدهم، وابتهالاتهم.

ولا يبدو آل أحمد متفائلاً، بسبب عدم استيعاب الكثير من الحجاج للأبعاد العميقة لهذه التجربة الروحية، ذلك أن الأمية والجهل وقتئذ، لدى أعداد كثيرة من الحجاج، وعدم توفرهم على ثقافة شرعية مناسبة، واستغراقهم في الإطار الشكلي للطقوس، حجبهم عن وعي أهداف المناسك، وإدراك مقاصد الحج، واستلهام الآثار التربوية الهامة للمشاعر المشرفة.

إشكالية العنوان

تبرز براعة آل أحمد، وموهبته البيانية، في قدرته الفائقة على ابتكار عناوين فريدة لكتبه، بحيث تغدو هذه العناوين، بعد ذيوع الكتب التي تحملها في مرحلة لاحقة، وكأنها لافتات فكرية، وشذرات أدبية، وهو ما نلاحظه بجلاء في كتابه «غرب زدگي» «نزعة التغريب» إذ ما برح هذا العنوان أن تحول إلى مصطلح واسع التداول في الأدبيات المدونة بالفارسية بعد صدور كتاب جلال.

وكعادته انتخب عنواناً أثيراً ليومياته التي دونها في رحلته إلى الحج، فوسمها بـ«خسي در ميقات». و«خس»كما في معاجم اللغة الفارسية تعني:

(تبن، أو علف جاف، أو شوكة، أو نتفة تافهة من الخشب، أو حشائس جافة مضمحلة، وتستخدم مجازاً بمعنى حقير، ووضيع). ويقابلها بالإنكليزية Small chip of wood.[1]

أما الياء في «خسي» فهي للتنكير، تنكير الاسم وإخراجه من كونه معرفة إلى معنى شائع في جنس، كما في «رجل».

وبعد مطالعة الكتاب وجدنا آل أحمد يشير بكلمة «خسي» في عنوان كتابه إلى حالة اضمحلال، وتلاشي «الأنا» وذوبانها، حال أداء المناسك، كما صرّح بذلك في مواضع متعددة من مذكراته. فوقع اختيارنا على كلمة «قشة» العربية، وهي كلمة تتضمن المعنى الموازي لكلمة «خسي» الفارسية، مضافاً إلى أنها تتضمن المداليل التي تفصح عنها يوميات جلال.

ولا نعلم لو كان المؤلف حيّاً هل يوافقنا على هذا العنوان بالعربية؟ لكننا نحسب أن «قشة في الميقات» عنوان غير مستهلك، لأنه يستخدم للمرة الأولى في تسمية كتاب في أدب الرحلة إلى الحج، وربما في عناوين الكتب العربية، ولعل ذلك يرضي آل أحمد، وهو الأديب المعروف بكلماته المضيئة، وبنفوره من العناوين المكرورة المبتذلة.

موقع رحلة آل أحمد في أدب الرحلة إلى الحج المدون بالفارسية

إن رحلة جلال إلى الحج تظل في ذروة الآثار المدونة باللغة الفارسية في هذا الحقل، وهي تتوافر على الكثير مما يتسم به نص آل أحمد، حسب وصف زوجته الدكتورة سيمين دانشور، من أنه نص «مشبوب، دقيق،

(1) لاحظ مادة «خس» في: دهخدا. لغتنامه. وعميد «فرهنگ». ومعين فرهنگ. ومحمد التونجي. فرهنگ فارسي عربي.

ثاقب، ناقم، متطرف، عنيف، صريح، حميم، تنزيهي، مثير، مكثف بصورة برقيات». ومقارب لذلك وصف الدكتور علي شريعتي بأنه نص «حاد، موجز، ساخر، صريح، إنساني، عفوي، جريء، عميق، فاضح، متين، جزمي، أُحادي، تقريري»[1]

وهي خصائص ربما تبدو متنافرة، لكن نجد معظمها في كتاب «قشة في الميقات». ولذلك فإن عباراته التي صاغها على شكل برقيات، وجمله الموجزة المكثفة، قد تبدو مفككة عند نقلها إلى اللغة العربية، لكن حرصت الترجمة على إشباعها بأدوات الربط ليظهر النص منسجماً متماسكاً.

ومن الآثار المهمة في أدب الرحلة إلى الحج باللغة الفارسية كتاب «موعد مع إبراهيم» للدكتور علي شريعتي، وهو كتاب يقع في ستمائة صفحة، ويضم ما كتبه شريعتي في سفرته الأولى إلى الحج، سنة 1970، وسفرته الثانية والأخيرة، سنة 1971. القسم الأول يتضمن محاضراته في الرحلة الأولى، وهو عبارة عن أربع محاضرات متوالية ألقاها في حسينية الإرشاد في طهران بعد عودته من الحج تحت عنوان (موعد مع إبراهيم).

أما الرحلة الثانية فهي تتألف من إحدى عشرة محاضرة ألقاها شريعتي في المدينة المنورة، ومكة المكرمة، والمشاعر المشرفة، وهي تتمحور حول: (المدينة المنورة كمحطة للهجرة، والحضارة كنتيجة منطقية للهجرة، ورؤية تحليلية لفلسفة مناسك الحج، ودراسة في السيرة النبوية من الولادة إلى البعثة... وغير ذلك).

كذلك ألقى المهندس مهدي بازركان محاضرة في عيد الأضحى سنة 1959

---

(1) حسن ذو الفقاري وصاحباه. اللغة والآداب الفارسية. طهران: نشر جشمه، 2002م، ص206.

بعنوان «بيت الناس». تكلم فيها عن الآثار الاجتماعية للحج، ودور المناسك في توطيد أواصر الوحدة بين المسلمين، وبناء أسس الأمن والسلام. وهي أفكار استلهمها من الآيات القرآنية الكريمة، في ضوء رحلته إلى الحج قبل هذا التاريخ بثماني سنوات، أي في عام 1951.

هذه أهم الكتابات الحديثة المدونة بالفارسية في أدب الرحلة إلى الحج، وتظل رحلة آل أحمد متميزة، لأنها الوحيدة التي تتكون من يوميات، سجل فيها مؤلفها مشاهداته، وانطباعاته، وهواجسه، وتطلعاته، وآماله، وانفعالاته، وهو يتنقل بين البقاع المقدسة، ويتعاطى مع رفاق السفر، ومع مختلف الناس القادمين من شتى المواطن إلى الحج.

شكر خاص للصديق الأستاذ حيدر نجف مترجم هذا الكتاب على جهوده في نقله إلى العربية ببيان أدبي حافظ على حساسية كلمات المؤلف وبراعته التعبيرية.

وما توفيقي إلا باللّه عليه توكلت وإليه أنيب.

وعنه «رضي اللّه عنه» أنه قال: قصدت مكة ذات مرة. ولم أر هناك إلا البيت. فخالجني أن حجي غير مقبول، لأني شاهدت الكثير من هذه الأحجار. حججت مرة أخرى فرأيت البيت وربّ البيت. مع ذلك قلت أني لم أبلغ حقيقة التوحيد بعد. وقصدت الديار تارة ثالثة. رأيت رب البيت ولم أر البيت. وكأن أحداً ينادي؛ يا أبا يزيد إذا رأيت العالم كله ولم تر نفسك، فلست بمشرك. وإن رأيت نفسك كنت مشركاً حتى لو لم تر من العالم شيئاً. عندها أنبت إلى اللّه وتبت... من رؤية نفسي

علي بن عثمان الهجويري
«كشف المحجوب» ص 134

الجمعة 10 نيسان 1964

جدّة

طرنا في الخامسة والنصف صباحاً... من مطار «مهرآباد»... وكنا هناك في الثامنة والنصف... السابعة والنصف بالوقت المحلي... والضيافة في الطائرة. الإفطار خبز وقطعة دجاج وبيضة في علبة عليها علامة شركة الطيران بلا شاي أو قهوة. لكن الحجاج «أو الحجاج لاحقاً» ظلوا في شك من أمرهم مريب؛ هل بإمكانهم أن يأكلوا أم لا؟ هل كان الذبح شرعياً أم لا؟ ولا أدري ما الذي بدد شكوكهم. ربما كان رئيس قافلتنا الذي شارك مضيفي الطائرة توزيع الطعام وكأن التكاليف فرت من جيبه. وبعد الطعام برتقالة، بمساهمة الرئيس أيضا. بعدها طلب أحد المسافرين ماء. فجاءته المضيفة اللبنانية الشابة بالماء. وسمعت زميلها الشاب يقول لها «Commence pas sitôt»[1] هكذا بالفرنسية تماماً مما دعاني للضحك. وشاهدوا ضحكتي. فتكلموا بالأرمنية بعد ذلك. عرب أرمنيون لبنانيون يضيفون في طائرة تقل الحجاج من طهران إلى جدة! ثم، من أنت وما تكون؟ أتذكر أني صلّيت الفجر في جناح الحجاج بمطار طهران. لا أدري بعد كم سنة من ترك الصلاة. ربما بعد أن تركتها في الصف الأول من الجامعة. يا له من زمان! كنت أتوضأ وأصلي. وأحيانا صلاة الليل. وفي أخريات أيامي، لم أكن أسجد على «تربة»، فكانت هذه مقدمة تكفيري. لم أعد مندفعاً للصلاة. أشعر اني أرائي. أي

(1) أي «لا تبدأي الآن».

أني لا أؤديها كما ينبغي. وحتى لو لم تكن رياء، فهي خلو من الإيمان. لمجرد الذوبان في الجموع... أفتسافر إلى الحج ولا تصلي؟

كان المقرر أن نطير أمس صباحاً، ولكن تعذر الأمر. تحركنا في الرابعة صباحاً إلى المطار، وعدنا في السابعة ملومين مدحورين. في حين كان جناح الحجاج غاصاً بالبشر. الأطفال نيام كأنهم وسائد بعضها ممدود، وبعضها منكمش. وفي جانب، وقفت جماعة من الأكراد يعتمرون «الجراويات»[1] وأكفهم على صدورهم يصلّون. وإمامهم ذو جراوية بيضاء. وأحدهم في الصف طويل القامة كأنه الملك بجانب الجنود في رقعة الشطرنج. والإمام بجراويته البيضاء لا يعادل نصف قامة جندي. هذا هو الحج الأكبر بعجائبه. وما أحسن ما صنعنا! إذ نمنا أمس بعد الظهر، وفي المساء الباكر أيضاً. وفي الثانية من بعد منتصف الليل أو يزيد أيقظنا جرس الهاتف. عجّل حتى لا يفوتك القطار... عفواً، الطائرة! والوداعيات، والقبلات، وأفراح المشيعين! يظنون أن الحمل الضائع (أو ربما الضال) عاد إلى القطيع. واثنان من الأصدقاء بضحكات خبيثة على الشفاه. مغزاها «أية حيلة هذه من هذا الرجل...» وهم لا يدرون أنْ ليس في الأمر حيلة ولا قطيع. إنما هو مهرب آخر. وذلك الحمل الوديع هو الآن نعجة مجذومة تترك الآخرين لكيلا تعديهم.

انتظرنا الطائرة في جناح الحجاج. المفتشون الشباب يرمقوننا بمزيد من الإعجاب والامتهان. يرمقون الجميع، وأنا خصوصاً (ربما توهمت ذلك، لأني كنت دخيلاً على هؤلاء القوم) ولابد أن الذي جال في قلوبهم عنا أنْ «يا لهم من حمقى». ومن هم؟! خيرة مستهلكي شفرات الحلاقة، وربطات العنق، ومعجون الأسنان! أما الحجاج فهم: قرويون، وكسبة سوق،

(1) الجراوية: عمامة الرأس.

وعجائز، ومتحجرون، وعدد قليل جداً من أمثالي. ويا للعجب! يتركون كل شفرات الحلاقة هذه، وأنواع الأصباغ والألوان، ليسافروا إلى كشف روحي. كل واحد منهم على شاكلة. واحدٌ لاكتشاف السفر، وآخر لاكتشاف الكعبة، وآخر لاكتشاف الكشف. أحد الكسبة أخرج بوصلة القبلة وراح يكتشف القبلة عند صنبور مياه الوضوء. أول تجارب السفر! كأننا تائهون في صحاري أفريقيا. (ارتفع الآن، أذان العصر، من مكبرات مسجد بجوار «مدينة الحاج»، الساعة الخامسة إلا ثلثاً) ولا أحد يدري أن في جانب من مطار مهرآباد [1] بنوا قسماً خاصاً للحجاج، فيه مسجد، وبالإمكان معرفة القبلة من محرابه. ثم ماذا يعني «جناح الحجاج»؟ هذا يعني فصل مرعى الحملان عن مرعى النعاج. فالذي يقصد باريس أو لندن أو نيويورك يجب أن لا تقع عينه على حجاج بؤساء، يحمل كل واحد منهم إبريقاً بيده، وصندوقاً على كتفه، وكيس خبز يابس، ولبن، وباقي التوافه... لابد من فرق بين الصنفين! ذلك السيد أو السيدة المتزوقة، ممن يقصدون العالم المتحضر، لابد أن يصانوا طبعاً من رؤية جهلاء، لبّوا دعوة البداوة.

حلّقت بنا الطائرة فوق الغيوم لمدة من الزمن، فكأن وسائد قطنية تحت أرجلنا. وحفراً عجيبة أحياناً. ثم انقشعت السحب أو انقشعنا عنها لندخل في الغبار، كل ما تحت أقدامنا أحمر أحمر. ثم كنا فوق صحراء تطل فيها الجبال برؤوسها من بساط الرمال الممدودة. كأنها جزر ناتئة وسط البحار. وفي أماكن أخرى هوّات بلون بُنّي فاقع، وتصدعات الأرض بعد المطر. ومرتفعات حجرية سوداء. لا أثر للعمران البتة... إنها الرمال... والرمال... والرمال... إلى أن تعبت.

كان بجواري رجل متوسط العمر، شديد السمرة، يبدو منطوياً على

---

(1) مطار طهران الدولي.

هواجسه، وربما خائفاً بعض الشيء. هذه أول مرة يسافر فيها بالطائرة. يصرخ حين يتكلم. ساعدته في نصب مائدته الصغيرة أمامه، ووضع الطعام عليها. فقال «نعم، شكراً، كنت أعرف هذا»... ثم دردشة قصيرة... ضابط شرطة متقاعد. في درجة رائد. أولاده متزوجون، ويعيش وحده مع زوجته. والآن، يقصد حضرة الخالق لأداء الواجب. لكنه خائف. «يقولون إن عرفات عصيبة!» أخبرته أنني أيضا أقصد الحج للمرة الأولى. بعدها وقف نوّاحنا، وبيده مكبرة صوت تعمل بالبطاريات، وراح يرتل:

«تعال يا صاحِ وانظر زينب المضطرة...

تلطم رأسها والصدر... وإلخ»

تألفت مجموعتنا من 85 نفراً. عشرون أو ثلاثون من الكسبة. وخمسة عشر من أهالي مازندران، خمسة أو ستة من المعممين والنوّاحين والمداحين. وعشرة قرويين من ضواحي أراك وهمدان، لا يتكلمون إلا التركية. وعشرون امرأة. ومن عائلتنا: شقيقتي وزوجها «جواد» وهو لي بمثابة الأخ. وزوج شقيقتي الثانية «محدث» الذي تعد صحبته في مثل هذه الأسفار غنيمة. وخال والدي. لقد كنا مجموعة داخل المجموعة. رئيس قافلتنا كان من أهالي المحلة. أحد مريدي والدي. أنا الذي أقنعت الآخرين بالسفر معه. كان صانع سقوف في السابق. نويتها ردّ جميل لأحد أنصار والدي ومحبيه. وعمال السفرة، هو نفسه، وابنه، وطباخ، ومساعده. وهكذا لا أظن أن شيئاً سينقصنا.

اليوم نفسه، مساء، المكان نفسه

إذا أردت أن أجهد نفسي كل يوم على هذا المنوال، فلن أستطيع المقاومة. علي أن أحترز. خصوصاً مع هذا الماء الذي نشربه. جلبت معي

علبة أقراص ملحية. لكني لم أتناول منها ولا حبة. فأنا لم أهرب إلا من هذه الأمور. أما الماء فشربت منه منذ الصباح إلى الآن ما يزيد على عشرة ليترات... ينبغي أن أكون منظماً.

حينما نزلنا من الطائرة صباحاً، توجهنا مباشرة إلى هذه البناية «مدينة الحاج» المجاورة للمطار. بناية ضخمة غير منتظمة من ثلاثة أو أربعة طوابق. مصابيحها متوهجة، وشبابيكها تنفتح على كل الجهات، والتهوية فيها جيدة. تشرب الماء وتتعرق، وتهب إلى الغرفة رياح كأنك في أعلى مرتفعات توجال.[1] بمجرد أن وصلنا في الصباح، دسست ثياب طهران في الحقيبة، واشتريت «دشداشة» بثمانية ريالات سعودية. (الريال ثمانية عشر قراناً إيرانياً» ونعلين مطاطيين من صناعة جاوة (اندونيسيا) بريالين. وما أطرف القميص! كأنه قالب سكّر! ومع ذلك خرقت جانبي أذياله بالسكين، ليمكن القعود به والقيام. لكن أعلاه ضيق إلى درجة تشعر معها أنك تعانق شخصاً على الدوام!!

يجب أن أكون منظماً. كنت أتحدث عن «مدينة الحاج». أربعة طوابق بالضبط. ونحن في الطابق الثالث. كل ضلع من كل طابق (لكل طابق ستة أو سبعة أضلاع. مضلع غير منتظم) لجماعة من القافلة. يستريحون فيه بعض الوقت ليحين أوان انطلاقهم من جدة إلى المدينة أو مكة، تبعاً لتبكيرهم في المجيء أو تأخيرهم. يقال حدث أن تأخر الحجاج هنا ثلاثة أيام أحياناً. ولكن أظن أننا سنسير هذه الليلة. وأنا أقتل الوقت بهذا الدفتر في انتظار المسير.

نظافة البناية كارثة بكل معنى الكلمة. مجاري كل المراحيض مسدودة

(1) منطقة جبلية باردة شمال طهران.

(فحصت عشرة منها) والمغاسل بلا ماء، وكذلك أنابيب الحمام. حينما وصلنا صباحاً كان فيها ماء. لكن الماء نفد بعد الظهر. فكان هجوم الناس. والقذارات وقشور الفاكهة موزعة في كل مكان. وفي كل زاوية طباخ نفطي. «سماور» أو مشعل طبخ، أو مطبخ بكل مستلزماته. والكل على الطارمة المحيطة بالبناية. الرصيف الخارجي هو في الوقت ذاته إيوان البناية. وعلب الببسي والكوكا ونفايات المسافرين في كل مكان. والماء يجري على الأرض في كل بقعة. وشكوك دائمة هل هذا ماء أم مياه آسنة لم تتسع لها المجاري. وهذه الدولة العلية يبدو أنها منهمكة بمعالف النفط. حتى لو مات كل هؤلاء الحجاج من المرض، فالمهم سلامة آبار النفط. أتذكر أني اضطجعت قليلاً وقت العصر، وعندها جاء شابان أشقران أجنبيان بسراويل قصيرة يتفرجان. نوع من الكشف. برفقة اثنين من الكشافة السعوديين على لباسهما نياشين ورتب وقلائد وما إلى ذلك من خزعبلات. سألت الكشافين السعوديين بعربية عاثرة؛ هل هؤلاء مسلمون حتى أذنتم لهم بالدخول هنا؟ إما أنهما لم يفهما ما قلت أو لم يرغبا في الرد. لكن كلمة «مسلم» يستطيع سماعها كل أصم أبكم. على كل حال، كان الوقت ضيقاً، وغادروا بسرعة. ألقوا نظرة خاطفة على كل غرفة وأسرعوا بالذهاب. في كل غرفة يتقلب خمسون حاجاً على الأقل. وما من مكان للضيوف.

في الصباح، حينما جئنا من الطائرة إلى مدينة الحاج (واستغرقت هذه الخمسون خطوة ساعتين من الوقت) خرجت من فوري إلى الشارع، واستأجرت أول سيارة تاكسي رأيتها (شوفرليت حديثة) واتفقت معه على 15 ريالاً سعودياً مقابل أن يتجول بي في المدينة. تجول بي السائق واضطر أن يكون دليلي. شاب لا يعرف غير العربية. واستطعت مع ذلك أن أنتزع منه الأسعار. الليتر الواحد من البنزين بأربعة قرانات إيرانية (كل عبوة ذات

18 ليتراً بأربعة ريالات سعودية) أجرة التاكسي ريالان، الباص أربعة قروش، وهكذا. ثم معلومات طازجة: سكان جدة 250 إلى 300 ألف نسمة. السعودية كلها 8.7 ملايين نسمة.[1] في كل المملكة هناك ثلاث صحف فقط «البلاد» و«الندوة» وصحيفة أسبوعية اسمها «أم القرى». وكلها صحف حكومية. العرب الشرقيون يشربون القهوة اعتزازاً بشرفهم الأرستقراطي «البدوي». والغربيون (أي الحجازيون) يشربون الشاي... ومررنا بجوار قبر حواء. جدار سميك طويل الامتداد قصير القامة. وفي جانب منه باب ضيقة واطئة أكل الدهر عليها وشرب. أسوأ من أنأى أضرحة الأولياء الإيرانية، في ابرقو مثلاً. وهذه أم البشرية! ثم مررنا بجوار وزارة الخارجية، ويا لها من فخامة! ثم على سوق البدو الذي ما كان ضجيجه قد سكت بعد. ثم بجوار «قصر الملك المعظم» بجدرانه الشامخة وبوابة يحرسها جنود ملثمون ببنادق على أكتافهم. ثم مررنا على جدار قصير جداً يحيط مساحة واسعة «المصلى» يصلون فيها الجمعة. وصلنا متأخرين للأسف. أرضه مملوءة بمساند تشبه المنابر أعدت بلا شك للخطباء أو المكبرين. مساحته بحجم ساحة «توب خانه»[2]. ومدينة قديمة تخلع جلدها وتتحدث. ومد شوارع جديدة كما في يزد وطهران وكرمان. والتراب والحصى وأدوات البناء والوحل والطين. تبللت بعض البقع في الشوارع بسواد النفط تلقائياً. ثم سرنا إلى البحر حيث تملأ رائحة الملح كل مكان. والسفن الراسية. ثم مدينة الحاج البحرية (والتي نسكنها مدينة الحاج الجوية) وسفينة هندية راسية ينزل منها الحجاج... بأقل ما يمكن من المتاع. شال على الأكتاف، ووزرة على الخصر، ووعاء ماء

(1) في حين أنها لا تتجاوز الأربعة ملايين في أعلى التقديرات. مما يضطرني إلى الشك في غيرها من إفادات هذا الدليل غير المأجور. من حقه هو أيضا كمواطن شريف أن يتبجح أمام زائر غريب بمفاخر قومه، كانت أم لم تكن.

(2) الساحة المركزية في طهران مساحتها قرابة 3000 متر مربع.

في اليد لشرب الماء أو الشاي أو التطهير. الإيرانيون يستعملون الأباريق. والأتراك أنبوبا فلزياً طويلاً يشبه مصابيح قديمة. واللبنانيون والسوريون لهم أباريقهم المطاطية أصغر من أباريقنا، والهنود والأفارقة أوعية فلزية صغيرة (كتلي). وكل واحدة من هذه علامة وطنية راسخة لا تحمل على الأعلام، بل في أيدي أبناء الشعب. ولها استعمالاتها وفوائدها!

كأن حجاج قافلتنا يكرهون الراحة. لم يفتؤوا من الصباح إلى الآن يفتحون أمتعتهم ويشدونها. ربما يردون بهذا على بطالة الحضر. وفي هذا تتحمل نساؤهم العبء الأكبر. وبكل دقة. كل الحقائب مغلفة الظاهر. مصنوعة من الجنفاص والتربولين وبحمائل وأقفال وحبال تطوقها. ثم يلفّون كل حقيبة بسجادة و«لا، ليس بهذه الصورة، يبدو أن الشدة غير متقنة». وهذا يعني البدء من الصفر. ليست القضية لهواً أو لعباً. إنه سفر الحج والبادية! وهؤلاء جاء كل واحد منهم بالأمس من جنب بقراته وسياقاته أو من خلف درج نقوده في السوق. أو من خلف طاولة الدائرة. أياً كان، فهم يجربون شيئاً جديداً. إذا كانت الطائرة تنقلك في ظرف ثلاث ساعات من طهران إلى جدة، ولا تتيح لك فرصة الركوب سنة كاملة على البغال والجمال من مزلقان إلى سولقان لتصل إلى هنا، فإنك ستفتح الأمتعة في جدة وتشدها بمقدار ما يستلزم السفر على البغال والجمال. والطريف هم هؤلاء الأتراك الأراكيون. أحدهم لم يخلع سترته الجلدية لحد الآن (في هذا الحر القائظ أوائل الليل... أي في ذروة الرياح الشرقية!) ومع ذلك ذهب عصراً واشترى دشداشة لبسها على السترة. كتفاه محصورتان تحت الثياب بشدة. ومع أنه لا يفهم الفارسية إلا لماماً، مازحته عصر اليوم وقلت له حاذر أن تصاب بالزكام. وقال رجل من أصفهان «يا حاج... لقد خاط فلوسه داخل المعطف» نتدرب من الآن على مخاطبة بعضنا «يا حاج». والأغرب أمواله التي ذهب

إلى السوق لتصريفها... في باحة بنايتنا «مدينة الحاج». ورأيته يسأل أربعة أشخاص إلى الآن عن فارق عملتنا عن الريال السعودي. مخافة أن ينصب أحد عليه. يصيح بأعلى صوته أنه لم يذهب إلى الآن حتى لزيارة قم. والآن؟ أعطى في سوق جدة تومانات، وأخذ ريالات. والصرافون يتكلمون الفارسية، والتركية، والأردية، والاندونيسية... بمقدار ما يحتاجونه في التعامل.

الهواء شرجي للغاية (مشبع بالرطوبة). والأجساد مغسولة دوماً. وربما كان وجع العظام بانتظارنا الليلة. إن كان بوسعنا أن ننام بهذه الأرجل العارية، والرقاب والأكتاف المهتوكة. أياً كان يجب ترويض النفس استعداداً لأيام الإحرام. ومروحات الغرف هذه تعمل ليل نهار. وإن لم تعمل؟ عند الغروب فما بعد هبت رياح وفتحنا مع ذلك المروحات. يقال إننا سنسير هذه الليلة.

مررت عصراً على الطوابق والأضلاع الأخرى. كثرت أعلام الأمم على ناصية أضواء المصباح حول البناية. وعلى كل واحد منها اسم ورسم رئيس من رؤساء المجاميع. التركي والفارسي والعراقي والسوري والمغربي. الشرطة تتجول دوماً على أرصفة أطراف البناية. كلهم شباب. بلباس خاكي، وقبعات، ومسدسات في الأحزمة، وهراوات في الأيدي. يتفرجون. امرأة تحمل على كتفها حقيبة صغيرة أقفلت بابها بقفل رمزي، وقفت جانباً تصلي بأيدٍ شدتها على صدرها. بلا قنوت، ولا قصر. ومن تحت أرجلها يجري خيط رفيع من الماء. من تلك المياه المجهولة الهوية. والطريف وجهها الذي تشقق ثلاثة شقوق متوازية مائلة. ثلاثة أخاديد على كل خد.

رأيت العديد مثلها من الصباح إلى الآن. الشقوق على خد كل واحدة بشكل معين. بعضها علامات جمع وبعضها علامات ضرب، وبعضها خط عمودي، وبعضها خطان أفقيان... وهكذا. وما أشد ما تألمت لإحداهن!

كانت في العشرين أو الخامسة والعشرين من عمرها. في غاية الجمال وبدينة بعض الشيء. ملامح وجهها ليست زنجية. وعلى كل واحد من خديها أخدودان عموديان. ولون اللحم في قعر الأخاديد أفتح من قير الجلد البراق. جلست في زاوية تبيع بعض أطوال الأقمشة الأفريقية. دردشت معها. بالفرنسية. كانت من الكاميرون. وطلبت أن أشتري شيئاً. لكنها كانت أجمل بكثير من أقمشتها. ولم يكن هذا شيئاً تبيعه هي أو أشتريه أنا.

ومررت بمركز الصحة في قافلتنا. في الطابق الثاني من مدينة الحاج. في غرفة كبيرة ونظيفة ومرتبة. بصيدلية جيدة منظمة. وفيها موظفان. نظموا الخفارات من أول الأسبوع. مجموع العاملين في الهيئة الصحية الإيرانية 72 شخصاً. اثنان وعشرون منهم أطباء، وفيهم طبيبات. سجلوا إلى ذلك الوقت من النهار 449 مراجعة. والأمراض: داء الطائرات، ضربة الشمس، الإسهال (بسبب أكل اللبن الحامض على حد قول الطبيب) ومن هؤلاء ثلاثون نيجيرياً، وثلاثة أفغانيين، وعدة سودانيين، وأتراك، ويمنيين، وواحد مصري. باب المركز الصحي مفتوح للجميع. بعض أعضاء الهيئة الصحية في المدينة الآن، وبعضهم في مكة. والكل في مكة يوم عيد الأضحى. أدلى الطبيب بهذه المعلومات وهو يمارس مهامه.

وهؤلاء الصرافون لا يخلون من طرافة. عندما أردت التصريف صباحاً، ذهبت إلى البنك. في الطابق الأرضي من مدينة الحاج التي نحن فيها. كان مفتوحاً رغم أن اليوم جمعة. لكن الموظف لم يصرّف نقودي. وقال «اذهب للصرافين». وهم في الباحة قرابة العشرين رجلاً. جلس كل واحد منهم على سجادة في زاوية ومعه صندوق صغيرة مفتوح بابها. وداخل جفنة برونزية بعض نقود سعودية، وعلى قطعة ورق مقوى عملات مختلف الدول. صورة نابليون ورأس أتاتورك وتمثال اليزابيث وغيرهم من العظماء.

السعر واحد في كل مكان. والجماعات جالسون من الآن في كل مكان من الباحة يتعاملون ويتساومون. بيع وشراء. ودكاكين الأطراف ملأى بمصابيح البطاريات اليابانية والبطانيات الإيطالية، وأوعية الشاي المريخية، والبسط والسجاد والزمزميات والنعال والمظلات المظلات المظلات. والزنجيات ديكولتيات إلى حد ما. والتركيات يلبسن الأبيض وليس سوى الأبيض. بوجوه مفتوحة. وثلاث أو أربع نساء سوريات، سافرات. والويل من هؤلاء الأندونيسيين لا يتخلون عن قبعة رئيس جمهوريتهم حتى هنا.

السبت 11 نيسان 1964

المدينة

دخلناها في الثامنة والنصف صباحاً. سلام موظفي البوابة، وأزهار الساحة الكبيرة... أفضل استقبال ممكن. لأننا كنا في الباص من الحادية عشرة مساء. والأقدام تئن أنين الثكالى من طول الجلوس على المقاعد. ولا تزال متورمة. لم يداهمني مثل هذا الوجع من قبل. أظن السبب أن أقدامنا وأرجلنا كانت عارية. فلم أرتد تحت هذه الدشداشة سوى سروال قصير. أحمد اللّه أني تعقلت في جدة واشتريت بطانية. وإلا كنت هلكت من البرد من أول خطوة. وحتى الآن أشعر بوجع شديد بين أكتافي، كأنه القولنج. لم يداهمني السعال بعد. رغم أن معي قطرة Ipesandrine «آه. يا للعجب! تأتي للحج وتفكر بنفسك كل هذا التفكير؟ إن كنت صادقاً فانس صيدليتك الجوالة هذه. بل انس نفسك».

ليلة أمس، انتظرنا الباص من الثامنة حتى العاشرة. وجلسنا فيها من العاشرة إلى الحادية عشرة بانتظار أن ننطلق. ورحت أخط كلماتي على ضوء مصباح خافت في سقفها، والناس يتجادلون على المقاعد. وسارت

بنا أخيراً. أظن أن الساعة كانت قد تجاوزت الحادية عشرة. وكم غمرتنا الفرحة، وإذا بنا نرى أنفسنا مرة أخرى وسط مدينة جدة. لأجل رسوم البوابة والإحصاء (على الأغلب) وأمثال هذه الحيل والألاعيب. ثم عدنا وعرجنا بالقرب من مدينة الحاج التي كنا فيها على الطريق إلى المدينة. ومتى كان ذلك؟ في الثانية عشرة والربع تماماً. ولم أستطع الصبر لأكثر من الساعة الواحدة. تلفعت بالبطانية بقوة وانخرطت في النوم. وفجأة استيقظت في الثالثة. بسبب عطل الباص. ومرة أخرى في الثالثة والنصف. بسبب عطل الباص أيضاً. وبقيت مستيقظاً إلى منطقة «بدر». في الساعة الخامسة. وكان الباص يتوقف كل عشر دقائق. ثم يسير تحت وقع السياط. وفي كل مرة ينزل السائق ويعبث بالمحرّك. ثم يصعد تارة أخرى ويضغط برجله على البنزين كأنه يطرق مسامير في الحائط. باستمرار وفي دفعات متتالية. كان في مجموعتنا بعض السواق. حاولوا مساعدته بإلحاح لكنه لم يرضخ. العناد العربي. الكاربريتر لا يسحب البنزين. كان يأخذ خرطوماً ويمص البنزين بفمه من الخزان ليلقي به في الكاربريتر. ويسير خمس دقائق ثم يتوقف من جديد. كان تحفة من التحف، وعلا امتعاض الناس واستنكارهم. ولعنات النسوة وأنينهن. وكِيلَ السباب لكل العرب على وجه البسيطة. إلى حد أني تدخلت مرة أو مرتين وصرخت بهذا وذاك أنْ «ما لكم تزلزلتم وارتعبتم هكذا...».

السيارات الأخرى التي تمر بنا، تتوقف بعض الوقت للمواساة أو المعاونة. لكن السائق الأرعن كان قد ركب رأسه. إما أنه غير مسموح له بالاستمداد من الآخرين، أو قد يضيع له بذلك حق. أي ربما أخبر الذي يساعده أن فلاناً تعرقل سيره وسط الطريق وتوقفت معه لمساعدته و... إلخ. وفي السادسة والنصف تحركنا من «بدر». غسلنا وجوهنا وأيدينا وصلينا، وأكلنا خبز ذرة

أمريكي، واحتسينا شاياً «براد». والسيارة صلح حالها ولم نتوقف إلى أن وصلنا المدينة. لكن خالنا، هذا الشيخ الكبير، طفح به الكيل من عنت سفر لا نصبر له نحن الشباب.

في فترة جلوسنا في الباص بانتظار السير من جدة لاحظت كثرة الحمالين. وفي الأحياء على طول الطريق، استرعى انتباهي كثرة الفقراء الشحاذين. وكلهم عميان ومشلولون! ولكن، للّه جدة وحمّالوها! وكأن العبء الأكبر في مراسم الحج تحمله كواهل هؤلاء. حمالون بلا سروج ظهور ولا أحزمة، بل بأيد خالية تماماً. ويا لها من حال. حزمة الحبال الواصلة تواً من المعمل، والتي أعطاهم السائق إياها ليشدوا بها الأمتعة، فتحوا عقدتها بأسنانهم. وحينما أرادوا تقطيع الحبل وضعوه على الإسفلت وطرقوا عليه بالحجر حتى انقطع. لعشر دقائق بالضبط. لم يكن معهم حتى سكين صغير. والسائق واقف يتفرج عليهم. أما آلة يساعدهم بها على قطع الحبال... فأبداً. كان ثلاثة أو أربعة من الحمالين يكابدون الحبل بأيد خالية. والحبل غليظ جداً ومصنوع من القنب، ومتخشب بحيث لا ينطوي. أرقى نماذج العلاقة بين الصانع والمستهلك! كلما كانت الآلة أدق وأعقد، كان المستهلك أبسط وأجهل. صحيح أن نقل 500 ألف حاج خلال أقل من شهر ليس بالمهمة اليسيرة، على دولة لا يتجاوز عدد سكانها خمسة أو ستة أضعاف هذا العدد. ولكن يلاحظ على كل حال، عدم توفير أي مؤسسة للحج. تركوا أمر الحج لأكثر شرائح المجتمع بؤساً وبداوة وفقراً، وأقلهم تعليماً. المؤشر الوحيد لوجود مؤسسات هو أن الباصات كلها من طراز ولون واحد، وتابعة لشركتين «التوفيق» وشركة أخرى. ولا بد أن صاحب الأسهم في كلتيهما هو الملك المعظم. المسافة بين جدة والمدينة أكثر من 400 كيلومتر. ولا يوجد في الطريق حتى خطوط هاتف. مدوا قنوات على جانبي الطريق،

وعمّروا كوابح السيول تواً. لكن طريق الإسفلت ضيق إلى درجة أن الباصين إذا تسابقا عليه، فلا بد أن يحيد أحدهما إلى التراب. ولمّا كان مقعدي فوق العجلة، فقد كنت أشعر كيف يمرون بجوار بعضهم. الانتظار ثلاث ساعات أو أربع لكل شيء، ظاهرة جد عادية. الحجاج موزعون في كل مكان. في مجاميع تتألف من عشرين إلى خمسين شخصاً. كان هذا في جدة. ومن حسن حظنا أن رئيس قافلتنا كان من ذوي الخبرة، وقال إنه أعطى رشاوي (وأغرقنا بالمنة) لنسير قبل موعد مسيرنا بأربعة عشر دوراً... دعنا من هذا.

في «رابغ» حيث نزلنا، سأل أحد المازندرانيين «محدث»:

ـ هنا هنا بلاد العرب؟

أجابه محدث: نعم. فقال الرجل «هكذا إذن!» وراح يحدق في السماء بحثاً عن توثيق لهذه القضية، يستمده من ارتفاعها الشاهق. والنجوم تتلألأ ساطعة. لكن رائد الشرطة المتقاعد متهالك يمسك كأس الشاي الصغير بيده، وقد أذهلته كلاب سوداء صغيرة تلاحق كلبة بين التراب والحصى. كأنها القطيع. وقد تصاعد عويل واحد منها. كان شديد الحمرة. في ذلك الوقت من الليل! و«رابغ» هذه منتصف الطريق. لكنها بلا كهرباء. أو ربما كان تيار الكهرباء مقطوعاً آنذاك. والمصابيح «زنبورية» قديمة بوسوسات خاصة. والشاي حلو المذاق ومغلي أكثر من اللازم. منطقة «بدر» هي الأخرى كانت بلا كهرباء. ولكن على بعد فرسخين من المدينة بدأت أعمدة كهرباء الضغط العالي كأنها تمشي في استعراض عسكري.

تجاوزنا وقت الظهيرة الآن. ولكن لا أثر لباقي المسافرين من مجموعتنا. وفيهم شقيقتي وزوجها جواد اللذان كانا في باص آخر. يقول رئيس قافلتنا: المسؤولون السعوديون لا يسمحون بحركة أي باص تحت الشمس من بعد

التاسعة صباحاً. يجب أن ينتظروا إلى غروب الشمس. وهذا خبر آخر عن النظام. لكنه لسلامة الباصات أكثر منه لشيء آخر، حتى لا تنصهر تحت الشمس وتخسر الشركة شيئاً.

والبيت الذي سكناه حديث البناء. خارج المدينة. بالقرب من حقول النخيل. في محلة اسمها «درب الجنائز». تستطيع أن ترى من شباكه الشمالي مقبرة البقيع. يأتوننا بالماء بالصهاريج. كل نصف متر مكعب بريال سعودي.

اليوم نفسه، في المكان نفسه

كان في سيارتنا سيد شديد السمنة والبياض والحمرة. بلحية من عدة ألوان. أقربها إلى الجلد أبيض، وأواسطها حمراء، وأطرافها سوداء (يبدو أن صبغه لها قد تأخر). في خضم معاناة السفر، راح يسوق رفاق سفره بعصا المواعظ والنهي عن المنكر «لا تأخذوا معكم تربة في المشاهد المشرفة، ولا تتظاهروا بالفرقة، ولا تتمسحوا بالجدران أو تقبلوها و... إلخ).

في جدة رأيت كلمة Peugeot «بيجو» مكتوبة على لوحة أحد المحلات التجارية. في مكان آخر وقعت عيني على لوحة (وزارة الحج والأوقاف). فماذا لو كان هذا المحشر بلا وزارة؟! والأحياء والشوارع هنا مرتع أوسع جداً لاستهلاك المصابيح.

عندما كنا قادمين في الليل، كانت تبدو مقاهي الطريق من بعيد كأنها مصافي النفط. من كثرة ما نصبوا عليها من مصابيح الفلورسنت (يبدو أن الكهرباء انقطعت بعد الثانية عشرة. عليّ التدقيق في هذه المسألة عند العودة) وكذا في مدينة الحاج بجدة والمطار. وهنا أيضا تلاحظ أحيانا إعلانات جدارية تقول «اشربوا قدح ماء كبير كل ساعة، واستعملوا المظلات»

وقد شربت من الماء الكثير لحد الآن حتى بدون هذا الإعلان. لكنني لا أطيق المتاع الفائض. تكفيني حقيبتي هذه المعلقة على كتفي، والتي أضع فيها سجائري، وبعض النقود، ودفتري. وعليّ أن اشتري قلنسوة، لكن رفيق سفرنا الأراكي، الذي يرتدي الجلد، اشترى واحدة منها ذات كركوشة، أعني المظلات. ولها وجهان باطنها أخضر وظاهرها أسود. وقد شدّها إليه باعتزاز، كأنها عصا موسى. وأنا اشتريت في الصباح بالقرب من «باب جبرئيل» شيئاً تربولينياً يشبه القربة أخزن فيه الماء، يعيد الإنسان إلى البداوة. ثم إن معدتي لا تستسيغ الماء المثلج. في هذه الأثناء جاء بائع قهوة جوال، بقهوة مغلية في يديه، وسلطة على كاهله ملأى بأدوات الكسب الحلال. شربت منه فنجاني قهوة. سائغة جداً، ومعطرة جداً، وقليلة التركيز جداً، بعطور شعبية. والفنجانان بأربعة قروش. وكم أبدى البائع امتناناً وشكراً... أقرب إلى الشحاذة منه إلى بيع القهوة. جاء من «غزة» فهو ابن سبيل و... إلخ. وللإنصاف فإن عرب غزة الذين هربوا من فلسطين لا زالوا معضلة إسلامية كبيرة. وكم سنة مضت على تلك الواقعة؟ عشر سنوات. وهؤلاء الناس يعيشون تحت الخيام شحاذين بلا مصير. وغدوا ذريعة للسجال بين مصر وإسرائيل. بلا مشاغل، ولا سكن، ولا إمكانية عودة إلى إسرائيل، ولا ترخيص دخول إلى مصر. أمس صادفت شخصا آخر منهم وقت الغروب. في المسجد المحاذي لمدينة الحاج بجدة. جلس يستجدي الناس. بلا ذريعة بيع قهوة أو شيء آخر. ولكن بعد «السلام عليكم» تشرذمت صفوف الصلاة بسرعة إلى درجة أنه لم يجد فرصة للمساءلة. هناك أيضا كانت الصلاة بلا قنوت والأيدي مكتفة على الصدور. ولكن في الصف الذي وقفت فيه كان هناك أربعة أو خمسة بأيدٍ مسبلة. وحصير المسجد بارد. طويل جداً وبنقوش جميلة. لكل صف حصير. دقيق النسج جداً. ومعظم الحجاج يضعون نعالهم تحت

آباطهم ويدخلونها للمسجد. والطريف حينما يجلسون للتشهد؛ أقدامهم اليمنى تحت المقعد غالباً، بينما يبدأون الركض بها. أي أن باطن الأصابع على الأرض، وباطن القدم عمود على الأصابع بادي «المحيا» من الخلف. بكعوب مفطرة، وكأنهم جلسوا لسباق الساحة والميدان. لكن الزنوج أطرف وألطف؛ يتهالكون أثناء التشهد على الأرض، وكأن جلوس «التعقل» العادي محرم عليهم، أو ربما لا يستطيعون إلصاق الساق والفخذ على بعضهما. بدا لي أثناء الصلاة أن جلوس التعقل والتربع، عرف آسيوي قديم جداً، شاع في الإسلام وبلاد الهند، وعند البوذيين، وفي اليابان والصين، وباقي أقاليم الشرق. أما الأوروبيون والأفارقة فيبدو أنهم غرباء عليه. على كل حال، يحتل كل واحد من الزنوج مكان رجلين يجلسان «التعقل» في صف الصلاة.

عندما خرجت من المسجد دلفت إلى أحد المقاهي، بجوار مدينة الحاج أيضاً، بنيّة التمرس في العربية. طلبت أحد قناني الكولا، فطرقت شامتي رائحة الكباب الشامي. من الحانوت المجاور، سألت عن اسمه قيل لي «چوگورتمه». طلبت أن يأتوني به. قطع اللحم مكبوسة على بعضها ومطعونة بالسيخ عمودياً. أمام قضيب لولبي محمر بالكهرباء. ويا لها من رائحة! لم أحن إلى طعام منذ عدة سنين. وقبل أن يحضر الطعام دردشت مع مجاوري. «البدو» يشدون عقالاً أحمر، والحضر عقالاً أبيض. في موسم الحج يتضاعف سكان جدة. يبدأ أصحاب القطعان والرعاة بتجهيز الأضحية قبل خمسة أشهر أو ستة، ويسوقونها على الأقدام إلى «منى»... القسم الأكبر من هذه اللحوم يأتي من أفريقيا. لذلك يرتاب فيه الحجاج الإيرانيون. مجاوري في المقهى كان شاباً بقميص وخمار ناصع البياض بلا عقال. ألقى الخمار على رأسه كالفوطة. ذكر لي شغله، لكني لم أفهم. استحييت أن أعيد السؤال. القضية التي ساقها أهم طبعاً من هويته. فرح جداً عندما علم أني

أعرف شيئاً من الإنكليزية. وحان دوره هذه المرة في تمرين اللغة. أقحمته إلى السياسة. كان ساخطاً على الوضع بشدة. بل ومعارضاً للحج. يقول «إن هذا علينا، وسبب في تخلف البلد. لا يترك لنا فرصة عمل آخر. عوّدنا على الارتهان لشيء دون كل الاشياء، و... إلخ» وبدا لي وأنا أتذوق (الچوگورتمه) أن الداء من الشجرة دائماً. وحاولت أن الفت نظره إلى نفطهم، والعلاقة بين المواد الخام والمنتوجات المصنعة، وما إلى ذلك من ترهات... لكني وجدت أني سأتأخر... «مع السلامة» وتركنا جدة بهذه الخاطرة.

ليلة ذلك اليوم

المدينة

أول المساء في مسجد النبي. أتجول بعد صلاة المغرب. الناس حلق حلق يدردشون. أو أنفار متفرقة يذكرون الرب، ويرتلون القرآن. تبرع رجال أثناء صلاة الجماعة، راحوا يهفون للناس عن الحر. وأحدهم لم تكن لديه مهفّة، ففتح خماره وراح يهفي به على الناس. بحركات تشبه الجلد تقريباً. وبعد الصلاة بدأ موزعو ماء السبيل عملهم. كل واحد بكوز وقدح. وأية أقداح! شربت من كل واحد جرعة؛ أبيض أو أصفر. ومن صنع الهند وباكستان غالباً. حبذا هو من ماء بارد. يكثر الوعاظ تحت رواق المسجد، أحدهم باكستاني يحاضر بالأردو، لم أفهم منه شيئاً. ثلاثة بالعربية، وقفت عند اثنين منهما. أحدهما يخطب بجزالة وبلاغة عن مناقب الرسول. و«طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى...» واستيقاظ عائشة في جنح الليل لترى زوجها هاوياً إلى السجود، فظنت أنه ميت... وانصرفت عنه. والآخر بملامح هندية يتكلم بعربية (فصيحة تقريباً) عمّا يشبه خزعبلات «نزعة التغريب» فتعجبت! كانت القضية شعبية إلى درجة أن واعظاً يثيرها في المدينة. وربما في كل

يوم! وبلهجة حماسية! ثناياه العليا اشرأبت وشفتاه لا تنطبقان.لكنه يتحدث عن الإيمان والإسلام وخطره على العالم الغربي إذا ما اتحد أبناؤه. (انقطعت الكهرباء الآن، وواصلت الكتابة على ضوء مصباح بطاريات استعرته من جواد. فراشة تشبه دودة قز مستحيلة، وقفتْ على المصباح وتحوم الآن على رأسه المضيء. ويا لفروتها! قصيرة منفوشة تتفتت بنفخة واحدة. وجاءت الآن على الدفتر. لألقي بها من الشباك وأعُد) الرجل ممن استوعبوا طبيعة العلاقة بين الصانع والمستهلك، وطفق يشرحها للناس. ولكن لا أدري لماذا كسف ذوقي. تذكرت السيد جمال الدين[1]... ومررت. الناس تطوف حول الضريح وسيول القبل. والشرطة السعودية تمنع وتشتت. ولكن ليس ثمة إهانات وضرب. في طريقي كان أحدهم يضع تربته على الأرض إذا أراد السجود، وعند القيام كانت التربة في قبضته المسدودة.

توجهت عصراً لمكتب البريد. أخذ الموظف أحد عشر قرشاً للطابع واثني عشر قرشاً للبطاقة (لم أدر إلى الآن هل يعادل الريال السعودي عشرين قرشاً أم واحداً وعشرين)؟ وارتفع أذان العصر، حينما كنت خارجاً لتوي من طابور البريد، وما إنْ أردت الحركة حتى غصت الشوارع والأزقة بالمصلين في طرفة عين. الكل يلتحق بالصفوف. لكن أصحاب الدكاكين يواصلون شغلهم ومعاملاتهم... وقفت بجوار امرأة، بأقدام حافية على الشارع، وحقيبتي الصغيرة معلقة على صدري. كان للمرأة طفلة أجلستها أمامها تلعب. وارتدت هي عباءة بيضاء لا يبدو أنها عربية. وبعدما قضيت الصلاة (لم يصل أحد قصراً. أي أني لم أشاهد أحداً يقصرها) أردت ابتياع خارطة. ومن هذا الحانوت إلى ذاك. مررت على خمس مكتبات قرطاسية وكتب إلى أن حصلت على خارطة، لمدينة السلام. واللّه أعلم بتاريخ طباعتها. مرسومة عن خرائط العهد

(1) السيد جمال الدين الحسيني المعروف بالأفغاني.

العثماني. عرضها بمقدار كفين. و«نخلة الزهراء» ما تزال مغروسة في زاوية من مسجد النبي. منذ ذلك الحين وإلى هذا اليوم. أعادوا بناء مسجد النبي عدة مرات ووسّعوه. وقطعوا النخلة ومحو الكثير من الأشياء، لكن خارطتنا ما تنفك تشير إلى ما كان عليه الحال قبل خمسين عاماً أو ستين.

وهذه منطقة «بدر» وسط الطريق. عندما وصلنا المدينة علمت أنها بدر التي شهدت تلك المعركة وذاك الفتح. حي زاخر بالنخيل والحقول. وعلى الطريق عدة مقاهي. وساحتها الكبيرة مكتظة بدكاكين تبيع زيوت السيارات والبنزين، ويصلحون فيها السيارات. أي أن ساحة «بدر» بكل ما لها من فتوحات في صدر الإسلام، مفتوحة الآن عنوة من قبل جيوش الآلة! كباقي الأحياء والنواحي الواقعة بين مدينتين كبيرتين في أي مكان آخر من العالم. رافعة أثقال صغيرة محلية الصنع (قطع الحديد الصدئة ملتحمة ببعضها على أسوأ نحو) بجوار المقهى وعليها عصفور صغير. راح العصفور يذرّق! بينما تنحدر الشمس إلى المغيب. يدفع نفسه إلى الأمام في كل ذرقة كمدافع (برتا) حينما كانت تقصف لندن. وعربي أسود من أهل البلاد عامل في القهوة على خديه أخدودان بعلامة زائد (+) علامة أفريقية في الحجاز. كان شاباً بديناً بخدود ممتلئة. ولون علامات الجمع أعمق من لون خديه. ولها عمقها الأخدودي طبعاً. بالضبط كالأخدود الذي تحدثه السكين على عجينة الخبز، ثم تنضج في التنور.

وعلمت في هذه السفرة ما هو الحسك (القتاد). بل رأيته؛ نوع من أشجار المنطقة الحارة وارف الظلال يكثر عند التلاع في وادي الروابي أواخر طريق المدينة. وقد تكاثف كالغابة. ربما في إشارة إلى حظر قطعها مؤخراً... هم على كل حال يملكون نفطاً يحرقونه بدل الخشب. قبل المدينة بنحو مئة كيلومتر نطّ عن الأرض شيء أشبه بسفح جبل. يناظر إلى حد ما سفوح

منجيل.[1] ثم صار يشبه سفوح باجگاه، شمال شيراز. ثم لاح سواد المدينة ونحن نخبّ بالباص خباً. الأرض مفروشة بأحجار سوداء متصدعة من الداخل. تشبه أحجار القدم (بقايا البراكين...)[2]، تحسبها من بعيد خضرة تميل إلى سواد النخيل. لكنها أحجار. وقد شيدوا منها العديد من البنايات في المدينة وضواحيها. بلا أي طلاء من جص أو إسمنت أو كلس، في الضواحي. أما في مركز المدينة فالبنايات مطلية. ولولا ذلك لأمكن القول إنها مدينة سوداء، مثلما بيت المقدس مدينة حليبية، وروما مدينة بنيّة، و... إلخ.

النقطة الأخيرة لهذه الليلة هي ازدهار سوق المعاملة والبيع والشراء، وأطراف مسجد النبي. السوق، السوق، السوق... دكاكين محلية، ثابتة وجوالة ومفردة وجماعية. وتهاتر وازدحام المحليين، والزوار، و... يا لها من قيامة! هل كان سوق عكاظ هنا في الجاهلية؟ أم انتقل بعد ذلك إلى هنا؟ ثم هل العبادة والتجارة توأمان؟ أم أن أحداهما زائدة دودية للأخرى؟ أم تعقيباتها المسلية؟ وأيهما تبع للأخرى؟ الكل يبيع شيئاً أو يشتري شيئاً، قبل وبعد مراسم الصلوات الخمس. يفرش رجل سجادته وسط الشارع استعداداً للصلاة. وما إن يفرغ من صلاته حتى تنقلب سجادته بساط تجارة يصف عليها بعض العقيق والشذر، أو المسبحات، أو العطور، أو المناديل، أو أعواد السواك. وبسط التجارة متراصة على الشارع. فمرور السيارات ممنوع في الشوارع المحيطة بمسجد النبي. ربما في أيام الحج فقط.

---

(1) منطقة جبلية غابية شمال إيران.

(2) احجار بازلتية على حد تعبير المهندس مهدي بازرگان (ص 69 من كتاب «بيت الناس» رقم 66، طبعة طهران) تلطف وبعثه لي شخصيا من سجنه بعد صدور الطبعة الاولى من مذكراتي هذه، فطالعته. الصفحات الثمانون الاولى منه عن الحج. تطابقت رؤانا عن تلك الديار احيانا.

الأحد، 12 نيسان 1964

المدينة

الليلة يتبين متى سيكون يوم العيد. يعلنون للناس هل شوهد الهلال أم لا. أعلنوا في «الندوة» على من شاهد الهلال إخبار رئيس المحكمة الشرعية. خبر يقول إن الاختلاف سيكون يوماً واحداً، وآخر يحكي أنه سيكون يومين. بين ما يعلنه السادة السعوديون، وبين رؤية الهلال في التقويم الشيعي. لكن من الواضح أن العيد يؤخذ على أفق هذه البلاد. فلا شك أن تقويم القادم من أندونيسيا يختلف عن تقويم القادم من تركيا. في حين ينبغي أداء الأعمال هنا. ثم لماذا لا يمكن تثبيت فصل الحج في وقت محدد من السنة؟ أعني السنة الشمسية؟ ألم يكن الأمر على هذا المنوال في الأصل؟ من أجل أن لا يؤجل الناس في البلدان الشمالية أداء الحج إلى سنوات يصادف فيها موسم الحج الشتاء. وقد لاحظت أن الحج بهذا التقويم القمري، قوّض الإسلام في النواحي الاستوائية.

لم أخرج من البيت اليوم. نمت من الثامنة صباحاً إلى الحادية عشرة. تعويضاً لقلة النوم في الأيام التي خلت. ومساءً، كانت حالي بحيث لا أسمع ما يقوله الناس. اضطرب تركيز السمع لدي. وقبلها بيوم تركيز الذاكرة. أي أن المفردات لم تكن طوع ذاكرتي. أحاول التقليل من شرب الماء. لكن الحر من الشدة بحيث يستنزف التعرق كل ما تشربه من الماء. وما ألذ التعرق بعد الارتواء. والكليتان في أمثل الاحوال! (عدت إلى هموم الذات مرة أخرى). ليلة البارحة تركت رأسي على الوسادة فامتد بي النوم إلى الرابعة صباحاً، عندما أثار دخول مجموعة جديدة من الحجاج ضجيجاً في البيت، وأنيرت المصابيح واستيقظ الجميع يغتسلون ويتطهرون ثم إلى مسجد النبي. أعظم خسارة منينا بها طيلة أعوام ترك الصلاة، تفريطنا بساعات الفجر، بأريجها،

ونسيم بردها، بحركة الناس المتوثبة في غضونها. عندما تستيقظ قبل شروق الشمس، كأنك تستيقظ قبل الخلقة. وتشهد كل يوم هذا التحول العظيم من الظلمة إلى النور، من النوم إلى الصحوة، ومن السكون إلى الحركة. وكان مزاجي صباح هذا اليوم من التفتح حتى أنني كنت أسلم على الجميع. ولا أشعر بالرياء أثناء الصلاة إطلاقاً، أو عند الوضوء. أمس وأول أمس لم أصدق أنني أنا الذي أمارس شعيرة دينية كالآخرين. ما زلت أتذكر كل الأدعية، وكل السور القصيرة والطويلة التي حفظتها في طفولتي. بيد أن الكلمات العربية تثقل على ذهني، وعلى لساني. تثقل بشدة. لا يمكن المرور عليها بسرعة. كنت يومئذ أقرؤها كالأوراد بسلاسة. أما صبح اليوم فأحسست أي عبء ثقيل تضعه هذه الكلمات على كاهل الضمير. أصبت بصدمة في الصباح حينما قلت «السلام عليك أيها النبي». كان الضريح أمامي والناس يطوفون حوله، يتسلقون أكتاف بعضهم للوصول إليه وتقبيله، والشرطة تتميز من الغيظ، وتنهى الناس عن هذا الفعل الحرام... انفجرت بالبكاء وخرجت مسرعاً من المسجد.

والبيت الذي نحن فيه حديث البناء بطابوق من الإسمنت. أكبر قليلاً من الطابوق «الأفشاري». أواسط أركانه المسلحة مملوءة بهذا الطابوق. ولم ينته البناء إلاّ في الطابق الأرضي. أما الباقي، أي الطابق الثاني ونصف الطابق الثالث، فلا يزال الطابوق فيه عارياً، وأسلاك الكهرباء خارج الجدران، وبلا إسالة مياه. والماء في الأنابيب شحيح عند الصباح والغروب. أمس حينما كنت في الحمام تعالى صراخ الناس واعتراضاتهم، لأن الماء تسرب من جوانب الحمام إلى أثاثهم. لا مفر من إلغاء الاستحمام. كل طابق عبارة عن ممر في الوسط وغرف على جانبيه. والحمام على هذا الجانب وسط الممر، والمرافق في نهاية الجانب الثاني. على أن مجاري المرافق ما تزال

مفتوحة. نعمة تذكر فتشكر. ثلاثة بيوت مثل بعضها تماماً لرجل يسمى «سيد عمر الحبشي»؛ ليس أسود طبعاً. استأجر اثنين منها اثنان من رؤساء القوافل الإيرانيين بـ700 ريال للبيت الواحد في أيام الحج، والثالث لا يزال خالياً. أما الباحة المشتركة، ففي يد جماعة من البهريين استمتعوا بجوها الطلق. وقد تكاتف أفراد كل عائلة حول بعضهم. يستحمون بجفنة ماء إلى جوار الحديقة، ويبقون في البيت دائماً. وكأنه لا زيارة هناك ولا مشاهد مشرفة، ولا مراسم ولا سياحة. يخيمون على المكان الذي يعيشون فيه، يخبزون على المقلاة، أو ينظفون الرز والبرغل، للغداء ثم بعد ذلك للعشاء... ويا له من خبز وتمر يأكلونه في هذا الحر! بل يا لها من حلويات تلك التي في أسواق المدينة! كذلك العطور التي تباع وتشترى. شاهدت قطع العود أمس في السوق، لأول مرة. وما أكثر الزنوج. ألطف الوجوه في الحج وأظرفها. خصوصاً عندما يرتدون الإحرام. بياض الإحرام على سواد أجسامهم لوحة فنية حقاً.

في «بدر» رأيت اثنين منهم يرتديان الإحرام وهما يعودان من المدينة، هرباً من حر باصهم، وكانا بحاجة للتعمير ليجلسا في ظلال إحدى الزوايا. وكم قلقت أن يجلسا على الأرض فيتسخ إحرامهما. لكنهما اضطجعا. يبدو أنهم لا يجيدون الجلوس. إما أن يقفوا أو يضطجعوا أو يتهالكوا على الأرض مستندين إلى مرافقهم. كالعجائز والشيوخ تماماً حين يستندون إلى عصيهم وهم يمشون.

ثم إن رئيس قافلتنا هذا شديد الإمساك، للّه أبوه. خصوصاً بالنسبة للمياه التي يجب أن تشترى. يمد لنا عدة موائد؛ واحدة للنساء في غرفة، ولكل مجموعة متجانسة مائدة في غرفة. وعائلتنا المكونة من خمسة أنفار فقط خصصت لها أصغر الغرف. مع أنه أضيف لنا اليوم نفر سادس.

عجوز عقدت حفيدتها لجواد مؤقتاً في طهران، لتكون محرماً عليه في السفر، ويكون لها من يرعاها. والآن تظن أنها محرم علينا جميعاً، بل إنها أختنا بالتبني. لها سلوك الفئران! امرأة صغيرة الجثة. لا تترك الغيبة والنميمة من هذه الغرفة إلى تلك. عدنا إلى حياة الحضر بأسرع ما يمكن. وما أسرع ما تَطَرّق الإعياء إلى رائد الشرطة المتقاعد. يتخبط رفاق غرفته بشأنه ويستشيرون الجميع. ذهبت هذا اليوم وقت الغداء للقائه. اندهش. يبدو كأنه ذاهل. انطوى على نفسه بشدة. قضى عمره مسؤولاً عن النظام، يمشي مشية الطاووس برتبه ونياشينه، والآن واحد كالآخرين. بل أتعس حالاً. لا أظنه يبقى إلى آخر المطاف.

اليوم نفسه، في المكان نفسه

ذهبت عصراً وتجولت حول البقيع. جانبها الغربي على المدينة والجانب الشرقي على مزارع النخيل. وجدرانها عالية وسميكة. كجدران السجون تماماً. استدرت دورة وإذا بي أمام الباب. لكن الدخول غير مسموح. الشرطة كانوا يخرجون الحجاج. وبفظاظة وشدة. انتهى وقت اللقاءات. تمشيت بعدها أتجول في المدينة؛ نحو الشمال أولا، ثم نحو الغرب، ثم صوب المركز. عند البوابة الشمالية كان ثمة مسجد اسمه «أبو ذر» دخلته. فارغ تماماً من بني البشر. صليت على سجادة المسجد الكاشانية الممتازة، وغير النظيفة. ثم فتحت القرآن. وإذا بآية ﴿ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[1] ربما كان جواب خطاب اليوم صباحاً في مسجد النبي. وأمام المسجد تقاطعٌ فيه برج صغير لشرطة المرور مبني من الإسمنت. وشرطي ينفخ في صفارته، وأبواق السيارات، وحديقتان. مقابل المسجد، مساحة زرعوا فيها شتلات تشبه

(1) الأنبياء/ 105.

القلقاش، أو قل إنها تشبه الـ«ليل» في جزيرة خارك؛ أوراق مطاطية عريضة. ثم زرت مسجد أبي بكر، وركعتا صلاة أيضاً، واستفتاح بالقرآن. جاءت سورة التوبة، بلا بسملة. «ما معنى هذا؟» وخرجت من المسجد. مسجد آخر عن العهد العثماني، وربما أقدم، بقبة كبيرة ومنارة واحدة. ونخلة بجوار المنارة تنافسها. منفوشة منتعشة. ثم مررت على مسجد «الغمامة»، بقبابها القابعة بجوار بعضها كأنها عائلة. صغيرة وكبيرة. جلست بجانب المنبر. صلاة العصر انفضت لتوّها وانخرط الإمام في مواعظه قائماً في المحراب. وانخرطت أنا في هواجسي. في خاطر زارني وأنا في مسجد أبي بكر: «أياً كان، فهو شيخ أصلح أيام الشباب وجموحها. ومن يدري ما الذي حصل في ذلك الغار وقبله وبعده حتى لقبوه بالصديق. والمماحكات. والنصائح. وبدا لي أنه هو الذي أقنع الإسلام بأخذ شعائر الحج هذه مما اعتادت عليه قريش. كان رجلاً على كل حال كابنته عائشة بالضبط. يبدو أنها كانت امرأة جذابة. ذهبت لبيت النبي في كهولته. وهي في ريعان الشباب. بل حينما كانت طفلة صغيرة. أفلا يكون أبو بكر قد ضحّى بابنته؟... ماذا تقول...؟» على كل حال، تراءى لي أنّ تحمل مسؤولية «أمومة المؤمنين» في ريعان الشباب أدت إلى كثير من الأحداث، منها واقعة «الجمل»، ولا أعلم الباقي. ولماذا لم أدرس حياة هذه المرأة إلى الآن؟ والطريف أنه حتى الشيعة لا يكثرون التحامل عليها. سوى أنهم ينادون باسمها على نمط خاص من النساء، يمتزن بالشطارة والفضول... ودعنا من هذا.

عند البوابة الشمالية للمدينة، وسط أرض واسعة، ووسخة، ضربوا خياماً كصحراء كربلاء، مخيمات الحجاج الأتراك. ويا للغبار والأتربة التي يثيرها مرور السيارات! ووسط ذاك التراب والغبار تربع رجل في حانوته يرش حواليه بالماء ولا يبالي بشيء. يمسك بيده رأس خرطوم مطاطي. من دون

أن يتحرك من مكانه. ووقفت على بعد خطوات منه لأسجل في دفتري بعض الملاحظات. ارتطم أحدهم بي من الخلف، واعتذرنا من بعضنا وابتسمنا وانتهى كل شيء إلى سلام. وأردت أن أسير وإذا بي أرى صاحب الدكان قد تعرّى وأمسك الخرطوم على رأسه وراح يستحم. ما أسرع ما خلع دشداشته وصب الماء على رأسه وجسمه!

على كل واحد من الباصات التي حملت الحجاج الأتراك علامة إحدى الشركات. سجلت هذه الأسماء: سلجوق، توريسم، سياحت، جت كبنك، أولوسوي، و... وكلها باللاتيني. وأبواب كل المحركات مفتوحة، والسُّواق غارقون في التصليح والتعمير. واضح أن الشركات المحلية تأخذ الحجاج الأتراك من أبواب بيوتهم وتأتي بهم إلى هنا. عن طريق سورية أو العراق. وبسياراتها. أما الحاج الإيراني فلا وسيلة له غير الطائرة تأتي به إلى جدة، ثم تلك الفوضى. ثم كل ذلك الانتظار، ثم هذا الشعور بالسجن، سجن الاحتكارات.

بلغت ساحة بائعي الحطب عند البوابة الغربية. حزم كبيرة من خشب «أم غيلان»[1] (ومحدث يسميها باسمها العربي أم غيلان أو أم غولان! وهو كثيراً ما يستنكر هذه الأيام مجيئنا مع رئيس قافلتنا هذا، وعدم مجيئنا مع غيره. ليس طيب الصحبة في السفر. أو إنه شديد التعود على بيته) ومكتبته مشدودة للبيع غداً صباحاً. ورائحة العاقول تملأ الفضاء، تنتشر في الجو من كسر هذه الأشواك. ربما كان العاقول وأم غيلان (الحسك) من عائلة واحدة. الرائحة واحدة على كل حال. مخلوطة ببعض الأصماغ تسبب حكّة في آخر الفم.

بعد الساحة ينتصب جبل «السلع» ووراءه «الخندق» المعروف. وعلى

(1) چوب مغيلان بالفارسية.

كل مكان من الجبل بقايا مسجد أو برج. وبعض عرادات مدفعية. وعلى ذلك الجانب، إلى اليمين من الطريق الموصل للمدينة، آثار قلعة عثمانية مهدمة. ويا لها من هيبة حتى بعد الهدم! ولد شاب جلس جانباً، تسالمنا وتساءلنا الأحوال والصحة. واستدرجته للسؤال، بقصد التدريب على العربية أيضاً. كان في الصف الرابع الثانوي، ولا يفهم عربيتي إلا بصعوبة. فوهات المدافع موجهة خارج المدينة. أخبرني الشاب أنها ما تزال تطلق القنابل في المراسم والأعياد. تجولت في بقايا القلعة العثمانية وأنا أفكر هل هم هنا من الطينة نفسها التي نحن منها، أم لا؟ ثم لماذا يجب أن تهدم مثل هذه القلعة؟ نهدم أينما كنا من العالم الإسلامي تركات الماضين، ونمحوا آثارهم من الأرض؛ لنقول إننا عظماء. ثم لا نعشق من الآخرين إلا ما كان تحت التراب... وما بوسعنا غير هذا؟! فأنت بكل مالك من شعور بالحقارة لا تكون عظيماً إلا إذا نسفت الآخرين. وهي حقارة لا ينقع غليلها إلا إذا ذرف صاحبها الدموع على قبور المنسوفين.

حقول النخيل شرقي البقيع لم تكن عامرة كما ينبغي. بعض محاصيل الصيف مزروعة على جانب منها. وسواقي النخيل لا تشبه الأنهار كما في الكارون ودجلة والفرات. فهي غير منتظمة والغبار يعلو كل شيء. وأصوات مضخات المياه كأنين الحمائم المزمن. ولكن بإيقاع أسرع. حق، حق، حق، حق. هكذا بالضبط. والعرب راديواتهم بأيديهم، يحملونها وهم يتمشون هنا وهناك. يصطحبون الموسيقى العربية أينما ذهبوا. بعض منهم ألقوا مساحيهم على عواتقهم، وشدوا أذيال ثيابهم على خصورهم و«بالخير حاجي» و«عليك السلام» وعدت صوب المدينة.

شتلات الموز (أو شيء بين القز والموز من عائلة ظلاليات المناطق الحارة) مزروعة بجوار الجدول. وحول كل واحدة منها سياج من حديد.

كقضبان السجون تماماً. والقضبان عريضة وسميكة جداً. حيث لا تسمح لك برؤية الشتلة إذا كانت صغيرة. ربما كانت مظلة تقي من الشمس اللافحة. ورغم كل هذه الجهود، تضرر معظمها وجفّ، لكن الناميات منها منتعشات مزدهرات. أي أنهم يهتمون لجمال المدينة ورونقها. وفي مكان ما تهالكتُ على مصطبة في مقهى (المصطبات في معظم هذه الصفحات عالية ومظلّلة، تشبه بالضبط مصطبات الأحواض عندنا. ومقاعدها المنبعجة محاكاة من الحصير) طلبت قهوة فلم يكن لديهم. ورضيت بالشاي. فصرخ «برّاد نصراني!» لم أفهم الأولى، لكن الثانية أحبطتني... كل هذه الفنون للذوبان في الجماعة، وإذا بك «نصراني»؟! ولكن حينما جاء بالشاي شككت في فهمي للعربية. لأنه لا يصح الشك في أن الشاي شاي وأنه عادي. كان من نوع الشاي الشديد الحلاوة المألوف لديهم. ولكن في «القوري» هذه المرة. أضاف السكر على القوري. وبجانبه استكانان ذوا مقبضين. ويا له من ساخن! وقنينة ماء مثلج بجواره. صار الحساب اثني عشر قرشاً. واشتريت من بائع السجائر المجاور علبتي ثقاب بقرشين ونهضت. كنت قد جئت بسجائر «اشنو»[1] معي. وما أحسن ما صنعت! ليس لديهم هنا سجائر من صناعتهم. ولكن لديهم كل ما يطيب لك من Camel وKing Size و Stuyvesant وPallMall وغيرها من الماركات الأمريكية، وبأرخص الأثمان. وراح القرويون الذين معنا يجربون نوعاً في كل يوم. وسعالهم مساء كسعال الحمارة العجوز. «كوح، كوح، كوح» ولا يمكن النوم. تصلنا من الغرفة الأخيرة أصوات حنجرة أحدهم جافة، تنبّئ عن التهاب. يجب أن أتذكر الليلة إذا لم يكن سعاله من تغير السجائر، أعطيته Ipasandrine.

صباح اليوم جاء شاب أسود للقاء رئيس قافلتنا. من النخاولة (الذين

(1) نوع رديء وزهيد الثمن من السجائر الإيرانية.

يزرعون النخيل على رواية محدث) وكان يعرف أخي الذي مات قبل 13 عاماً في هذه المدينة. كان مندوب المرحوم البروجردي هنا... جاء الشاب يريد حجاً «ميقاتياً». فلم أدر ما هو. سألته عنه: قال رئيس القافلة إنه الحج الذي تدفع أجرته هاهنا بنية الأب أو الأم أو الأقارب. من المدينة إلى مكة وباقي المراسم وأسعارها. يقول: «يعطون إلى خمسمئة، ولكن لا بأس إذا رضي بـ250» بالريال السعودي. تذكرت أن واعظ مجموعتنا تطرق لهذه القضية ليلة البارحة في أواخر محاضرته «... إذا كان والداكم مدينين، وإلخ... فيوجد هنا من يقوم نيابة عنهما وبكلفة قليلة...» ظننته يروّج لبضاعته. وإذا هي بضاعة النخاولة؛ الأقلية الشيعية في المدينة. وقد كان أخي سفيراً دينياً فيهم. ولم يستطع صبراً لأكثر من عامين. دفنوه هنا في البقيع. غداً سأذهب لقبره. وأما واعظ مجموعتنا هذا فمن أهالي همدان أصلاً. وقد سلبوه حق الخطابة في إيران لأسباب سياسية. أعرفه من تعازي الثلاثاء التي كان يقيمها والدي.

الإثنين، 13 نيسان

المدينة

ذهبت صباحاً إلى البقيع. الشمس تسفر، وأنا أتحرى آثار التراث في التراب. وآثار أخي قبل كل شيء. ما من أثر، ولا أي علامة. حينما لا تكون لقبور أئمة الشيعة، ولا لقبر عثمان، أو نساء الرسول وأبنائه من علامة، فمن يكون أخي؟ هو الآن ذرة تراب، لا يعرفها أحد على مائدة التراث هذه... المقبرة كلها مرتفع ترابي. التراب فيها جد ناعم. في كل شبر حجر أسود مغروس في الأرض. وجثة حجر رخامي نقش عليها خط كوفي، ألقيت على جانب ما. علامة قبر كسروا حجارته وسووه بالأرض. الوهابيون، قبل

أربعين سنة، حينما استلموا زمام الحكم في الحجاز. هل فعلوا ذلك لمجرد عصبيتهم؟ كان لكل قبر قبة وضريح. والآن عدالة للأموات، ومساواة فيما بينهم، لم أر مثلها قط! أو ربما كان اجتماع قبور رجال المذاهب الإسلامية المختلفة في مكان واحد، بمثابة ملوك لا يجمعهم جامع على بساط هذا الإقليم الترابي[1]...؟ أو ربما أرادوا أن لا تشمخ بقعة من الأرض بجوار قبر النبي؟ فالبقيع لا يبعد عن مسجد النبي حتى بمقدار 200 متر. كلا... هؤلاء وفي هذا الزمان، لا يتحلون بمثل هذه الفطنة. فالذي تخطر بباله مثل هذه التفاسير والتأويلات، يهديه عقله أيضاً إلى نصب بناء تذكاري لكل هؤلاء العظماء وسط مقبرة البقيع، ينقش عليه أسماءهم جميعاً حسب تواريخ ولاداتهم ووفياتهم. لا مندوحة أمامنا من القول إن هؤلاء غير جديرين بإدارة هذه المشاهد. ينبغي انتزاع المدينة ومكة من قبضة هؤلاء الأشاوس، وإعلانهما مدينتين إسلاميتين دوليتين...

تمشيت بهذه الأفكار، وتذكرت أخي الذي استطاع بعد كل ما تجرعه من مرارات أن يرصف أطراف قبور الأئمة الأربعة بالأحجار. هذا فقط. وكم من الصور التقطها لهذه العملية، وكم تلطخت يداه بالطين فيها، وكم كان نبأ وفاته مفاجئاً لنا في طهران، وكم تحاملت يومها بالسباب على والدي، وكفرت بكل شيء... خلعت نعلي كالآخرين، ورحت أشق التراب الناعم في هذه المقبرة العتيقة. وأرى أن أربعة عشر قرناً من التراث الإسلامي في مثل هذا التراب، لا تهدينا اليوم إلى بر الأمان. مع أن الناس موجودون ومؤمنون، بل ويعبدون الموتى. ولكن أي حق أتمتع به أنا السخيف، أو أنت الحصيف، حتى نسوي مقدساتهم بالتراب؟ مقدساتهم التي هي حياتهم

(1) اشارة إلى مقولة سعدي الشيرازي الحكمية المعروفة «ينام عشرة دراويش على بساط واحد. ولا يجتمع ملكان حتى في اقليم».

اليومية؟ الهارب من تفاهة الحياة اليومية إلى هنا، يريد أن يبصر جلال الأبد متجسداً في جمال الأضرحة. يريد أن يراه بعينيه. وإذا اعتبرت هذه وثنية، فما أنت صانع بالأساطير؟ ألم تقرأ أن موسى هو الآخر سار إلى الميقات ليلمس اللّه؟ ويراه جهرة بعينيه... وما إلى ذلك... بينما تريد أنت ابتزازه؟! ابتزاز هذا الوثني الشيعي، أو الحنفي، أو الزيدي، أو البهري القادم للزيارة؟ وهل تراك بمثابة منكر الناس ونكيرهم؟ أم جئت بدعوة جديدة؟ قريش كانوا حجّاب ذلك البيت، قد آمنوا بعد أن فوضوا شعائر الحج للدين الجديد، وأنت اليوم تقتات على فتات موائدهم. وإذا نفدت آبار النفط هذه، والتي كانت سلمك الوحيد للصعود من عربية الخيام الجاهلية إلى حكومة عصبية، ألا تعود بحاجة لهذه الأمة من الحجيج؟ ولنر هل ينفد النفط أولاً، أم مراسم الحج السنوية هذه؟ أنت تعلم هذه الأشياء ولا شك. ولكن ألا ترى أي نطفة لـ«نزعة دنيوية» تنطوي عليها هذه القيامة السنوية. نطفة نسيان الهوان. ونسيان الأجزاء في الكل... أوه، يبدو أني عدت إلى «نزعة التغريب».

اليوم نفسه، عصراً

ذهبنا اليوم، وكنت أحد خمسة أشخاص. بسيارة صغيرة، أجرتها عشرة ريالات، للذهاب والإياب. الطريق قصير جداً. يجب أن نأتي مشياً في المرة القادمة. المقبرة كلها مغطاة بالرمال. والجدران بيضاء. وسلّم منظم شامل عند المدخل. وشبابيك الأضرحة السابقة كالأسيجة على الجدران. وقبرا حمزة ومصعب محاصران بجدران من البشر، في وسط المقبرة، على شيء يشبه المصطبة، ومغطيان بالتراب. والغطاء الترابي مغطىً بمسكوكات نقدية. ونساء البدو والبربر يدسسن أنفسهن بين الزوار. وإذا ابتعد الشرطة، خطفن قبضات من تراب القبور وهربن. وتهجم الشرطة بالسباب وحبال العقال. كأنها السياط في أيديهم. حتى أن جواداً، رغم كل لينه وبشاشته، ضاق ذرعاً

بهم، وأمسك بتلابيب أحدهم، يسمعه «أنت الكلب، أنت اليهودي» لم أكن أتوقع هذا منه.

في آخر المقبرة، حفرة كبيرة لا علامة فيها لقبر. كمستنقع كبير حفروه ليكون خزان مياه. قبر جماعي لسائر شهداء أحد. مغطى كذلك بالنقود المسكوكة والورقية. وجماعتان من الحجاج الإيرانيين على جانبي الحفرة. ونوّاحوهم في ذروة الهياج، يندبون ويرثون على طور يذيب الصخور. والحجاج يبكون ويلطمون الرؤوس والصدور. كل هذا عند جبل أحد. شمال المدينة. وناحية أحد المسكونة على سفحه. وكوكبة من الحجاج الإيرانيين يصلون في زاوية من المقبرة. مصطفين خلف بعضهم تحت ظل جدار. ربما يتحاشون شعاع الشمس، لكن غيرهم وقف يصلي وسط المقبرة. وجاء بضعة شباب عرب ينهون عن المنكر «حرام، حرام... لا تجعلوا قبور آبائكم مسجداً...» يكررون القول في هياج وعصبية. لكن أحداً لا يصغي لقولهم. والشرطي الذي شتمه جواد لم يفعل شيئاً. يبدو أن تشدد السعوديين أقل في هذا العام. والخال بصحبتنا؛ وهو في أعتى الاحوال. ومحدث يجهش بالبكاء والعويل. لم أره من قبل في هذه الحالة. ثم قررنا أن نشرب الشاي سوية في مقهى الحي، ونتصفح الناس بانتظار سائق السيارة. الحجاج الأتراك كثار. وباصاتهم خاصة. وما أكثر الشحاذين. والسواق جد منهكين. وصاحب المقهى يسلق البيض للزبائن على وعاء نحاسي يشبه الخمرة وضعه على النار.

عند العودة ذهبت مع جواد لحديقة الصفا التي أكثر الحجاج ذكرها. تصورتها من طول ما أطروها كحديقة «ارم» في شيراز، أو أنها الجنة بعينها. لكنها كانت حقل نخيل مهمل، وفي أعلاها ماء يتدفق من مضخة إلى مسبح يغسل فيه الناس أجسامهم وثيابهم. والماء كأنه اللبن. والأنابيب تأخذه من

هذا المسبح إلى أطراف الحقل. وفي كل جانب صنبور مياه... والناس فرشوا موائدهم على المروج المزدانة بالزروع. وصنعوا من كل ما وقعت أيديهم عليه سقوفاً تظلهم. حبال السقوف شدوها إلى جذوع النخيل. وانكمش الرجال والنساء والشيوخ والشباب إلى بعضهم تحتها. تحلقوا حول الموائد، والپريمز، والسماور، والبسط، وجفان السلاط، ومناقل الكباب. والجداول مجاري مياه آسنة. وكل جماعة من منطقة معينة على مائدة واحدة. مررت بمن يتكلمون بلهجة أصفهانية، وآخرين بلهجة يزدية. وبخراسانيين في مكان آخر. هؤلاء حجاج ينفقون هم على أنفسهم ولم يعطوا سوى مبلغ بسيط لدليل يشرف على شؤونهم الدينية والعبادية. ويدفعون أجرة الحديقة ريالاً سعودياً واحداً في الليلة. ولا يدفعون شيئاً للاستحمام. مررت على دورات المياه العامة، وترحمت على دورة مياه مسجد «شاه» قبل عشرين سنة. ويا لها من متربة وحر ووساخة! تماماً كالثالث عشر من فروردين[1] (سيزده بدر) في مرقد السيد داود، تضعه تحت حقل نخيل في شوش. ومع هذا فهم في ذروة السرور والغبطة لأنهم يسكنون في الحديقة. وصاحب الحديقة نفسه رجل من يزد أو أصفهان، جاور المشاهد المشرفة. شديد السمنة والنشاط والبشاشة. كـ«شمشيري» أمام باب مطعمه. وله فضلاً عن الحديقة معمل لإنتاج الثلج. وسعر المتر المكعب الواحد من الثلج ريالان سعوديان. بطاقات التهنئة الواحدة بريال. والقرطاسية غالية جداً. لم أحصل على قلم رصاص أو قلم جاف. لكنني اشتريت دفتراً صغيراً بريال ونصف.

رغبت أن امشي اليوم بأقدام حافية. لم تكن النعال المطاطية مريحة. تقفعت قدماي منها. لكن الإسفلت شديد السخونة. وأشد منه حرارة الرمال

---

(1) الأول من نيسان، ويسمى يوم الطبيعة، يخرج فيه معظم الإيرانيين إلى المروج الخضراء، والحدائق، ويتنزهون، ويتناولون الطعام هناك.

على أطراف الشوارع. يبدو أنه لا مفر من تغطية باطن الأقدام وظاهر الرأس في البداوة.

عصر اليوم نفسه

لا مناص من تدويل هذه المشاهد. مكة، والمدينة، وعرفات، ومنى. وتسليم إدارتها لهيئة مشتركة من ممثلي الشعوب المسلمة، وتأمين النفقات من إيرادات الحج. وتوظيف أدلاء من كل الشعوب بدل الشرطة المحلية. والسماح لأتباع كل مذهب أن يقيموا مراسيمهم الخاصة. وإلغاء أتاوات الطريق، وبناء مساكن وحدائق لكل الحجاج والمجاميع. خصوصاً وأن معظم الكسبة والتجار في المدينة أجانب. عراقيون، وإيرانيون، وباكستانيون، وأندونيسيون أيضاً. هاجروا واستوطنوا هنا.

وأما الحر، فهو من الشدة بحيث جعل أقداح الماء الثلاثة التي صببتها اليوم على رأسي، بكل حيطة وحذر، لئلا يتسرب الماء من جوانب الحمام إلى أثاث الجيران ومتاعهم، جعلها أفضل من حمام الماء البارد ألف مرة. وإذن، كيف يكون الحال في الصيف هنا؟ لم يكن أخي المسكين في هذه المدينة بحاجة لأي سبب آخر كي يموت. الأبنية الجديدة فيها كوى تهوية. لكن الحمقى جعلوا الشبابيك هنا كبيرة، وكأننا على ضفاف بحر في النرويج. ويا للذباب! لم أر مثله في عمري. حتى في خرمشهر. وحتى في سقزآباد، قبل الـD.D.T، وحتى في شوش دانيال. أيّ المناطق أذكر أيضاً؟ أجل، لا سبيل سوى إشراف دولي إسلامي على هذا الموسم.

اليوم نفسه مساء

تعرفت اليوم على ثلاثة طلاب شباب. في دكان لبيع المرطبات، بشارع «العينية» مقابل «باب السلام». في الصف الثالث والرابع الإعدادي. من

أهالي «عرعر» في الحدود الشمالية للمملكة العربية السعودية. المكان الذي تمر منه أنابيب نفط العراق إلى سورية ولبنان. مدرستهم هي الثانوية الوحيدة في مدينة يقطنها 12 ألف إنسان. أغلقوا صفها الثاني ونقلوه إلى المدينة. ونقل الصف الثالث إلى «الدمام» (عشرون كيلومتراً جنوب الظهران). لقد غادر الأساتذة المصريون، ولم يستطع سد فراغهم حتى السوريون أو اللبنانيون القادمون حديثاً. يبدو أنه ما من مصريين في موسم الحج هذه السنة. يقولون إنهم لم يقبلوا من مصر هذا العام. حتى رداء الكعبة، أعدوه بأنفسهم، وهم مغتبطون لهذا. لكنهم لا يدرون أن مشكلة السعودية ومصر ترتبط بقضية اليمن. كان الشباب يتناولون مرطباتهم. وأنا كذلك. وسيد إيراني بعمامة مبعثرة يدعو أصحابه ومريديه للتبرع من أجل بناء مسجد، اسمه «بهار». لا أدري في أي مدينة. بيد أن اللهجات كانت أصفهانية. وامتد الحوار إلى المزاح والمساومات السوقية، والشباب السعوديون ينادون عليهم بين الجد والهزل، أنْ حان وقت صلاة المغرب، فلماذا لا تنصرفون... وإلخ. فأفهمتهم أن مغربنا الشرعي يحين بعد الغروب الطبيعي للشمس، وأنه ما يزال أمامهم متسع للصلاة. وباللغة الإنكليزية. لأنني سمعتهم يتبادلون بضع كلمات، بإنكليزية واهنة، استهزاء بأولئك النفر الإيرانيين. وانفتح باب النقاش. يقولون: إن الشعب يريد نظاماً جمهورياً، ويعبد عبدالناصر. كانوا شباباً طغى بهم الشوق إلى القومية العربية وشموخها القادم. يتباهون بما تحت آباطهم من مجلات مصرية تغريبية، عليها، صور الفاتنات، وآخر الموضات، وشرب الأنخاب على سلامة البعض في مجالس القاهرة وبيروت، والدبابات المصرية، ونساء يحملن البنادق... وعندما أرادوا إعطاء عناوينهم راحوا يبدلون الأسماء بصعوبة إلى اللاتينية. فقلت لهم لم لا تكتبون بالعربية؟

فتعجبوا، وأعطوني المجلات ليختبروا قراءتي العربية. والتهب حماسي، ورحت أشمخ بأنفي، كما لو كنت في صف دراسي، وعرفوا أني ملم بالفرنسية أيضاً. وأصروا إصراراً على أن يسمعوا جملة فرنسية. فكتبت لهم بجانب دبابة مصرية:

Comme vous êtes innocents، mes chers enfants perdus sous lareigne d ـ un gouvernement primitif…!

ثم طالبوني بمعناها. ولم يفهموا المعنى بالإنجليزية، ولم أستطع نقله لهم بالعربية. لذلك لا أذكره بالفارسية. خرجنا من محل المرطبات، و«مع السلامة.. مع السلامة».

منذ أن تحركنا من طهران، لم أر سوى عدد قليل جداً من النساء غير محجبات. وأقل من هذا جميلات. وكان الشباب الثلاثة جد نظيفين، ومتأنقين، ويتضاحكون بمرح، وفي كلام أحدهم غنج نسوي. واحد منهم فقط له صوت رجولي خشن. كلهم من الهائمين بعبدالناصر. هل جميع الناس في السعودية هكذا؟ أم المتعلمون فقط؟ وفي صفوف كان أساتذتها مصريين إلى ما قبل عام؟ لكن الطريف أن أياً منهم لم يكن يعلم ما مذهبه! حينما سألتهم هل هم حنفيون، أم مالكيون، أم شيء آخر؟ توجسوا في البداية. ثم فكروا قليلاً حتى قال قائلهم «حنابلة». لكن بدا جلياً أنه قالها اعتباطاً. وهذا معناه شيوع اللاأبالية في كل مكان. وكم كانوا آسفين لمغادرة الأساتذة المصريين! وكم أبدوا شوقهم لأساتذة أمريكيين، وعدت شركة «أرامكو» أن تبعثهم لمدارسهم كي يعلموا الإنكليزية. وكانوا واثقين أن عبدالناصر سيبتلع إسرائيل في غضون ثلاث سنوات. وسيلقي الإسرائيليين في البحر.

الثلاثاء، 14 نيسان 1964

المدينة

الإيرانيون فقط يسافرون إلى الحجاز جواً. المشكلة أنهم لا يستطيعون المرور حتى بالعراق عند العودة. وإذا أراد أحدهم زيارة النجف أو كربلاء أو الشام، فعليه أن ينسى تذكرة عودته، ويبتاع تذكرة جديدة لبغداد أو دمشق. وبألف محاولة في جدة. لأن الأولوية في هذا الموسم لمن معهم تذاكر مسبقة. أما باقي الحجاج في العالم فمخيرون بأن يسافروا بأية وسيلة أرادوا. وهذا الاحتكار الجوي يتممه احتكار آخر. نور على نور. احتكار «المطوّفين» أو «أرباب الطوافة»، «الصحرة»، «الشجرة» و... إلى آخر ما لهم من أسماء. شركات تزود الحجاج بالباصات، وتضرب الخيام في عرفات ومنى، وتقدم خدمات أخرى للحجاج في الموسم. وأسماؤها مدرجة رسمياً في كل أدلة الحج. والسؤال الأول الذي واجهونا به في مطار جدة «من هو مطوّفكم؟» مطوفنا «الصحرة». وقد لقنوننا اسمه مراراً قبل أن تهبط الطائرة. هذا الاحتكار الثاني يفضي تلقائياً إلى احتكار ثالث يرتبط برؤساء قوافلنا. رئيس القافلة هو المسؤول عن سفر مئة إلى مئتين أو ثلاثمئة شخص إلى الحج. وينتفع من كل واحد منهم إلى حدود ألف تومان. ومهمة هؤلاء الرؤساء بالدرجة الأولى دخول حلبة الاحتكارات المومأ إليها والتمتع بها. وتوفير القوت والماء والسكن للحجاج، بحسب مقدار المال الذي يأخذونه منهم. وماذا يستطيع الحاج بمفرده أن يفعل قبالة هذه الاحتكارات؟ التقيت في المدينة أربعة من زملاء أيام الدراسة جاؤوا إلى الحج بسيارة ومتاع جيد من خيام وأسرّة ومطبخ وثلاجة بعد أن تساهموا في نفقات السفر. لكنهم حينما نزلوا من السفينة في جدة علموا أن عليهم الانضمام إلى أحد رؤساء القوافل، أو يكونوا على

الأقل تبعاً لأحد المطوفين، لأنهم إيرانيون، وليسوا أتراكاً أو مصريين أو سوريين. لذلك تأخروا أسبوعاً، ودفعوا ما تيسر من الأتاوات والضرائب، وألصقوا اسم «الصحرة» على سيارتهم، وعندها فقط حصلوا على ترخيص بالدخول. لا أدري لحد الآن ما هو الحال في عرفات ومنى، وكيف سيكون السكن ليومين أو ثلاثة تحت الخيام. ولكن يمكن على كل حال فعل شيء، لكيلا يتقيد الحاج كل هذا التقيد بهذه الاحتكارات، التي تمتصه كل واحدة منها بشكل من الأشكال، وتشده إليها وتسلبه حريته. وهكذا تحول الحج مصنعاً ينتج أصحاب الملايين، «الطيران الوطني» ومساهموه ها هنا. و«الملك المعظم» بـ«صحرته» و«شجرته» في الحجاز.

الرائد المتقاعد كان معنا. ذهولـه تحول إلى فزع. إنسان متشائم لا عهد له بالانفتاح والمرح. يكاد عقله يصاب من كثرة ما لهث تحت الشمس بلا جدوى. وكلما حاول أن يخلع لباس المدينة ويفتح ضغطة الكراوات، ويرتدي دشداشة أو عباءة أو قلنسوة، ويتصرف عموماً كأهل المدينة، لم ينفع الكلام معه. بقي منضبطاً رسمياً، كما في ساعات العمل في المخفر. ويتذكر دوماً منى وعرفات. ويرتعد من خوف الحياة تحت الخيام. رجل قضى عمره يحمي جدران البيوت والسجون العالية، يعيش الآن تحت الخيام؟! بلا حيطان ولا سقوف؟! خصصت له البارحة ساعة من الوقت أسلّيه بها... يروي أحد رفاق غرفته نقلاً عن امرأة من قريباته كانت في مجموعتنا، أن زوجته في طهران قالت: إذا اعتلّ أو عطب هناك، فاتركوه وحده وعودوا. يبدو أننا أمام أحداث مثيرة...

ومن بين أربعة أو خمسة معممين ووعاظ ونواحين في مجموعتنا، هناك سيد من أهل بروجرد، إمام مسجد جديد في طهران، يخفق قلبه بشدة لحاشية ومريدين. جمع حولـه بضعة كسبة، يصلي بهم جماعة

كل يوم في الغرفة التي يسكنها. وأومأ مرات بلسان الصمت أن نلتحق بصلاتهم. أما محدث فلا يأتمّ بأحد، كائناً من كان. والخال لا طاقة له على الجماعة. وجواد باله مشغول بألف حسبة وحسبة. فلا يبقى من عائلتنا إلا أنا. وهو من أولئك الذين يطول سجودهم خمس دقائق ظناً أنه اقترب إلى العرش خمسة كيلومترات، والأسوأ من ذلك إصراره أن أستمع لخطاباته التي يلقيها بعد صلاة المغرب على القرويين. وأخيراً قصدته البارحة. على السطح. أفسد طيبة الهواء بترهات حول «الشكوك» و«الغسل» و«التطهير» و«النجاسة»، حتى أصابني الغثيان. كلام لا ينفع حتى جهلة مازندران. وإلى متى يعلـّقون الدين بمقبض إبريق يتشطّفون به؟ ويحبسونه في «رحاب» النجاسة والطهارة؟ أو يطبلون لوداعته التي لا تمس إلا شوارب أحمق مثلي؟! هل هذه أقصى حدود الدين ووظائفه؟ والصعلوك لا يعرف مقتضى الأدب، حتى بمقدار عدم التطرق الفوري لحرمة شاربك، وأنت تجلس أول مرة لاستماع كلمته.[1] والأنكى منه نوّاح مجموعتنا. كأنه رجل مريض. يصرخ بصفة رسمية: لماذا لا تلطمون رؤوسكم ووجوهكم؟ كما لو يقول لماذا لا تلقون أنفسكم من فوق السطح، حينما أرتل التعازي! حبذا واعظ مجموعتنا. يتكلم شيئاً عن التاريخ، ويروي حديثاً، ويتكلم كلاماً نافعاً. شرع باستعراض تاريخ بناء الكعبة، وآداب الحج للقرويين. كلام مفيد على كل حال. ويعرّج في الختام طبعاً على صحراء كربلاء، يستذرف بها دموع الناس. ولكن لا على إيقاع «بحقي عليك وبحقك عليّ»[2] كلامه دافئ. ويبدو عليه الإخلاص. ذكرت السبب.

---

(1) كان جلال آل أحمد يحلق لحيته ويترك شاربه كثاً. وقد أطلق لحيته في أخريات أيامه وله صور بها.

(2) من بميرم وتو بميري، يريد أنه لا يستخدم أساليب مغلوطة لاستقطاب الناس.

الثلاثاء، 14 نيسان 1964

المدينة

انطلقت صباحاً بلا إفطار إلى أُحد. مشياً على الأقدام. ليس الطريق ببعيد؛ ثلاثة كيلومترات أو أربعة. قبالة منزل «السنغاليين». وهو بناية حديثة من ثلاثة أو أربعة أدوار، رجل أسود طويل القامة، راح يمارس حركات فنية، لم أفهم معناها في البداية. لأنه كان يرتدي الإحرام. لكنني تنبهت في لحظة أنها الرقصة الأفريقية. تركته وانصرفت. الشمس أشرقت لتوها. كأنها طست برونزي خلف ستار من غبار. كانت الساعة بحدود السادسة. ويمكن النظر إلى وجهها. ما أكبرها من برتقالة، لونها يسر الناظرين. وامرأة شابة جميلة تستجدي. عربية ملثّمة. تقدمت فرأيت في عينيها ابتسامة يجب أن تُرى في غير موسم الحج. ويا للّه من عيونها! كعيون الغزلان التي طالما قرأناها في الأشعار. لكنها ككل حكايات الأخرين وأخبارهم لا تُستشعر ما لم يذقها الإنسان بنفسه. عباءتها السوداء رقيقة جداً، وتحتها قميص طويل ممزق. لا بد أنهما يشعران بالبرد. أقصد نهديها الصغيرين. مشرئبان، ولكن لا ينبضان بحركة تحت القميص. كنت أشعر بالبرد أنا الآخر. ليس عليّ سوى قميص طويل. ظناً مني أنه الحجاز بحره وشمسه. ولكن ليس في مثل هذا الصباح الباكر، وليس أمام مثل هذه الفتاة... أسرعت في المشي. قبل ليلة وعلى السطح (كنا ننام على السطح لأننا من عائلة واحدة. وتنام هناك أيضاً مجموعة أخرى من الأصفهانيين. وينام البقية داخل الغرف، عند متاعهم. خوفاً من اللصوص، وما إلى ذلك) شعرت بالبرد رغم تدثري بالبطانية. والمشكلة أن ثمة مجلساً كل ليلة على السطح، لا ينفض قبل العاشرة. ما إن تتعشى وتتهيّأ للنوم حتى ينتصف الليل. وصباحاً نستيقظ في الرابعة والنصف، بل قبل هذا. اضطرب نظام النوم والطعام بشدة. ليس

الطعام بالأمر المهم. لكني بحاجة إلى كثير من النوم. ربما أعطبتني قلة النوم. ينبغي الاحتراس.

مررت بمدرسة وأنا في الطريق. عند البوابة الشمالية للمدينة «المعهد العلمي للمعلمين» التأسيس عام 1372 هـ وزارة المعارف. والطلاب الذين شاهدتهم في طريق العودة متكالبون عند الباب. شباب من سنخ الثلاثة الذين التقيتهم في دكان المرطبات. طاب لي أن أدخل وأتحرى عن دروسهم ومناهجهم وأساتذتهم. ولكن في طريق العودة، وأنا متعب، وقد تفجرت أورام قدميّ، وراحت تحرقني. وعندما اقتربت من المدينة تفاقم الوجع إلى درجة أعجزني عن مواصلة المسير. جلست في جانب أشغل نفسي بالكتابة ورسم التخطيطات... لكل شيء ولكل مكان. مداراة للبطالة. مر باص في تلك اللحظات، ملؤه فتيات بالغات، يرتدين العباءات. كتب عليه «مدرسة البنات». عاودت المسير بعد ارتفاع التعب. مررت أمام «مستشفى للولادة وأمراض النساء» ثم توجهت صوب مسجد علي وأبي بكر وأماكن أخرى. وكل ذهاب في طريق الإياب. لأتحدث عن الذهاب أولاً.

على مشارف أُحد، كانت هناك مدرسة بيضاء على جانب الشارع. تبدو نظيفة نموذجية. يحوم الأطفال حولها. باب المدرسة كانت مقفلة. ظاهرها أنيق فقط. أما الداخل فخراب كمدارسنا. ألقيت نظرة عبر النوافذ. باب أبيض (بدل الأخضر) طالعني قبل الوصول إلى حديقة أحد. التأسيس عام 1372 هـ أيضاً. يبدو أن أمراً حدث في العربية السعودية تلك السنة. أو تولى الأمور محبّ للعلم والثقافة و... إلخ. من البيت حتى بوابة أحد خمسون دقيقة من المشي. بخطوات واسعة وبلا توقف. مررت في الطريق بنباتات الصيف وبحقول ومنازل انتجاعية. وغبار كطلع النخيل يغطي هامات المزارع. والشمس لا تزال غير حامية الوطيس ومرور السيارات قليل. ولا يسمحون

اليوم بدخول النساء إلى المشهد. رجال الشرطة واقفون بالباب يمنعونهن من الدخول. ربما بسبب اختطافهن التراب من المقابر بالأمس. اضطررن على كل حال أن يقفن خلف الأسيجة، أكواماً أكواماً. والنواحون يرتلون بهن تهجّياً «أيها الأصدقاء، أيها الشهداء، أيها السعداء». المشهد في الداخل كان مرتباً وقليل الرواد. والشرطة أبقت الناس بعيداً عن القبور حول دائرة كبيرة. ولا عملات أو نقود على تراب القبور.

في العودة، طلبت في مقهى الأمس نفسه شاياً وبيضاً مقلياً، «براد وخبز مع بيضتين»، فهم عربيتي. بيض مقلي يستخرجه من مقلاة نحاسية على النار، كما رأيته أول مرة. طلبت خضرة أيضا. ذهب وجاءني بخمسة أغصان من النعناع. صفار البيض مخلوط ببياضه، مع شاي عسلي اللون، وبياض الخبز المشوي، وخضرة النعناع الزمردية. أجمل مائدة رأيتها حتى اليوم. ولكن في صينية من التنك، عليها علامة «أرامكو»! كنت متربعاً في جلوسي على مصطبات حصيرية. وحرارة أحد القدمين تخفف من وجع أورام القدم الأخرى. وللّه درها من جلسة! وإذا بشيخ عربي مكفوف يمر. في يده عصا بقطر الإصبع. لا بد أنها من الخيزران. وشيخ آخر أراد صعود سيارة فارتطم بالسائق. ودفعه السائق في صدره دفعة تحجّرت لها اللقمة في فمي... اللّه ما أعنفهم. وقد رأيت أسوأ من هذا في مرقد النبي. رجل وزوجته يمشيان متلاصقين، فصلت جموع الناس بينهما للحظة. التفت الرجل إلى الوراء، ودفع بكل قوته ظهر امرأة بيضاء (سورية أو لبنانية) حالت بينه وبين زوجته. وأمسك بكفه الأخرى رسغ امرأته وجرها جرة ظننت أن يدها انخلعت لها. عنيفون للغاية. ونبرة أصوات جد عالية. وما أكثر ما يضغط سواقوهم على أبواق سياراتهم! من دون أية حاجة لذلك. أما السائق الذي جاء بنا من جدة إلى المدينة، فالعياذ باللّه!

أُحد أشبه بمصيف للمدينة. منطقة مليئة بالمياه والأحياء. النخيل القديم والحديث يحافظ في كل مكان على دوام التحول النباتي. والمعمورة السكانية وسط وادٍ، تقع مقابر الشهداء في مصبها، وترتفع إلى سفح الجبل. وفيها العديد من الآبار الواسعة الجافة والعامرة بالمياه. وأصوات مضخات المياه تأتيك من كل صوب وحدب. ممتدة وبإيقاع بطيء. تفقدت واحداً منها. يشبه في سعته وقلة عمقه آبار سهل جرجان. حمّار راح يصيح على حماره «ايش، ش، ش». وبعد ذلك «هوش، ش، ش». كحمّارينا بالضبط. وفي طريق العودة، حينما وصلت إلى المدرسة البيضاء، كان ثمة أسودٌ قزم متهالك بجانب الجدار، يبيع ما تيسير لأطفال المدرسة. كان شيئاً مطبوخاً لم أعرف ما هو. وباب المدرسة ما تزال مقفلة. ما يزال ثمة وقت حتى الثامنة صباحاً. والأطفال كثر، والبنات والبنون مختلطون. ويا لها من سيارات! باصات وسيارات شحن وقلابات. ومعظمهما مزوّق ومرسوم عليه، والمتاع يتدلّى عليها من هنا وهناك. شاحنة كبيرة تزدحم بالبدو. النساء محشورات على أرض الشاحنة، وفوقهن سقف خشبي يجلس عليه الرجال مضغوطين لبعضهم. وعلى جدران الشاحنة تعلقت القِرب والزِقاق والخيام وأعمدتها. أطرف شاحنة يمكن رؤيتها في هذه السفرة.

أما الاشجار المزروعة على جانبي الطريق إلى أُحد، فنوع من النخل يسمى كاتالبا، وهناك التين الهندي والحسك والموز وأشجار من نوع آخر لم أعرف ما هي. وأشجار التين الهندي منتعشة، تحمل أغصانها أوراقا جديدة، كأنها جنبذات تفتحت تواً. لونها أحمر غامق. والأوراق الأسبق دهنية عريضة وباللون الوردي. أشجار شابة تنتمي للمناطق الحارة. وكل واحدة منها نعمة جليلة القدر في صحاري الحجاز القاحلة. حتى السعوديون عرفوا قدر الأشجار.

حينما وصلت إلى المدينة، عرجت على السوق. غرب مسجد النبي. نساء بدويات معهن دجاج أو فراخ ملونة (ويبدو أنها من إنتاج آلات مفقسة) في أقفاص ظريفة من خشب النخيل، جلسن ينتظرن الزبائن. أو تحمل الواحدة منهن بضع بيضات في كف تمدها من تحت العباءة. وعلى وجه معظمهن حجاب كأنه القناع؛ يشبه ما شاهدته في جزيرة خارك. وزيوت في زقاق صغيرة وكبيرة. بعض الزقاق مصنوعة من جلد الحملان. وإيراني فرش وسط السوق سجادتين قُمّيتين، وراح يتعامل بتركية ركيكة مع امرأة حسناء ترتدي البياض. سمعته يسعّر كل واحدة منها بأربعمئة ريال سعودي، ثم سوق الباجچية، بمواقدهم المستعرة، ورؤوس البقر والأغنام في قدر واحد. ثم طلبت اللجوء إلى دكان المرطبات في شارع «العينية».

كان هناك رجل أحمر الوجه، يتعامل بالمال مع عدة أشخاص. دردشنا بشيء من الفارسية، وشيء من العربية. كان رئيس قافلة عراقية. خياط في الأصل. ومن أحفاد الإيرانيين الذين جاوروا العتبات في كربلاء. علمت منه أن صاحب دكان المرطبات أندونيسي. والعطار المحاذي لـه هندي. وصاحب المكتبة المجاورة عراقي... وهكذا. كان يعرف الكسبة واحداً واحداً. ثم جرّنا الحديث إلى عبدالسلام عارف. لم يكن صاحبي يرتاح لـه. ثم إلى عبدالكريم قاسم والدكتور مصدق اللذين كانا وجهين لعملة واحدة (باعتقاده). وسأل «أين هو مصدق؟» فأجبته «في مكان أفضل من مكان قاسم» والحسرات والأسف الشديد. ثم قال إن الأساتذة العراقيين وقّعوا مع السفارة السعودية في بغداد عقداً يخولهم أن يحجوا هذا العام بلا رسوم ولا تراخيص سفر (فيزا). هل بسبب شدة احتياج السعوديين للأساتذة؟

توجهت بعدها لمسجد النبي. أدخله عادة من باب السلام؛ هي أكبر، والمرور بها أيسر. تمشيت حول الرواق، وتسكعت وسط الحمائم، وقطعت

خطوات على رمال في أطراف الصحن. الرمال ممتزجة بحبات القمح، إلى درجة تحار معها الحمائم في اختيار هذه أو تلك. قرأت على ناصية الرواق حول الصحن بطولـه أسماء الشخصيات البارزة في عصور الإسلام الأولى. حتى أئمة الشيعة الاثني عشر. والصحابة والقادة. وعجوز منكمشة الجثة تبيع ماء السبيل. أخذت كأساً من يدها. يداها موشومتان إلى الأظافر، وكذلك وجهها، من تحت العيون إلى تحت الحنك، حتى على الحلقوم. والوشم كله ناعم يصور ما يشبه الورود والنباتات. أتذكر أني رأيت قبل أيام امرأة أخرى وشمت على رقبتها ثعباناً رأسه في انبعاج الحنك، وذنبه نازل إلى صدرها مستتر فيه. ربما كانت بربرية.

عند كل عمود من أعمدة المسجد صينية مستطيلة من الحديد الأبيض. مكدسة بأكواز صغيرة لشربة واحدة. وكلها فارغة. وعلى إناء حديدي كتبوا بكل فخر واعتزاز «وقف وزارة الحج والأوقاف». بدل عشر أو عشرين برّادة ماء كهربائية يوجد منها في كل دائرة حكومية. أياً كان، هذا خبر آخر عن إدارة شؤون الحج، وإشراف الحكومة السعودية وحرصها على أوضاع الحجاج! وتعال انظر الإهمال حتى في بناء المسجد؛ بناء نصف أندلسي، ونصف عثماني، بغطاء مقطع من الإسمنت، وبعدة ألوان. قطع اسمنتية كبيرة سوداء وحليبية وبنية وضعوها في طيات بعضها وارتفعت إلى الأعلى. والسقف مكون من قطع أكبر بلون واحد. تستند إلى حديد مخفي داخل طبقات من الإسمنت ولا شك. بدل كل هذه الأحجار السوداء الجميلة في ضواحي المدينة، والتي كان بمستطاعهم نحتها وترصيع البناء بها. ربما لم يستسيغوا أن يكون مسجد النبي أسود... وماعدا أعمدة المسجد، الرخامية في داخلها والغرانيتية في خارجها، فإن ظاهر بناء بهذه العظمة والأهمية كله من القطع الإسمنتية. وحتى المآذن بكل ما لها من شموخ وارتفاع. وأرض الممرات

والأروقة من الرخام؛ أسود وأبيض. ما كان أشد رغبتي في أن أعرف المهندس المسؤول لأقبض عليه من تلابيبه، وأقول له «يا أستاذ، يجب التعبير عن العظمة الماورائية لمثل هذا البناء بأبسط رموز الطبيعة. بالأحجار. لا بهذه القطع الإسمنتية المصبوبة. وإذا كان العثمانيون فيما مضى يبنون واجهات الأطواق بهذه الطريقة المكسرة، أو يزين الأندلسيون أرض الأبنية وجدرانها بالموزائيك الملون، فإنهم كانوا يعيشيون في إقليم آخر من العالم، وفي عصر غير هذا العصر. وأنت بوصفك مسؤولاً عن مثل هذا البناء العظيم في المدينة، ألم يرشدك عقلك أن تستعين بمهندسين ومعماريين من كل البلدان الإسلامية؟ هل خطر ببالك أن تستشير الذي نقل الأطواق وأشكال الضرب والمقرنصات من الهند إلى الأندلس...؟». دعنا من هذا.[1]

طفت حول الضريح، المكان خال نسبياً. ويستطيع المرء القيام بما يحلو له بسهولة. ورجال الشرطة كانوا مهذبين، موزعين في أماكن شتى من الحرم، والناس مصطفين في أماكنهم بانتظار الصلاة، وحذرين جداً من خائنة الأعين التي قد ترمق ما استولوا عليه من أماكن الصلاة. يا لحب بني آدم لملكه، حتى في مثل هذه السفرة. لامست قدمي سجادة أحدهم، وطوت طرفاً منها، ضرب كعبي ضربة أذهلتني عما يجب أن أفعل. كان شيخاً كبيراً لا يبدو أنه عربي. أصابعه تطقطق بمسبحته، ولسانه يلهج بذكر اللّه. لكن عينيه يسكن فيهما عفريت. انتابتني نوبة خجل...

(1) بعد صدور الطبعة الأولى من هذه المذكرات. قرأت في السيرة الذاتية لـ«ملكم اكس» (Malcolm X) زعيم الزنوج المسلمين الراحل في أمريكا الذي حج سنة 1382 هـ قرأت إشارة لاسم مهندس هذا البناء «الدكتور عمر عزام، مهندس خدمات عامة، ومن خريجي سويسرا. استأجرته حكومة العربية السعودية من منظمة الأمم المتحدة ليشرف على عمليات بناء المشاهد المقدسة. شقيقته زوجة نجل الأمير فيصل...» عن ص 275 من الترجمة الفرنسية للسيرة الذاتية لملكم ايكس طبعة «برنارغراسي» باريس 1966.

كثيرون اضطجعوا تحت سقف المقصورة العالي. وغطوا في النوم. مكان بارد له نوافذ تهوية. ربما كان أبرد مكان في المدينة، وأجمل مكان أيضاً. وأقل الأماكن ضجيجاً. رجل راح يهزّ السلم الفضي تحت محراب السلطان سليم (محراب الإمام المشرف على الجماعة) هزة ظننت أنها ستقتلعه من مكانه. كان طالب حاجة. إذن، الحق مع الشرطة أحياناً (دخلت الآن رفيقة غرفتنا العجوز سادس أعضاء عائلتنا بالقرابة السببية مزهوة جذلة، لأنها اشترت «صوغات»[1]. والنساء لا ينسين السوق أينما كنّ. اشترت «ململًا»[2] رقيقاً لفوطات الرأس، عليه نقوش أوراق البوكر، ونباتات الكزبرة والريحان، و... لا بد أنه من صناعة اليابان أو جابلق. وهو مع ذلك «صوغة» المدينة المنورة! لم أقل لها شيئاً. لكنني أوصيت أختي أن تفهمها الأمر).

عصر اليوم نفسه

حضرة رائد الشرطة المتقاعد ليس حاله على ما يرام. وضعنا كيس ثلج على رأسه وأجبرناه على النوم. أخاله من أولئك المدمنين على التوحد، لذلك راح يتخبط خبط عشواء وهو بين الناس. طبيعة هذه الرحلة رعاية الأدب وفيها مشقة كبيرة. وهذا الرجل الذي لم يرض بخلع سترته الشتوية السميكة، لا أظنه يتحمل الرحلة إلى آخرها. وهناك أيضاً خالنا الذي تصاعد ضغط الدم عنده إلى درجة عشرين. أنا لا أفهم هذه الأرقام إلى الآن. لكن ابن أخيه وهو شقيق جواد، عضو في الوحدة الطبية لقافلتنا. جاء اليوم وأخذه لمركز الصحة، فقالوا له هناك «ولماذا جئت إلى هنا؟» هو الآن مضطرب الحال جداً، الطعام لا يناسبه، ولا يستطيع المشي، ونحن لا نستطيع مرافقته أينما ذهب...

(1) الصوغات هي الهدايا.

(2) الململ نوع من القماش القطني الشفاف.

والآن معركة عنيفة في غرفة النساء. سباب وشتائم تترى. كأن أختي أفهمت تلك العجوز أن مثل هذا القماش لا يناسب حجاج بيت اللّه. فصارت شاطرة وعرضت شراءه على امرأة أخرى. وأشكلوا عليها هناك الإشكال نفسه، وسخروا منها، وتعال واسمع الضجيج بين الحجيج! طلبت من أختي أن تذهب وتخرج العجوز من الغرفة، وتهدّئ الأخريات. وجاء رئيس القافلة ينادي «ألا تخجلن يا حاجات؟!» وبصراخ عال ظننت معه أن حضرة الرائد سيفقد صوابه الآن.

جواد باع اليوم اثنتين من سجاداته بـ370 ريالاً سعودياً. وجاء فرحاً مسروراً. يقول إنه ربح 150 توماناً. سجادات عادية جداً. عندما أعيد حساباتي أجدني من أفقر هؤلاء الطيبين. وفرت راتبي لشهر كامل، مع بقشيش[1] السخافات التي أكتبها، وسرت إلى الحج. بأربعة أو خمسة آلاف تومان. متاع جد متواضع.

حالنا في هذا البيت لا يشبه أبدا حال أصحاب السفر والترحال. لا سيما مثل هذا السفر. في هذا البيت الذي يشبه أبسط بانسيونات شارع ناصرية في بوشهر، طبعاً لنا غرفة صارت هيئة حسينية للصلاة، واستماع التعازي والنواح، وما إلى ذلك... وغرفة نساء للعراك والقيل والقال. وعلى مدار الساعة. ولنا أيضاً مصح. ذهبت اتفقد أحوال الرائد المتقاعد، رأيت اثنين آخرين راقدين في جانب آخر من الغرفة، أحدهما أصيب بالإسهال، والثاني بالزكام. لفحة برد على حد تعبير شقيقتي.

وجدت في متاعي فيتامين (C) وأخذته إليه. ابتلعه وقال «أظن أن عندي مثله». وقد كان عنده. تقرر أن يبتلع إلى المساء حبتين أخريين

(1) مكافآت ما يكتبه.

لتتحسن حاله. وأنا الآخر لم يكن حالي على ما يرام. لم يفارقني الصداع من الظهر إلى الآن. أوَيمكن أن يبقى المرء وحيداً وسط الجماعة إلى آخر السفر؟ كنا إلى الآن هانئين بأرستقراطيتنا العائلية. ولكن ماذا بعد ذلك...؟ (واضح أن حالي سيئة) يمكن بسهولة أن تكون مع الناس ولا تكون. ولم أصنع إلى اليوم سوى أن رافقت الجماعة حذو النعل بالنعل. الكل طبعاً أغنياء ومستطيعون! لكنهم فقراء إلى درجة مفزعة. عاشوا أعمارهم في فقر تركهم لا يطيقون الهناء. أحاول رفع معنوياتهم، ولكن بلا جدوى. تشعر بالتوحد، وأنت بين مثل هذه الجماعة. حتى جواد لا يصدق أني أنفقت إلى الآن 73 ريالاً سعودياً. أعطيته أموالي، وكان له «هميان» في حزامه كالآخرين. وغير ذلك من المتاع واللوازم. وقد أخذ معه كل ما يحتاجه، سفرٌ إلى الصين. لذلك آخذ منه بعض الحاجيات أحياناً. ومصاريفي؟ قميص بثمانية ريالات، وقلنسوة بريال، ونعال بريالين أو ثلاثة (لا أتذكر)، قرطاسية وظروف بخمسة عشر. بطاقة وطوابع بعشرة. أجرة السيارة إلى أحد عشر. وماذا بعد...؟ آها.. اشتريت بطانية باثنين وعشرين. وهذا مجموعه 69 أو 68 ريالاً. والباقي عصير فواكه أو مصاريف مقاهي، وما إلى ذلك... دعنا من حسابات البقالين يا حاج!

من الزنوج الأفارقة نساء لا أُباليات جداً. «ديكولتيات» رسمياً. بجيوب صدر تبدأ بعد أربعة أصابع أسفل الكتف، أما أعلى ذلك فللهواء الطلق. بعضهن متشبهات بالغربيات، يرتدين ثياباً تصلح للتميع فقط، وبتلابيب مقرنصة، ربما كنّ فتات متاع الأجانب القاطنين في بلدانهم، أو الهاربين منها. ولكن قلما يرى في رجالهم أثر لثقافة أجنبية باستثناء بعض كلمات فرنسية أو إنكليزية، تسمعها في حواراتهم أحياناً، وتعلم منها انتماءهم لمناطق الانتداب، أو البلدان الحديثة الاستقلال. عملاتهم لا تزال تحمل صور

نابليون، وملكة بريطانيا، أو ملك بلجيكا. والطريف ما حصل بالأمس؛ أمام «باب النساء» وقفت امرأة أفريقية فرشت على الأرض بقچة كبيرة، ملأى بثياب عجيبة غريبة، مما مضغه الأجانب ولفظوه. لكنها بلا زبائن. كالثياب القديمة التي يتبرع بها أثرياء أمريكيون للصليب الأحمر في سبيل اللّه. وهي الآن في المدينة ليشتريها الحجاج، أغنياء العالم الإسلامي يشترونها، ويأخذونها «صوغات» الديار المقدسة. كنت أتفحص هذه البسطة إذ رأيت زوج أختي. بعد مدة طويلة. زوج الأخت التي ماتت بالسرطان. كانت زوجته الثانية معه. وقفت بعد ذلك، وأومأت رؤوسنا بالسلام، تساءلنا الأحوال، وقال «إذا كانت معك نقود فاشتر ليرات... إنها زهيدة الثمن هنا» قلت له يا رجل، ألا تعلم أن هذه البلاد بستان لدولارات «أرامكو»؟ لم يكن يعلم ما هي آرامكو. شرحت لـه القصة. قال: ليتنا التقينا في طهران. ولماذا؟ «لأنني اشتريت من طهران ليرات، وجئت بها إلى هنا، ظناً أني سأربح بها، والآن أرى أن سعرها هنا أقل».

الأربعاء، 15 نيسان

المدينة

لم يعد ثمة شك في أن السعوديين اعتبروا يوم الإثنين أول ذي الحجة. وبذا سيصادف الأربعاء القادم عيد الأضحى، بفارق يوم واحد عن الشيعة. وهذا ما أثار نقاشات لا حد لها، ولا حصر. الكل مذعنون أنه لا مهرب من مجاراة أهل البلاد، ولا معنى للتفرد في مراسم الحج. ولكن هل تكون شيعياً وتتنازل لأهل السنة بلا تأفف ولا تململ؟!

سمرنا البارحة أُنفق كله في هذا القضية. معممونا صعدوا المنبر، واحداً تلو الآخر، وعالجوا القضية من كافة جوانبها. ثم جاء الدور للمداح، صوته جميل،

إذا لم يكثر العربدة. أنشد أشعاراً لطيفة، وأوضح واعظنا «رمزية» مناسك الحج (واستعمل للإشارة إلى كلمة «الرمزية» مفردة «سمبليك» الأجنبية. يجب أن أنبهه أن ليس من حقه تغيير لغته من أجل بضعة متعلمين) وأن السعي بين الصفا والمروة وهو سعي هاجر لإرواء ظمأ إسماعيل. والإحرام يعني ثوب التسليم الخالي من كل زينة، أو هو لباس الآخرة. لكنه لم يفطن حسب ما يبدو إلى أن بناء الكعبة ونسبته لإبراهيم الخليل يعني إسكان البدو الرحل في المدن والقرى، فهو رمز للتحضر والمدنية، وهذا ما سألفت إليه انتباهه أيضا. رجل طيب... وحقاً... إذا كان الخليل معماراً، ومشيد الكعبة. ونوح نجاراً، ومصمم سفن، وداود صاحب مزمار، وشاعراً، ونبينا تاجراً، أي سفيراً بين المدن (وهل هذا مغزى تطبيق تجارة عكاظ على أيام الحج؟) أفلا يعني هذا أن كلاً منهم كانت له مهنة من مهن المدينة والحضر؟ إذن، لماذا كان موسى وعيسى من الرعاة؟ ربما أمكن تبرير ذلك، بأن سلطة فرعون مصر وقيصر الروم أجبرت المعارضة على ترك المدينة، والهيام في الصحراء، والاقتراب أكثر إلى التربة والطبيعة... أما ذوو الصلة ببواكير الحضارات السامية فيتعلم كل منهم صنعة ومهنة. وفي أساطيرنا الإيرانية أن كيومرث «آسر العفاريت» كان يتعلم الطبخ، والخياطة و... إلخ.

صباح اليوم مررت بحديقة مرجان، نسخة عن حديقة الصفا. بمسبحها، وأنابيبها القريبة من السواقي، وظلالها، وغبطة الحجاج فيها. يكثر الآبادانيون هنا. جالسون وسط المنخفضات وتحت ظلال النخيل. عند الباب جلست ثلاث بنات من النخاولة (النخاولة جميعهم سود. من نسل بلال الحبشي. حسب ما يروجون له باعتزاز) ينشدن نشيداً لم أفهمه. تتكرر فيه كلمة «الحاج... حاجي...». يجب أن أصغي إليه بدقة في المستقبل، والناس يتصدقون عليهن بما تيسر.

في طريق العودة، قرأت على باص لحجاج أتراك (Hacikurup) أي (مجموعة الحجاج) ثم مرت امرأة سوداء جميلة، لم يكن في إحدى عينيها غير البياض. بياض ضاعفه وضاعف مرارته سواد وجهها. بدا واضحاً أنها بلا زوج. وما ألهف المرأة حينما تكون شديدة الرغبة في الرجل، ولا تنظر إلى الدنيا إلا من عين واحدة!

ثم قصدت مكتب البريد. سألت عن سعر التلغراف. كل عشر كلمات بأحد عشر ريالاً سعودياً. لماذا؟ لأنه لا يوجد تلغراف مباشر بين العربية السعودية وباقي البلدان الإسلامية. لا بد أنهم ما زالوا يستخدمون الخط البحري بين الخليج الفارسي وقناة السويس! يا للمهزلة! تلغرافات حجاج العالم الإسلامي لا بد أن تذهب من جدة إلى باريس ولندن وجنيف أولاً، ثم توزع من هناك إلى مقاصدها. هذا هو أعلى نماذج الإدارة.[1] أما الأمريكيون في أرامكو في (الظهران والرياض) فلا شك أن دجاجهم الرومي ليلة الكريسمس، يصل ساخناً من لوس أنجلس!

يمكن الصبر على جو البناية التي نحن فيها إلى العاشرة صباحاً. مع أنني أكتب الآن، والعرق يتصبب مني. أكتب بقلم (Bic) الذي يستهلك جهداً إضافياً، وبعد ذلك إلى الثالثة بعد الظهر رياح تصافح النوافذ الشمالية والجنوبية ببرودتها. والمؤسف أن الرياح تحمل غبار وأتربة البناية غير المكتملة. فلا تسلم الأعين والأوجه حتى داخل البيت. وفي أوقات العصر، حينما نخرج إلى الشارع، أو نصعد فوق السطح، تتصاعد حرارة الجو، إلى درجة تخنق الأنفاس، لكن الجو لا بأس به هذه الليلة.

(1) وحال البريد أتعس من هذا. الرسائل الجوية تستغرق 15 يوماً، لتصل من المدينة إلى طهران، بلا مبالغة. بعض الرسائل التي بعثتها لسيمين (زوجة جلال آل احمد) وصلت بيدي بعد أن وصلت طهران.

أورام الأقدام أقعدتني اليوم عن التسكع (يا لها من خزعبلات أثقل بها هذه الأوراق! يجب أن أختصر، فالدفتر يكاد يأتي على آخره). تصفحت الصحف التي اشتريتها. وهذه بعض إحصائيات «البلاد» في عدد السابع من ذي الحجة 1383 هـ: «عدد الأطباء في كل المملكة العربية السعودية 510 أطباء. المستوصفات والوحدات الصحية 263، سيلحق بها 135 هذا العام. وستصل إلى 800 حتى آخر الخطة الخمسية. عدد المستشفيات 48، والأسرّة عددها 4823. يضاف إليها 800 سرير في المستشفيات الجوالة، في منى وعرفات، والتي تختفي طبعاً بعد الموسم». وعدد النفوس هذه المرة أربعة ملايين. والمهم سلامة رأس من يحكم هذه البقعة من العالم باسم الإسلام، وبفضل إيرادات الحج، ومئة مليون طن من النفط سنوياً.

الأربعاء مساء

يظهر أننا سنغادر يوم الجمعة إلى مكة. جاء أحمد بن وائل اليوم للقائنا. كان مساعد أخي، أو دليله المحلي، ورافقه إلى ساعة الدفن. رجل أسود طويل القامة، في نحو الخمسين من عمره. يبدو عليه المرح، والعافية، والأريحية. هو أيضاً لا يعلم كيف توفي أخي. كان مدعواً في المساء إلى مكان ما، وصباحاً بعثت زوجة أخي خلف ابن وائل أنْ أسرع إلى صديقك، ولكن الأمر انقضى. يقول: إن نفوس النخاولة خمسة آلاف، يعملون مزارعين، وقصابين، ودلالين، وما شاكل. هو أيضاً من النخاولة. بعث إليه ابن أخي رسالة بيد جواد، أخذها إليه صباح اليوم، وعاد به إلى هنا وقت الظهيرة، ليتغدى معنا. حينما شرعنا في الأكل رأيته لا يأكل، سألته عن السبب؟ فقال ما لم تعطوني عهداً بالمجيء غداً إلى بيتي للغداء، لن تمتد يدي إلى طعامكم، بحسب العرف العربي، وأعطيناه عهداً، لكنه جاء يريد حجاً ميقاتياً أكثر من قصده الأصدقاء القدامى. تصور أننا سنحرك ألسنتنا، ونوصي

رئيس القافلة أو رفاق السفر. يقول جواد: إنه يرضى بـ300 تومان. بلاش على أموات رفاقنا الحجاج... قال إن نفوس المدينة ستون ألف نسمة، وفيها ثلاثة معامل لإنتاج الثلج، اثنان منها في الحديقتين المومأ إليهما (الآن على السطح المجاور يصحح الإخوة قراءتهم فاتحة الكتاب والسورة التي تليها في الصلوات، يقوّمون قراءاتهم لصلاة طواف النساء. أدخل المعممون في أدمغتهم أنهم إذا لم يجرّوا «ولا الضالين» جرة عزيز مقتدر، حرمت عليهم نساؤهم طيلة أعمارهم... قضية في منتهى الجد!!).

أثناء الغداء حدّثنا جواد عن رجل وضع قدماً على درجة المحراب وقدمه الثانية على الأرض، وكبّر تكبيرة الإحرام، ودخل في صلاة الجماعة. وإذا بشفيق يجد له مكاناً أنسب، فناداه إليه فاستجاب... وغيّر مكانه ثلاث مرات، وتكبيرته سارية المفعول. لم تكن قريحتي مفتوحة لأسأل جواداً وأين كان بالك أنت أثناء الصلاة؟ ثم حدثنا أحمد بن وائل عن سوداني «ضرط» بصوت جهوري قبل الصلاة، ثم وقف يصلي... وإلى آخر شريط تندرات الشيعة بالسنة.

ذهبت عصراً إلى أحد الحقول على أطراف المدينة، إلى الشرق من محل إقامتنا، للاستحمام، عند مضخات المياه، وبيدي عملة من ريال واحد. طرقت الباب، ففتحها شاب قصير، بيده إبريق. «السلام عليكم، جئتُ للاستحمام». تبسم، ثم «تفضل». ومددت إليه العملة، فلم يأخذها، سألت العلة، تبين أنه شيعي. سألته: هل أنت من النخاولة؟ قال نعم، لكنه لم يكن أسود. يعرف بعض كلمات فارسية، كباقي القاطنين في مدينة تزار. يعرفون كلمات من لغات الزوار عادة، ثم تبين أنه كان يعرف أخي، فسألني عن حال ولده. كان في سن تجعلهما أصدقاء صبا. اسمه عباس، ثمّ أرشدني إلى حنفية تستمد ماءها من بئر. قطرها أربع بوصات. شيدوا تحت خرير مائها حوضاً صغيراً

من إسمنت. استأذنته، وطلبت صابوناً، وغسلت جسمي شر غسلة. نخيل الحقل كانت يافعة، زرعوا عند منابتها الفجل والريحان، وسار ماء الصابون في الساقية إلى خلف جدار يفصل الحقل نصفين. تمتعت بالماء البارد، ورقّ قلبي للنخيل التي عليها أن تبتلع ماء الصابون، وكذلك أشجار الرمان. تفتحت أزهارها، فتضاعف رونقها. أوراقها كثيفة وقاماتها قصيرة، منتشرات في كل مكان بجوار النخيل أو منفردات. ألوانها تقتل رتابة الخضرة والنخيل، وتسبغ على الحقل ألقاً وبهاء. المضخة تعمل باستمرار، والماء يرتفع، وأنا جلست القرفصاء، كأنني غارق في بحر تحت ماء البوصات الأربع. وبعد أن انتهى الحمام، بقيت أتسكع في الحقول والأزقة، إلى ارتفاع أذان المغرب من مآذن مسجد النبي.

محدث جلب معه من طهران كتابين أو ثلاثة، أحدها «هداية السبيل». رحلة حج فرهاد ميرزا القاجاري. أظنه هو الذي طبعت رحلته إلى بلوشستان وكرمان مؤخراً. قرأت فيه بعض الوقت. لا بأس به، نثره غير مقرف، على العكس من تظاهره بالفضل والمعرفة. يفهم في كل شيء ويخرج عن السياق شرقاً وغرباً (وهذه الرياح تصفع وجوهنا بالأتربة بلا هوادة. لا طاولة هنا، ولابد من الاستلقاء على الأرض لأجل الكتابة). وقد نظم قصيدة، وكتب رسالة إلى الحاكم العثماني الفلاني، وروى شيئاً من التاريخ... وهكذا، باقة من كل بستان. وشرح آداب الحج ومناسكه من الألف إلى الياء، ككتاب فقهي تماماً، مع ذلك فهو كتاب قيم، سأنهي قراءته في الطريق.

الخميس، 16 نيسان

المدينة

خرجت في السادسة والنصف، لقد تحسنت أورام قدمي. لقمة خبز مع

شاي في مطبخ الطابق السفلي، وإذا برئيس قافلتنا جالساً بجواري يشتكي الحال، فلان أصابه الجنون تماماً، يقصد الرائد المتقاعد، وحبسوه أمس في إحدى الغرف السفلية التي تستخدم كمخزن، لكنه خرج ليلاً إلى إدارة الحجاج، وطلب إعادته من حيث جاء. ظننت أنه يريد رأيي في الموضوع، لكنه لم ينتظر، وتابع يقول: حينما عاد كسر الصحون، ونثر أكياس الرز، وبال على جدران الغرفة، و... إلى آخره. هرع إليه الرجال، وكبلوا يديه ورجليه، وعفروه بالتراب، وأخبروا الشرطة ليلاً، فجاؤوا وأخذوه للسجن المؤقت (حينما كنا على السطح سمعنا أصواتاً، لكننا لم نعلم ما هي). وذهب هو وأخرجه من السجن، وبعثه في الليل نفسه إلى جدة، ليعيدوه إلى طهران. يتفاخر أنه استأجر لهذه المهمة سيارة صغيرة إلى جدة بـ250 ريالاً سعودياً، وبعث معه أحد عمال القافلة. قلت: ربما تعجلتم، وعاملتموه بشدة وعنف، وقبل هذا ربما تدخلتم في شؤونه. ولكن ما الحيلة؟ يقول: «رحلة الحج كصحراء المحشر، لا أحد يفكر في الآخر، وأنا لا أستطيع مراقبة هذا المجنون من الصباح إلى المساء، وهو بين أعراض الناس»... إلخ. قلت له: حدث ما حدث على كل حال، وأعطيته سيجارة وتوجهت نحو «الخندق».

في وسط الطريق بشارع العينية طرح رجل أسود (ربما كان أفريقياً) كوماً من ملابس أجنبية قديمة، وراح ينادي ويصرخ. سرعان ما اجتمع الناس حوله، كان أحد الثياب في يد زبون يتفحصه، كأنه ثياب العرائس، بتنورة طويلة من الخلف. مررت، في فناء «باب المصري» قامت سوق أعلاف الحيوانات، وتصاعدت عطور ورودها في الهواء. صفت رزم العلف الكبيرة على بعضها، وربطت بحبال طويلة. الناس تشتري كميات كبيرة، وتغادر، للماعز ولا شك، أو للخراف التي سيضحى بها. تذكرت فرهاد ميرزا، الذي أشفق على الماعز، ونذر لها رزمة علف. الماعز المجترة، التي تأكل

التراب والأوراق، وتلهث وراء المزابل، المتدلية الأثداء، القليلة الشعر، تبدو كالكلاب من بعيد.

في سوق الأطعمة والمأكولات يجمعون الجماجم والأكباد والقلوب والكلى، في قدر واحد، على واجهة الدكاكين، ومشاعل النار النفطية على الأرض، والزبائن تتدفق أفواجاً مختلطة، سوداً وبيضاً، وعرباً، وأتراكاً، وفرساً، وأكثرهم زنوج. يقفون طوابير تقريباً.

مررت بجبل السلع غربي المدينة كأنه يسدها سداً، لكنه في الحقيقة مجرد حاجز بين الحي القديم والجديد. حينما أردت اجتيازه من أسهل نقطة تملؤها البيوت والأزقة، كنت أمشي على بساط من الأنابيب البلاستيكية. كل واحد بلون؛ أخضر، وأحمر، وأصفر، وأزرق. تأخذ الماء من جانب الشارع إلى جانبه الآخر، ومن بيت إلى بيت. أنابيب طويلة تصل إلى خمسين متراً، كالأفاعي الملونة؛ شفافة لا تستر الماء والفقاعات التي تمر فيها. وحينما تقطع الأنابيب الأزقة، حيث تمر العربات، فإنها تتحول إلى أنابيب حديدية، ثم تعود مطاطية، بعد ارتفاع الخطر. جليٌّ أن مدّ أنابيب المياة الصالحة للشرب غير مكتمل. اختتموا الأنابيب بصنابير مياه، اشرأبت برؤوسها من باطن الأرض عند كل تقاطع، وكل أنبوب لبيت. عند كل صنبور مياه وقف ثلاثة أو أربعة ينتظرون دورهم، وأولهم راح يمتص الماء بشفتيه من الصنبور. توجهت ناحية الغرب، وكان الزحام أقل واجتاز الآن بمدينة أخرى، مكتظة بالزروع والنخيل وأشجار الرمان. والنخيل كله يافع، وخلف جبل السلع، ناحية مفصولة عن المدينة، لكنها جزء منها.

جاء شاب على دراجته الهوائية ليسبقني، على طريق ضيق عند المنبت الغربي لجبل السلع، بعيداً عن طريق السيارات، لكيلا تلفحني الأتربة، تنحيت جانباً، عندما اقترب مني، سلمت عليه، وسألته: هل هذا طريق

مسجد الفتح؟ لتمرين العربية فقط. قال «أي» وذهب، لكنه توقف على بعد خطوات، وانتظرني إلى أن وصلته، ثم تفجرت قريحته. محاضرة كاملة عن الحج، وثوابه، وأنني أقصد مسجد الفتح ماشياً، بقصد الأجر الأخروي، ولكن ما هذا الشارب؟! سألته: من أي المذاهب يكون؟ أجاب أنه من المالكية. سألته: كم مذهباً إسلامياً تعرف؟ قال: أربعة، فأخبرته أننا في بلادنا نعرف 72 مذهباً، وأنا من أتباع واحد منها، فما كان منه إلا أن عبس وتولى.

بالأمس أو أول أمس، لا أتذكر، تقدم رجل وسلّم ورحّب، و: «من أي الفرق أنت؟» بلغة فارسية. نظرت إليه وعلمت أنه يشير إلى شاربي. قلت له: يا عم نحن أضل وأشقى من أن ندعي هكذا ادعاءات.[1] شعرٌ وصوفٌ ينمو بنفسه، ليس سوى أننا نتبرم بالحلق والتعديل... وإلخ. فبهت الذي سأل. كان له أيضاً شاربه، لكنه خفيف. يبدو أنه في الخمسين، وشديد التذمر. نهض وانصرف، ولو مكث لذكرت له أن نكيراً ومنكراً يطرقان الإنسان في الليلة الأولى من الدفن، ولكن ليس من السهل محاورة العرب. وأنا لا أنطق كلمتين إلاّ بألف يا اللّه ويا محمد. وغالباً ما لا يفهمون عربيتي. ثم أن هذا الفارسي الذي أراد معرفة فرقتي، إنما كان يفتش لنفسه عن أنيس. يريد من يحادثه في غربة سفر لا تعد بلحظة من عمر الزمن. لكن ذاك الشاب العربي كان من أهل البلاد، ولا بد أنه يرى لنفسه تميزاً وفضلاً، كالفرنسيين في باريس، وتعاملهم مع الأجانب، أو كأهالي مشهد. سألت زوجتي إحداهن عن الطريق ذات مرة، في أطراف الحرم الرضوي بالذات، امرأة ترتدي الشادر، فنظرت لزوجتي شزراً، وقالت بلهجة مشهدانية حادة: «أعرف، ولكن لا أخبرك».

(1) يريد أن كثافة شاربه ليست دليل انتمائه لفرقة دينية أو صوفية معينة.

مسجد الفتح قابع على مرتفع، ومطل على سيل حفر فيه سلمان الخندق. الماء المنحدر من أُحد يعرج خلف جبل السلع، ويتجه غرب المدينة. وهنا الأرض منخفضة، تشبه المسيل. وبجانب المسيل على سفح الجبل، تصطف المساجد التاريخية لتلك الواقعة. مسجد سلمان بعد مسجد الفتح، ثم مسجد أبي بكر، وعمر، وعلي، ومسجد الزهراء أيضاً. أكبرها مسجد أبي بكر، بثلاثة أطواق محدبة وإيوان، والمساجد الأخرى ما عدا مسجد سلمان ذات أسس قصيرة وسميكة، ولكل منها طاق وإيوان. حافظوا فيها على العمارة البدوية. وليس لمسجد الزهراء أي من هذه، مجرد صفة تحت السماء، وحولها جدار منخفض جداً. وعلى جهة منه محراب صغير جداً، يدل على اتجاه القبلة.

عند الرجوع صادفت شاباً آخر، على دراجة هوائية أيضاً، يلح على عضلات رجليه، كي يصعد المرتفع بدراجته، وينشد أغنية حماسية، يسرق لها أنفاسه، ربما منحته القوة على الصعود. لكنني لم أعد أطيق تمارين العربية. كان الشاب متغير اللون بالشمس، وعيناه جد واسعتين، بل إن عيون البدو أسلم وأصح بكثير مما شاهدته في العراق (صيف 1943م). هل بسبب اختلاف البيئة؟ أم نتيجة الأدوية والعلاج؟ والصحة المنتظمة التي تراعى منذ عشرين سنة في هذا الجزء من العالم؟ أياً كان فإن عيونهم بريئة من الأمراض. شيوخهم ضعيفو البصر في الغالب، لكن الشباب والأحداث ذوو أعين كبيرة سوداء لامعة. وبنات المدارس البالغات يضعن على أكتافهن ما يشبه المشالح، يطوينها على الياقات، ويفتحنها من الأمام عن قمصانهن البيضاء أو الملونة، وعلى رؤوسهن إلى العنق خمار من ململ أسود، كأنه قبعة كبيرة. الحقيقة أن وحدة لون أحذيتهن هي التي لفتت انتباهي أول الأمر، وقفت كل اثنتين أو ثلاث في رأس زقاق، في الحي السكني على

السلع، والشباب يتلصصون النظر إليهن من بعدي. بعضهم يحبس بين أصابعه سجائر، تدليلاً على الرجولة. والغمزات والإشارات... إلى أن وصل باص «مدرسة البنات» ذاته، وصعدن فيه أفواجاً. كانت الساعة بحدود الثامنة صباحاً.

حينما وصلت إلى «الباب المصري» استوقفتني رائحة زهور الأعلاف، دسست قدماً داخل إحدى الرزم، ووقعت عيني على دكان حلاقة. دخلته، وطلبت إبريق شاي من المقهى المجاور، وكنت أتذوق الكأس الثاني، إذ جاء دوري. مكثت أشرب الشاي نصف ساعة، ثم بدأ الحلاق يحلق رأسي، ونحن ندردش، بعدها جاء على لحيتي، وأراد تقصير شاربي، فمنعته: «هذا شأني»، ثم نهضت، وأعطيته عملة من عشرة ريالات، فأعاد لي خمسة منها. لم أحلق لحيتي من طهران إلى الآن، وبدأ شعرها يحكني.

بعد ذلك جئت دائرة البريد، وكانت مغلقة. ساعتي تشير إلى التاسعة إلاّ ربعاً. سألت بائعاً شاباً في دكان مجاور لدائرة البريد عن سبب إغلاقها في هذا الوقت. فقال: إنها ستفتح أبوابها الساعة الثالثة. عجيب!! الساعة الثالثة؟! مد إليّ ساعته، وكانت الثالثة الاّ ربعاً. عجيب! فهم إذن يعطلون ساعاتهم وقت الغروب. ثم اشتريت بعض مجلات لبنانية ومصرية. منها «أخبار الأسبوع» أو «الأسبوع الماضي». تصدر في مصر، وكانت الرقابة قد اقتطعت المربع الذي يحمل اسم المجلة على الغلاف. أما بقية أجزاء المجلة فلم يمسسها سوء. مليئة بذلك النوع من الصور، والتغريب، والوحدة الإسلامية، وشتائم إسرائيل، وأقوال غوستاف لوبون، وغيرها من الترهات. ثم تذكرت المكتبات العامة، اثنتان منها متجاورتان، في الضلع الجنوبي لمسجد النبي. الأولى حديثة البناء، وغير مكتملة. اسمها «مكتبة المدينة المنورة العامة». بناية أسطوانية من ثلاثة طوابق. صالة المطالعة

في الوسط، والطوابق العليا كالأروقة المدورة. الرفوف مكدسة في جانب، وخالية من الكتب. وفي جانب آخر تكدست الكتب في صناديق، وبضعة أشخاص يروحون ويجيئون بإيقاع بطيء. يبدو أن وقتاً طويلاً سينقضي قبل أن تصبح مكتبة. ثم خرجت.

على بعد عشر خطوات منها قامت «مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت». بوابة، ثم باحة فسيحة، بحوض وحديقة، وحجاج بثياب الإحرام مسترخون على المصطبات، بجوار الباحة، المسقفة بخشب مشبك، يزدحم بأنواع النباتات المتسلقة، وربما أغصان العنب. ما أطيب الباحة وألطف أجواءها، ثم خلع الأحذية، وبعد ذلك إلى تحت القبة، كأجواء مراقد الأولياء في إيران، ولكن بلا ضريح في الوسط. رفوف الكتب تغطي كل الجدران، وترتفع إلى حافة القبة، وعلى الأرض وسائد خلف منضدات أرضية صغيرة، ومقر رئاسة صغير مقابل الباب الرئيس. وأسفل شباك يطل على مسجد النبي، جلس رجل بنظاراته، ودشداشته الناصعة البياض، وخماره الأنصع بياضاً. يتكئ على مخدة، خلف طاولة، مكباً على شغله. سلمت عليه وجلست عنده، وذكرت له أنني إيراني، ومن أهل كتابهم، وتوالت الأسئلة، إلى أن أسقط في يده. كان مدير المكتبة، لكنه لا يفهم العربية. اضطر أن ينادي مساعده الذي كان يرتب الكتب. قزم بوجه مدور. علمت من سلامه أنه أفغاني. كان من أهل كابول، اسمه عبد الوهاب. جاور الحرمين الشريفين من عشرين عاماً. مرتبه 300 ريال سعودي، ومديره يتقاضى 700. ميزانية المكتبة 2000 ريال في الشهر فقط. عدد المراجعين في الأيام العادية عشرة أشخاص إلى عشرين. ويرتفع الرقم في أيام الحج إلى مئتين. عندهم سبعة آلاف كتاب. خمسة منها مخطوطة، والبقية مطبوعة؛ في التاريخ، والأدب، والدين، والقرآن والتفسير، والتراجم، والرجال. ليس في كل المدينة غير أربع مكتبات حسب قوله.

الثالثة «مكتبة السلطان محمود العثماني». والرابعة... تداخل الكلام، وتركنا الرابعة. ثم جولة قصيرة أمام رفوف الكتب. النسخ الخطية محفوظة داخل علب زجاجية، على طاولة قصيرة. وكرتان أرضيتان «مجعدتان» عند الباب الشرقية للمكتبة. لا تزالان صامدتين تحت الغبار على مساند ثلاثية. وفهرس المكتبة، في ستة دفاتر. أوراق كبيرة، بأغلفة جلدية. ومن المقرر تحديث المكتبة قريباً، وتنظيم «بطاقات» كما في المكتبة المجاورة، ولكن حالياً، تابع يقول، لا تزال معظم المكتبات في المملكة على هذا النمط القديم. الكتب مكدسة على بعضها فوق الرفوف، وكعوبها أمام الأنظار. بعضها ذات أغلفة جلدية. وليس فيها كتاب يقف عمودياً. كأن روحي سافرت إلى أيام الخلفاء؛ الخلفاء العباسيين. برودة الهواء تحت طاق المكتبة مريحة جداً. قدموا لي شاياً. في «كأس» أهيف الخصر، منقش. وحبات سكر بجواره. ما كنت أود النهوض، لكنني نهضت. تصفحت بعض كتب الحديث، وقدمت شكري وامتناني، وإلى اللقاء. عليّ أن أخبر محدثاً بوجود هذه المكتبة.

عندما خرجت من باحة المكتبة، وقعت عيني على بناية حجرية من طابقين، من تلك الأحجار السوداء خارج المدينة، جميلة جداً، على الطراز العثماني، كتب فوق بابها أنها تابعة للأوقاف، ثم رقم التسجيل، والوقف؛ تشبه البانسيون. وجماعة من الزنوج يدخلون ويخرجون، وبضعة أشخاص جالسون على صفتيها. تند عن بابها رائحة مرافق مخلوطة بـ«الكريولين». أزهدتني في الاستفسار عنها... وأطلقت رجلي للهرب.

يوم الخميس أيضاً

كنا مدعوين وقت الظهيرة، في بيت علي بن وائل، بيت قديم كله من الطين، في حي النخاولة، وبالآداب والأعراف القديمة، الآلة الحديثة(!)

الوحيدة في تلك الدار، مروحة سقفية، ومصباح كهربائي طويل، وطبق مطاطي للفاكهة. عنب، وموز، وتفاح. دخلنا من باب أحادية المصراع، ضيقة، ممر مظلم بارد. أوقدوا فيه بعد دخولنا مصباحاً، وصفة على اليسار، تشبه مقر الرئاسة، ترتفع قرابة متر واحد عن الأرض، ثم غرفة الاستقبال. ولكن لا أثر لأخي إطلاقاً. إذا تابعت الممر وصلت إلى سقيفة، المطبخ في جانب منها، وعلى الجانب الآخر الغرف «الدخلانية». وبئر البيت في زاوية منها، بجواره الحمام، والمراحيض. الصفة مفروشة بسجاد «مشك آبادي» ومحلي، والجدران مغطاة إلى ارتفاع متر واحد بـ«اللينوليوم». والوسائد موزعة على امتداد الجدران، وسجادات إيطالية بمناظر عثمانية معلقة على الجدار. فرش المائدة بنفسه، وحينما أردنا مساعدته نظرنا شزراً، وأفهمنا أن هذه ليست من صلاحياتنا. الغداء رز ودجاج، ومرق قيمة تركي، وباذنجان، وفاكهة كثيرة، برتقال، وموز، وتفاح، وخيار، وكلها طبيعية. والسماور يغلي بمائه، سماور فحمي، تفوح منه رائحة الاحتراق، وعدته أن أهديه سماوراً نفطياً، إذا زارنا في طهران. عصير الفراولة في وعاء كبير، طعمه قريب من الـ«ليمولاكس». والخيار طازج، ومن محاصيل مكة، كخيار الأهواز. أما البرتقال والتفاح فمن لبنان، ملفوف بأوراق رقيقة، عليها علامة الشركة الموزعة. بلغ بكرم الضيافة أعلاه. له ابنة بالغة، ترتدي عباءة، وتخدم الضيوف، وترمقنا بعينيها الواسعتين أحياناً، فضولاً وتعرفاً ربما.

تكلم جواد: «كان علينا أن لا نقبل دعوته، إلا بشرط تزويجنا ابنته...». وابنه في السابعة من عمره أو الثامنة، مهذب الكلام جداً. ما كنت أحسب أن العربية تتسع للطافة الأطفال في الكلام. يسمي «كنتور» الكهرباء[1] «عدّاداً». وبدا لي أنها ترجمة ممتازة. وتبين أن نقل الحجاج من المدينة

---

(1) ميزانية الكهرباء.

إلى مكة كان يتم إلى ما قبل ثلاثة أعوام بسيارات الحملة (الشاحنات)، بينما ينقلونهم الآن بحافلات مخلوعة السقوف، أروح طبعاً للمسافرين.

نمنا القيلولة بعد الغداء، ثم ودعنا وانصرفنا، توجهنا جميعاً إلى مسجد قبا جنوب المدينة، على مسافة أقل من المسافة إلى أحد. المسجد الذي نزل فيه أنه «أُسس على التقوى». مسجد كبير، فاره، بمنارة واحدة، ورواق باتجاه القبلة، وعلى جانب منه عدة أروقة، وصحن فسيح. الطريق إليه يمر عبر المدينة الجديدة، جنوب المسجد النبوي. (جبل السلع في الغرب، والبقيع في الشرق، قاطعاً الطريق على التنمية المدنية. والشمال ينفتح على أُحد، والأجواء ذات طابع ديني، فلم يبق إلا الجنوب يضم الأحياء غير ذات الصلة بالطابع الديني للمدينة). أو عبر الحقول والبساتين الجديدة. ويا له من رمان بأزهار باسقة! والمآذن تنتصب على المساجد الحديثة البناء، بطرازات حديثة، وكلها من الإسمنت، لكنها بيضاء. وكثير من الأبنية غير مكتملة، والشوارع جديدة هي الأخرى، وحفر الأنابيب، وأعمدة الكهرباء، والأحياء نصف المكتملة...

اليوم نفسه مساء

عرّجت أوان العصر على الحقول في أطراف «باب العوالي». شرق المدينة، وجنوب البقيع. تعبيد الشارع ينتهي إلى الصحراء، في البركة على جانب الطريق تطوف علبة ملونة. غلاف «قلونيا بورجوا» صناعة باريس، لا بد أنها «صوغة» ابتاعها الحجاج من السوق، ثم لم يصمدوا لإغرائها. ولأصوات مضخات المياه أنواع مختلفة: «بوروب، بوروب»، و«جيك، جيك، جيك، جيك» و«حق، حق، حق» و«هاپ، هاپ، هاپ» و«هور، هور، هور». وكآبة الغروب، والشعور بالغربة لأول مرة. وأسئلة الذات: «لماذا جئت إلى هنا؟ للزيارة؟ للعبادة؟ للتفرج؟ للسياحة؟ للكشف؟...» وعدت إلى المدينة.

أمام باب البقيع التي كانوا يخرجون منها الحجاج، أكوام من قناني «الكولا» الفارغة في صنادق خشبية، ترتفع على بعضها إلى أعلى الجدار. وساءلت نفسي عن مبرر الأمن والأمان الذي تعرف به السعودية، دعائياً؟ وهل القصص التي تتناقلها الأفواه صحيحة؟ الحجاج ليسوا لصوصاً، لأنهم أغنياء ما داموا يستطيعون القدوم إلى هذه السفرة، ثم إنهم جاؤوا للعبادة أو الزيارة، ولكن ماذا عن أهل البلاد؟ الشحاذون والفقراء كثيرون. والحمّالون... الحمّالون... الحمّالون... ولكن لم يبلّغ أحد عن سرقة لحد الآن. لا ترى عسكريين، بيد أن الشرطة تتجول في كل مكان، حتى داخل المسجد الحرام، وتجوالهم مزعج إلى حد ما. يتفسحون (بدل الحجّاب ذوي العصي). بهراوات فضية، وأقبية، ومناديل، وتبختر، و... إلخ.

صفوف صلاة المغرب تفرقت منذ زمن، والناس حلق حلق يتحاورون، والوعاظ يخطبون. أحدهم لم يكن عربياً، لكنه يعظ بعربية فصيحة، فتذكرت سعدي الشيرازي. واعظ آخر جلس على سرير وأمسك مكبرة صوت تعمل بالبطاريات، ولكن لا يسمع صوته إلا هو (يبدو أن البطاريات عاطلة). يتحدث عن تعارض الإسلام والغرب. أباطيل «نزعة التغريب» مرة أخرى. والآخر شاب لم تنبت لحيته بعد، وصوته مبحوح من كثرة الصراخ، يتمنى تحقق الوحدة الإسلامية. الآخر عربي أسود طويل، بعمامة بيضاء لفها بطريقة شامية، وطوى عباءته طيات كثيرة مرتبة، إلى أن جعلها شريطاً رفيعاً ألقاه على عاتقه. يتكلم بفصاحة وطلاقة وبلاغة، لايشك معها سامعه أنه خطيب بالولادة. موضوعه أسباب الهجرة، وكون الخليفة الأول صدّيقاً، ومؤامرة اغتيال صاحبي الغار من قبل الكفرة الفجرة. وتطعيم دائم لنثر خطابي جزل بآيات من القرآن.

والطريف أنه ناح للناس أيضاً. لم أر من أهل السنة من ينوح ويرتل

التعازي قبله. نواح على آلام ومحن ذينكم الرفيقين في سفرهما المعروف، بل أجهش هو أيضاً بالبكاء في لحظة من اللحظات. في ذروة الهياج والانفعال، وإذا بصوته يتكسر باكياً، وغطّى وجهه بيديه، وتعالى صياح المستمعين. في تلك اللحظات وضع أحدهم يده على كتفي، التفت إليه، أبيض الوجه، يتكلم التركية بابتسامة، أفهمته أني لا أجيد التركية، فاستغرب لذلك، أوضحت له السبب (يظنوننا أتراكاً دائماً، الحلاق أيضاً ظنني تركياً). كان خياطاً من أهل «مالطا» وأصر على تبادل العناوين. ثم تركت المكان.

امرأة أنامت طفلها عند قدميها، ووقفت تصلي. الطفل لا يتجاوز العام الواحد، فاتح ذراعيه ورجليه على الأرض، بعيون كبيرة مغلقة، مكحّلة أشد التكحيل. خرجت من المسجد إلى البيت، أحاول الوصول متأخراً، خوفاً من ذلك السيد البروجردي ومجلسه الليلي على السطح. يتعجب من أني أصلي الجماعة مع أهل السنة، ولا أصلي خلفه. قلت لـه مرة: «عزيزي، لقد جئنا هنا لنتلاحم ونندمج وسط الجماعة، ولم نأت لنتمايز وننفرد». ولكن لا أخاله يفهم هذه الأشياء. المسكين حذف كل مقدمات اسمه ومؤخراته، ولم يبق إلا البروجردي، ظناً منه أن «كل مدعبل جوز» كما في المثل الشعبي. ويصعد المنابر ببيان بارد ولهجة محلية تصك الأسماع. يتحدث عن الشكوك والسهويات. والأسوأ منه رجل بدأ مشواره بالتكبير في صلاة جماعة هذا البروجردي، وشاهدته الليلة يتدرب على النوح والمدائح، وكأن النواحين والمداحين والوعاظ كانوا قلة في قافلتنا، حتى وجب أن نأخذ هذا المداح «صوغة» إلى الأوطان.

(لا أدري هل في المدينة دار سينما أم لا، لم أر شيئاً من هذا القبيل في الأحياء الدينية، ولا أدري الحال في الأحياء الجنوبية الحديثة التي مررنا عليها اليوم بالسيارة). وما هي أحاديث النحرير على المنبر؟ قصص القرآن

تقليداً لواعظنا، وأن اللّه امتحن حتى سليمان وإبراهيم، فما بالنا نحن؟ أما امتحان إبراهيم فمعروف، لكنني لم أسمع بامتحان سيلمان. نعم... كان لسليمان مئة زوجة، ولم يكن له منهن جميعاً سوى طفل واحد. وكان يودع طفله عند الملائكة خوفاً عليه من الجان، وإذا بطفله يسقط ميتاً على عرشه. في إلفات نظر شديد اللهجة بأن يودع طفله عند اللّه لاحقاً. كل هذا تفسير للآية ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾[1].

الجمعة، 17 نيسان

ما نزال في المدينة

أصابني الإعياء اليوم، من سوء حالي في الليلة الماضية، ولا طاقة لي اليوم بشيء. أُكثِر من شرب الماء، والماء الذي أشربه مثلج، ونوع من النظام الغذائي، يعتمد البرتقال وعصير الفواكه. تقول أختي: «عودت معدتك أسوأ تعويد». وضيافة ابن وائل بالأمس. والتقيؤ صباح اليوم. فزعت شقيقتي لحالي. وجاء رئيس قافلتنا يولول: ألم أقل لكم لا تمشوا طويلاً تحت الشمس...؟! وأخيراً أخذونا ظهراً إلى الطبيب، لم تكن لي طاقة للرد على أسئلته، المغص يقلبني ذات اليمين وذات الشمال، أعطاني الطبيب Caboguanicidine. وطلبت من جواد أن يشتري لي Entero ـ Vioform أيضاً، لأن صيدلية المركز الصحي لم يكن لديها هذا الدواء، لأنه باهظ الثمن، والميزانية قليلة... مع أنهم أخذوا مسبقاً من كل حاج خمسين توماناً لهذا النوع من الأدوية... تناولت أدويتي بانتظام، لكن المغص لم يفارقني، ولا أزال معتكفاً في المرافق! والمشكلة أننا يجب أن نتحرك الليلة إلى

(1) سورة ص، الآية: 34.

مكة. أربعمئة كيلومتر في الصحراء، في سيارات الجنود، وبثياب الإحرام. ويكدسون السيارة بالأحمال من الآن. الكل في حركة دائبة، أما أنا فمضطجع في غرفة خالية، لملموا أفرشتها. وكان سريري بطانية، ألقيتها على أكياس الإسمنت الفارغة. أظنني زكمت أيضاً، البارحة كان البرد نموذجياً... ما عدت أطيق شيئاً، الساعة الآن الثالثة والنصف من بعد الظهر.

السبت، 18 نيسان

مكة

وصلنا مكة في الرابعة والنصف فجراً، بعد أن انطلقنا البارحة في الثامنة والنصف، وقد كانت السيارة باصاً، من تلك الباصات الحمراء، التي خلعوا سقفها. صعدها الرفاق من الخامسة عصراً، واحتلوا مواقعهم فيها، ويا للصبر والانتظار... إلى أن جاء جواد ينادي علي في الثامنة مساء. لم أحصل على مكان مناسب طبعاً. الرتل الثالث بجوار خالي. كنت الثالث على كرسي مخصص لشخصين. السائق كان آدمياً، ورئيس القافلة يزعم أنه أكرمه ورشاه. والسيارة لم تعطل. خبّت بنا على نفس واحد، باستثناء وقوفنا في «رابغ»، وفي مسجد «الحلفية» قبل ذلك لارتداء الإحرامات. حدث ذلك في جنح ظلام، ولا ماء هناك، ولا مرافق. تطهرنا على أضواء الباص. كنا قد ارتدينا الإحرامات في المدينة. ومراسم المسجد، ثم صعود الباصات، والإسراع صوب مكة. سقف السماء يظللنا. وما أدنى النجوم؟! وما أقرب السماء! و«العقرب» أمام أنظارنا. ولفحنا الهواء بقوة (السرعة كانت بين الثمانين والمئة) مكدسين في السيارة، وألقيت على عاتقي مسؤولية مراقبة الخال، الذي ربما سرح في نومه، وارتطم رأسه بخلفية الكرسي حيالنا. لم أكن في ليلة من ليالي عمري مستيقظاً إلى هذه الدرجة، وواعياً

اللاشيء إلى هذا الحد. تحت سقف تلك السماء، وذلك الأبد، أنشدت كل ما حفظته من أشعار، همست بها لنفسي. أنعمت النظر في نفسي ما استطعت إلى أن طلع الفجر، لم أر نفسي سوى «قشة» وفدت إلى «الميقات». ولست «شخصاً» قصد «الميعاد». شعرت أننا في الأبد زمان، أي في محيط «إقيانوس» الزمن، و«الميقات» تقرع نواقيسه في كل ثانية، وفي كل مكان، وفي سرائر المتنسكين. فـ«الميعاد» موضع لقائك بالآخر، أما «الميقات» فموعد لقائك بنفسك، وبنفسك فقط. وطابت لي مقولة ذلك الزنديق الميهني أو البسطامي[1]، حينما خاطب زائر بيت اللّه عند بوابة نيشابور: ضع كيس نقودك هنا، وطف حولي، ثم ارجع لبيتك!

بدا لي أن السفر وسيلة ناجعة لمعرفة الذات، اختبار الذات في مختبرات الأقاليم المختلفة، بأدوات الوقائع واللقاءات والبشر، واكتشاف تخومها، الضيقة جداً، والوضيعة جداً، التي لا تساوي شيئاً أبداً.

اليوم نفسه

في البيت الحرام

يبدو أنهم في العام القادم سيبنون بالإسمنت مرافق البيت الحرام، على غرار مسجد النبي. المسعى بين الصفا والمروة تحول الآن إلى ممر عظيم من طابقين إسمنتيين، وليس هذا وحسب، بل يشيدون الآن حول الكعبة من كل الجهات أروقة من طابقين على شكل مربع، ليهدموا بعدها الرواق العثماني القديم، وقد هدموا الآن أحد أضلاعه، الضلع المجاور للمسعى، ولا شك أنهم

(1) الميهني هو الشاعر والعارف الإيراني الشهير أبو سعيد أبو الخير نسبة إلى مسقط رأسه «ميهنه»، ويريد بالبسطامي العارف «أبا يزيد البسطامي».

سينسفون بعد عام أو عامين كل الأضلاع الأخرى. صحيح أن المطاف حول البيت سيكبر ويتسع لجماعة أعظم من الناس، أربعة أضعاف ما يستوعب حالياً على وجه التقريب، لكن المشكلة هي هذه الهياكل الإسمنتية التي يلصقونها على قواعد خرسانية، ويرفعونها إلى عنان السماء... يزهدون في هذه الأحجار الغرانيتية الجميلة الموفورة، ويلوذون في كل بناء بالإسمنت وقوالبه المنفرة. يستشف أنهم لن يوفروا من الرواق القديم إلاّ بعض مآذنه. أرضية المطاف حول الكعبة مفروشة بالرخام، وكذلك الدوائر الداخلية. الناس أكثر ازدحاماً في المسعى بين الصفا والمروة، وأقل عدداً في الطواف، وحينما تبدأ الشمس إشعاعاتها القاصمة، يتقوّض الطواف حول البيت.

أجلس الآن في الطابق الثاني من الرواق الجديد، وأخط هذه السطور، والكعبة من هنا نصف ما كنت أتصوره. يبدو أن مهندس هذا الرواق الجديد لم يلتفت إلى أنه إذا تلاعب بالنسب، فقد غيّر مفهوم العمارة. الكعبة لا تزال بحجمها وقامتها السابقة، أما الرواق فتضاعفت سعته وحجمه وارتفاعه، وهل من الصلاح أن يغيروا حجم الكعبة ذاتها؟ إذا جعلوها من الإسمنت! (مرّ بي الآن رجل طويل القامة بدين، داكن البشرة، بيده مظلة، وقال: «اكتب اسمي أيضاً في مذكراتك يا حاج، قندهاري من مشهد»... حسناً، وهذه ذكراك سجلتها. كان في صوته نبرة استهزاء، يبدو أن الكتابة في مثل هذه الأماكن مؤشر رياء ثقافي، ومع أني شاهدت إلى الآن عدة أشخاص يسجلون شيئاً على أوراقهم أو دفاترهم، ولكن ينبغي اجتناب الكتابة على رؤوس الأشهاد).

عصر اليوم نفسه

مكة

البيت الذي استأجره رئيس قافلتنا يقع شمال مكة، عند الجبل الهندي،

في حي يسمى «سليمانية». مؤلف من ثلاث غرف كبيرة، في ثلاثة طوابق. كدسوا النسوة في الطابق الأول، والرجال في الطابقين الآخرين، وصاحب البيت وزوجته وعياله انتقلوا إلى السطح. يقول زعيم قافلتنا: إنه موظف في المالية بمكة. موظفو المالية كلهم من سنخ واحد أينما كانوا من العالم... السيد البروجردي وأتباعه وقد صاروا الآن جماعة يعتد بها صعدوا إلى الطابق الثالث، ونسمع دوماً أصوات أذانهم، وتعازيهم ونواحهم. أما غير المتشددين من أمثالنا، ومن لا يرون حاجة ماسة للوعاظ والملالي، فسكنا في الوسط، والتحقت أختي بالنساء، وبقينا نحن الأربعة مع بعض رفاق المحلة التي يقع فيها بيت والدي، وثمانية مازندرانيين أو عشرة، وطاجيكي سقزآبادي، يصر على إعلان نفسه طهرانياً. ويفسد لهجته دائماً ليبرهن على مقولته، والأنكى أنه يجرب السجائر الأجنبية دوماً، ويسمعنا نتائج تجاربه سعالاً متواصلاً. للبيت حمام تحول من فوره إلى مخزن تابع للمطبخ، وهناك حمام في كل طابق، ودورة مياه، وفي طابقنا غرفة صغيرة بشبابيك ذات زجاج ملون، استولت عليها العائلة الأصفهانية الأرستقراطية، التي كانت لنا في المدينة، اغتصبوها منا في مكة. ثلاث نساء وثلاثة رجال، وكلهم شباب. وفي جانبين من غرفتنا صناديق خشبية عالية تشبه المصطبات، خصصت لكبار السن والشخصيات الأثيرة، أما البقية فيفترشون الأرض ببطانياتهم وينامون، ونأكل جميعاً على مائدة كبيرة.

شيخ كبير من مازندران يشبه «نيما»[1] إلى حد كبير، وله نفس مشكلاته مع هذا الطعام وذاك، كأنه رغم شيخوخته طفل صغير. لا أدري ما الذي أزعجه من أبناء منطقته أثناء الغداء، فأخذ صحن طعامه واعتزل في زاوية

(1) نيما يوشيج، رائد الشعر الفارسي الحديث، وصديق جلال آل احمد.

الغرفة، زعلان، وبعد الغداء انبرى متحدياً: (أنتم يا من قرأتم الكتب! هل تعلمون الفرق بين «گردة» الصلاة و«بلندة» الصلاة؟) (كأن الكلمات في فمه حينما يتكلم أجسام تتقلب على سطح الماء) ولم نكن نعرف هذه الأعاجيب طبعاً، فأوضح لنا أن «گردة» الصلاة هي صلاة الجماعة حول الكعبة، و«بلندة» الصلاة، هي صلاة الجماعة في مسجد قريتهم. يبدو عليه مأخوذاً جداً بلقاء الكعبة الأول، وشرع الآخرون بعده بحكاياتهم وقصصهم ولطائفهم، التعب كان قد فارق الجميع.

مكة منطقة جبلية أكثر من بيت المقدس، مدينة صخرية جداً، ويا لها من صخور غرانيتية! كان من الطبيعي أن يملأ عرب الجاهلية البيت بالتماثيل. البيت الحرام في وادي وسط الجبال، في مصب المياة الجبلية، وماء زمزم خزان يجمع مياه الأمطار المنحدرة من هذه الجبال الغرانيتية، والشوارع ذات انخفاض وارتفاع، تبعاً للوديان، والبيوت على الجانبين ترتفع تدريجياً مع سفح الجبل، وفي كل مكان من الجبل سكة إلى حي آخر، وزقاق. والشوارع ترتدي أضواء مصابيح الفلورسنت، وعلى جانبيها ناطحات سحاب إسمنتية، غير مكتملة، لكنها ملونة بخليط عجيب من الألوان، لا سيما الأبواب، والشبابيك الساطعة؛ أخضر، وأحمر، و... إلخ، ألوان قروية وساذجة، شوهت وجه المدينة بامتياز. وما أكثر مواقف السيارات، والبانسيونات، والدكاكين، الدكاكين، الدكاكين.

هدموا أطراف البيت الحرام من كل جانب، ليقيموا ساحة لم تكتمل بعد، ولا تزال مغطاة بالأحجار والأتربة، والحجاج يعبرون هذه الوعورة بصعوبة. البناء هنا لا يحتاج إلى حفريات للأساس، فمهما كان البناء عالياً يمكن تثبيته على الأرض الصخرية، باستثناء المنخفض وسط المدينة، والذي يكتنف البيت الحرام. وهو في الواقع أشبه بقاع جفنة كبيرة، ترسبت فيها

الرمال، وقد حفروا هناك أسساً عريضة للأروقة الجديدة، وقوالب الإسمنت لا تزال منتصبة. والجانب الشرقي للبيت الحرام متصل بالمدينة بشبكة متراكمة من الخشب وقضبان الحديد.

حينما وصلنا بوابة مكة فجراً، استقبلتنا نافورة ملونة يصعد ماؤها ثلاثة أمتار أو أربعة. منصوبة وسط ساحة البوابة، وتمنيت لو أن «مهام» معنا ليبتهج ويفرح، وهو يرى أن العالم كله يرتدي الرونق الذي يروق له، والشوارع غاصة بمصابيح ساطعة. وكذا مآذن المسجد الحرام الشامخة، والمسجد الحرام بالذات. حينما يكون للّه بيت في بقعة من بقاع الأرض، فهو يعلم طبعاً أن هذه البقعة ستقع يوماً في قبضة السعوديين، وستتكالب عليها المصابيح بفضل هيمنة النفط وتصديره. لا أقول لماذا لا يستعملون فوانيس نفطية بدل هذه المصابيح، ولكن لماذا لا يطلبون من الشركات المصنعة مصابيح خاصة، بأشكال وتصاميم مميزة تستوحي هذه العظمة الروحية والدينية؟ فهل فكروا في تمييز إضاءة الحرم؟ أم أن بيت اللّه زبون كغيره من زبائن «بنسلفانيا»؟! الذي يحصل هو تلويث عوالم الغيب بمصالح الكارتلات.

مررت صباح اليوم على المركز الصحي، وكم كان مكتظاً بالمراجعين! ضربات الشمس والإسهال بكثرة. صلعة أحد رفاق سفرنا الأصفهانيين تورمت أوراماً مفزعة. أخذت «سولفوگوانيدين» وخرجت. لا أزال ممسكاً محتمياً، من الشاي ومعلبات الفاكهة. فارقني الألم والمغص في المدينة قبل أن ننطلق إلى مكة. بمساعدة حبات من الـ«بلادون». وأخذت حماماً بعد الظهر. كان الدش معلقاً فوق قاعدة المرحاض، ففتحت الماء على رأسي. رآني بعض رفاق السفر، فحدجوني بنظرات تذوب لها الصخور، معناها أنك تتنجس بهذه الطريقة، لكنهم لم يقولوا شيئاً، فمن أبرز مهمات الحجاج في مثل هذه السفرة عدم الخضوع لأوامر الآخرين بالمعروف، ونهيهم عن

المنكر... الغداء اليوم كان لباب الرقي والخبز والجبن. جلسنا حول مائدة جماعية، ربما ضمت عشرين حاجاً أو يزيدون، وفتحت أنا معلبات فاكهة، رششت عليها بعض ماء الليمون ليمكن أكلها. لا قبل لي بالحلاوة. تركت اليوم شرب الماء، ولم يكن إلا الشاي، الشاي، الشاي.

اليوم نفسه، السبت

مكة

ما أبعثه على القرف هذا السعي بين الصفا والمروة؟! يعيدك في لحظات إلى قبل 1400 سنة، بل إلى عشرة آلاف سنة، بهرولته السريعة، وتمتماته العالية اللاإرادية، وبما فيه من سقطات تحت الأيدي والأرجل، وذهول الناس عن كل شيء. والنعال المبعثرة هنا وهناك، وإذا أردت أخذ نعالك بيدك رطمك التيار، وضعت تحت أرجل الناس، وأحداق الساعين التي لا يقر لها قرار، متعاضدين جماعات جماعات، ويركضون بغبطة، وعربات الشيوخ والعجائز، والحمالات الخشبية، كل واحدة على أكتاف رجلين. وذوبان الفرد في الجماعة، أتراه أقصى غايات هذا التجمع الكبير؟ وهذا السفر...؟ عشرة آلاف إنسان... وربما عشرون ألفاً يمارسون شعيرة واحدة، في آن واحد. وهل يمكنك أن تفكر بنفسك وسط هذا الانعتاق الجماعي الهائل؟ فتعمل شيئاً آخر بمفردك؟ التيار يجتاحك ويأخذك أخذاً وبيلاً. هل حدث أنْ كنت وسط جماعة من الناس مذعورة، وهي تهرب من شيء ما؟ ضع كلمة «منعتقة» مكان كلمة «مذعورة» في الجملة السابقة، وضع «حائرة» بدل «تهرب»، أو ضع مكانها كلمة «لائذة». أنت مسلوب الإرادة مئة بالمئة، وسط هذا البحر العاصف من البشر. تنسلخ كلمة «الفرد» هناك عن كل معانيها ومدلولاتها، ولا يبقى فارق بين الألفين والعشرة آلاف.

اليمنيون بشعورهم المنفوشة الوسخة، وعيونهم الجاحظة، والحبال مشدودة على خصورهم، كأنهم يوحنا المعمدان، وقد فرّ من قبره. والزنوج طوال ضخام مميزون، يهرولون بكل أجسامهم والرغوة تعلو شفاههم. وامرأة تأبطت أحذيتها، وراحت تركض مولولة، تماماً كالتائهة في الصحراء. والناس كأنهم ليسوا آدميين، يمكنهم مد يد العون لبعضهم. وشاب قوي ضاحك يجري على الأرض، ويزيح بكتفيه هذا وذاك، كأنه أبله في سوق مزدحمة. وشيخ يتنحنح، ويتلقى الدفعات، ويجرفه التيار إلى الأمام. وجدتني عاجزاً عن رؤية نعشه مسحوقاً تحت الأرجل. أخذت بيده، وأجلسته على دكة ممدوة وسط المسعى، تفصل الذاهبين عن الآيبين. جماعة من النساء (عشر نساء أو خمس عشرة) على بياض إحرامهن خلف العنق علامة، شكل مطرز باللون البنفسجي. وكل واحدة تمسك بإحرام الثانية من الخصر، ويمشين في طابور خلف المطوّف.

ذروة الانعتاق والذوبان يمكن ملاحظتها في نهايتي المسعى، المرتفعين قليلاً، حيث تنبغي الاستدارة والعودة. واليمنيون عندما يصلون النهاية يقفزون ويستديرون ويسلمون على البيت، والبدء من جديد... ووجدتني لا أستطيع المواصلة. أجهشت بالبكاء، وهربت. وعنّ لي أن ذلك الزنديق الميهني أو البسطامي أخطأ خطأً فاحشاً، إذ لم يلق بنفسه تحت أرجل هؤلاء السعاة، أو لا أقلّ من أن يلقي أنانيته تحت أقدامهم، حتى الطواف لا يثير مثل هذه المشاعر، والهياج الروحي.

في الطواف حول البيت تسير مع الناس بأكتاف متلاصقة باتجاه ما، تدور معهم حول شيء معين، أي أن ثمة هدفاً فيه ونظاماً. وأنت ذرة في دائرة عظيمة تجول حول مركزها، فأنت إذن متصل بمنظومة معينة، ولست منعتقاً متروكاً لحالك، والأهم من ذلك أنك لا تواجه أحداً هناك. تلاصق

عواتق الآخرين، ولا تنظر في وجوههم، فلا تبصر الانعتاق والهيام إلا في التدافع والتلاحم، أو تسمعه مما تلهج به الألسنة. لكنك في السعي تذهب وتجيء، حائراً كحيرة هاجر، ليس ثمة هدف أو وجهة، والذي يضجرك حقاً في هذا الرواح والمجيء هو تلاقي النظرات في كل لحظة. الحاج عند السعي يُختزل إلى قدمين تهرول، وعينين ذاهلة ساهمة، تهرب من نفسها، وتهيم هنا وهناك.

العيون يومئذ ليست عيوناً، لكنها ضمائر عارية، أو هي ضمائر جلست على أعتاب العيون، تنتظر أوامر الفرار، وهل يتسنى النظر في هذه العيون لأكثر من ثانية؟! كنت أظن إلى اليوم أنه لا يمكن التحديق في عيون الشمس فقط، لكنني اكتشفت الآن تعذر ذلك مع بحر العيون الساعية أيضا... ولذت بالفرار. بعد شوطين فقط من الذهاب والإياب، يتجلى لك بكل وضوح أية لانهاية صنعتها من هذا الصفر، وذلك حينما تكون متفائلاً، وقد شرعت لتوك. وإلاّ سترى نفسك أقل حتى من الصفر حيال هذه اللانهاية، كقشة في البحر، بحر من البشر، بل ذرة هباء في الفضاء. أقول بصراحة، شعرت كأني أقترب من الجنون، لفّني شوق عارم أن أرطم رأسي بأول عمود إسمنتي وأفجره... لا أطيق السعي إلا إذا كنت مكفوف البصر.

بعد الخروج من المسعى يطالعك السوق بزحامه وضجيجه. جلست في جانب متكئاً إلى «دار المسعى» أنقع غليلي بواحد من هذه «الكولا»، وسرح خاطري صوب أفكار قديمة قرأتها لأحد الكتاب الأجانب، حول علاقة الفرد بالجماعة، وأن الجماعة المكتنفة للفرد كلما كانت أعظم وأضخم كلما اقترب الفرد من الصفر، وجدت أن الـ«أنا» الشرقية التي تنسى نفسها وهمومها في خضم هذه المساواة حيال عوالم الغيب، هي ذاتها التي تدّعي الألوهية، حين تفردها المطلق أثناء الاعتكاف، بالضبط كذلك

الزنديق الميهني أو البسطامي، وغيرهما، ومرتاضي الهند كذلك. ولاحظت أنه بمقدار ما تضحي هذه «الأنا» بنفسها في غمرة الجماعة، يُضحى بها في سكرات التفرد. ما الذي تبلغه اليوغا في أقصى أطوار الرياضة غير هذا؟ الرضا يحوزه المرتاض، فإذا لم يكن له سلطان على العالم الخارجي، فهو ذو سلطة على جسمه وذاته بلا مراء. وإذن، ما الفرق بين أصالة الفرد وأصالة المجتمع؟ في السعي نهرب من قيود الذات، ونمارس طقساً يرمي إلى إلغاء «الأنا». سواء في الذهن أو في الخارج. وباليوغا نبقى داخل إسار الذات، فبما أننا لا نستطيع تغيير الأحوال خارج نطاق أجسامنا، لذا نكتفي بسلطاننا على أجسامنا، مهما صغرت حدود ذلك السلطان. في السعي نرضخ لسلطان الجماعة، ولكن حيال العالم الغيبي وحسب. وفي اليوغا نقلص سلطة الجماعة إلى الصفر، ولكن حيال العالم الغيبي أيضا. وماذا سيبقى إذا سلبت العالم الغيبي هذه المعادلات؟! في هذه المنظومة التي نسميها «الأنا» لا أصالة للفرد ولا للجماعة. الأصالة لعالم الغيب الملاصق للسوق. والمطروح الآن تحت أحذية الشركات. الفرد والجماعة صورتان مؤقتتان قبالة مصدر أبدي للمعاني. في مثل هذا النطاق فقط تكتسب كل من «آية اللّه» و«ظل اللّه» معناها.

سواء كنا فرادى أو جماعات، أغلقنا على أنفسنا أبواب عوالم الكشف والعمل، في حين أن أياً من الفرد أو الجماعة لا يتلبس معناه إلاّ حينما نتحرك من الفرد إلى الجماعة بقصد اكتشاف أو بالعكس، كذلك الداعي القبادياني بالضبط، وإلاّ فلنا 1400 سنة نسعى، وآلاف السنين نعتكف ونناجي ونتضرع، ولكن لا بقصد الكشف. الرضا عن الذات وجه آخر لعملة وجهها الأول التضحية بالذات. والحال أن هذه الذات، إن لم تكن ذرة تصنع الجماعة، فهي ليست حتى «ذاتاً». ليست بشيء أصلاً، ما هي إلاّ تلك القشة

المتسكعة، ولكن (وألف لكن) إذا انخرطت في نطاق إيمان ديني، أو خوف مقدس، فستصنع الأهرام، وسور الصين، بل ستصنع الصين كلها، بل الشرق برمته، منذ هبوط آدم وإلى اليوم.

بهذه الاختلاجات والأفكار، وبعد أن رويت ظمأي بالكولا، قصدت بئر زمزم. نقلوا فتحة البئر إلى الأسفل، بجوار البيت، سلم عريض وسط الصحن، تنزل منه إلى فسحة، مدوا الأنابيب على جداريها المتقابلين، وبين صنبور مياه وآخر خطوتان، وعلى كل صنبور وقف طابور من بضعة أشخاص، بأيديهم عبواتهم، ودِلالهم، وأوعيتهم. ثم بوابة تنفتح على مكان مبني يكون في داخله بئر زمزم. لا يسمحون بدخول النساء فيه، وهو الأفضل. ويا للملحمة والضجيج، كأنه حمّام رجال! الكل مغسولون بالماء، والعرق، وفوق البئر ثلاث بكرات متدليات من السقف، يمتد من كل واحد حبل إلى داخل البئر. والدلاء تصعد وتنزل تلو بعضها، ولكن يستحيل عدم الإسراف في ماء الدلاء. الأوعية التي جاء بها الحجاج لأخذ الماء مغطاة بأغطية، عليها ثقوب صغيرة تفتح وتغلق. فهل يمكن في ذلك الزحام والتنافس والعجلة صب مياه الدلاء الكبيرة في هذه الثقوب الصغيرة؟ مشيت وسط الماء، ودرت دورة، وخرجت. الإحرامات ملتصقة بالأبدان، وتنافس ساخن، يرتقي إلى مستوى الصراع أحياناً، ولكن بلا كلمات نابية، صراع على أخذ دلاء الماء، وإخلائها في الأوعية التي يراد لها أن تكون «صوغات» مكة. والعياذ باللّه من رجال الشرطة، المبثوثين في كل مكان. بقبعاتهم ورتبهم ومسدساتهم. أحدهم وقف عند فتحة البئر يتفرج على دوران البكرات، ثيابه التصقت بجسمه، والماء يقطر من رأسه ووجهه، يتحسس بيده مسدسه على حزامه، ويهفّي على وجهه باليد الثانية. وخيم على فتحة البئر رجال مربوعون، يسحبون الماء إلى الأعلى، ويصبونه على رؤوس الناس، كما في الحمامات.

وهل كانت السماء ستنطبق على الأرض لو أعفي الحجاج عند بئر زمزم من رؤية هذه النياشين والسلاح والزي الرسمي الصارخ، بأن هذا المكان خاضع لحكومة وسلطة؟ حتى في الحج، لا سبيل للهروب لحظة واحدة من هذا الواقع الملزم المهين. بلى... إلاّ بتدويل مراسم الحج إسلامياً... وإلخ.

من المناظر الجديرة بالمشاهدة، استعداد البعض خارج الحرم أو تحت الرواق للطواف، المطوّف يصدر توجيهاته، والآخرون يصغون بدقة، ويترجمون لبعضهم، وبعدما يفهم الجميع المقصود يمسكون بأيادي بعضهم، أو إحرامات بعضهم، وينطلقون، على شكل مراوحة في البداية، ثم يبدأ الهجوم. لكنني واثق أنهم يتشرذمون في الهجوم الأول، فتأخذ التيارات كل واحد منهم إلى ناحية، ويتيه عليه طريق العودة إلى البيت، ويبقى متسكعاً ضائعاً نصف النهار.

والنساء متفرجات حقاً في هذه المراسم، لا يسمحون لهن بدخول البقيع، ولا بدخول مشاهد أُحد، ولا بئر زمزم، والليلة تجمع بعضهن على سطح الطابق الثاني من المسعى، وتقدمن إلى حافة السطح لأداء الصلاة. وهن مغتبطات لهذا الإنجاز الكبير، يتفرجن على البيت والطائفين. وإذا باثنين أو ثلاثة من التركمانيين يصلون، ويفهمونهن أن على النساء التأخر خلف الرجال، فتأخرن.

والأقمشة الطويلة المفروشة تحت الأقدام! يبللونها أولاً بماء زمزم، ثم يمدونها بطولها للحجاج، على الرخام في المسجد الحرام، وعلى الرمال أيضاً (لم تكتمل تغطية أرضية المسجد بالرخام بعد) لكيلا تكتوي أقدام الحجاج. ولتعم البركة هذه الأقمشة، وتبقى ذخراً في الدار الآخرة. الأكفان أعظم الصوغات التي يعود بها الحجاج إلى ديارهم، ناهيك عن الإحرام الذي يحتفظون به طيلة أعمارهم.

صعدت إلى السطح الشرقي، وجلست للصلاة. في مكان على حافة السطح مطل على كل المسجد وضواحيه. ارتفع الأذان في السادسة وعشرين دقيقة. أكثر تأخيراً من المألوف في المدينة. وحينما ارتفع الأذان، أخذ الطائفون حول البيت، ابتداءً من أطراف الدائرة إلى مركزها، يجلسون على الأرض صفوفاً دائرية. وعندما كبّر المكبر، كان المسجد كله صفوفاً تصلي، إذ ذاب بقية الطائفين بين الصفوف بطرفة عين. إلاّ أن الحركة ما تزال مشهودة عند الحجر الأسود إلى أن نزلنا للركوع. وما إن رفعنا رؤوسنا حتى كان المسجد كله صفوفاً. كل الأروقة والسطوح. أعظم جماعة بشرية تجتمع لأمر في مكان واحد. لا بد لهذا الاجتماع من معنى. معنى أرقى من المساومات والسوق والسياحة وقضاء الواجب والطقوس والاقتصاد والحكومة وألف ضرورة أخرى...!

وحينما بلغت الصلاة السلام، انفجر الناس الجالسون أمام الحجر الأسود في لحظة واحدة. بقصد الاستلام. ثم تبددت الصفوف. وعاد الطواف. بدايةً، نهضت الصفوف المجاورة للبيت وراحت تدور حول الكعبة، ثم تبعتها الصفوف الأبعد فالأبعد. بقوة طرد مركزية تغمرها الطمأنينة والرصانة. وبما يشبه تفتح الجنابذ. السادة الذين يشيدون هذه الأروقة الجديدة يعرفون عظمة المهمة الموكلة إليهم. ولكن واأسفاه! والعياذ باللّه من كل هذه الصروح الإسمنتية. ومع ذلك، حينما يفرغون من البناء فسيكون أكبر معبد غير مسقف على وجه الكرة الأرضية. بمئذنتين عملاقتين تتنافسان في استلام عنان السماء.

عندما كنت أنزل الدرج. لاحظت فجأة أن أرجلي تحرقني بشدة. تنحيت إلى جانب ورحت أفتش عن السبب. انحنيت فوجدتها أوراماً وتفقعات جديدة. ثم لمحت ساق رجلي تغطيها بقع حمراء. وبقع أخرى على بطني وصدري وعضدي. السبب كبدي المعلول، وهذه الشمس الجهنمية.

الأحد، 19 نيسان

مكة

توجهنا صباح اليوم لزياة قبر أبي طالب. فوق شعب «أبي عامر» امتداداً للمقبرة الجديدة في مكة. آخر الوادي الشمالي. حطموا عن عمد كل شيء وخربوه. ذاك عن البقيع، وهذا عن مقبرة مكة. أحجار رخام منحوتة منقوشة ببعض الكتابات، مكسرة شر تكسير ومبعثرة هنا وهناك. ولا يمكن معرفة أي شيء وأي مكان، إلاّ بدلالة دليل. وهكذا تحول التراث والقبور زوادة على أظهر بعض الناس. تخريب قبر في هذا الجزء من العالم (الذي يحرقون فيه الكتب) يعني إحراق كتاب. فكل قبر كتاب مسدود، وشاهدته غلافه. أو العكس. وهؤلاء سدوا حتى الغلاف. وإلاّ لماذا ندفن الأموات في القبور؟ ولماذا لا نحرقهم؟ إن تمايز الموتى، في ثقافات الأمم التي تدفن موتاها، مؤشر على تمايز الأحياء. ولكن، هل الأمم التي لا تدفن موتاها (الهندوس وغيرهم) منقطعون عن ثقافاتهم؟ ثم أي قبور الناس العاديين يبقى لأكثر من ثلاثين عاماً؟ إنما هي قبور العظماء التي تتحول مراقد وملاجئ وأماكن زيارة... دعنا من هذا.

رخامة تشبه العمود (مكسورة ملقاة طبعاً) باسم فلان من القادة العثمانيين. وحجارة أخرى ببقية اسم من الأسماء «شموئيل سلطان داغستان» (كذا) وأحجار منتصبة على القبور، بنقوش كنقوش السجاد منحوتة ومصقولة. وأنا أتجول بين فتات التراث، أتمتم بالسباب والشتائم. وإذا بشاب يقترب. بابتسامة تشي بقرابة أو صلة. والسلام، والأحوال. وكان شيعياً من أهل الأحساء. المنطقة التي زارها ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري، حياة أهاليها نصف اشتراكية. وبثثنا الهموم بشأن المقبرة والقبور. كان في نحو الرابعة والعشرين. قلت له لنجلس مكاناً ما ونحتس القهوة، وندردش،

ومشينا. لم يكن لديهم قهوة. ورضينا بعصير المانجو. يُلم بالإنكليزية بعض الإلمام. أقل مني. موظف في شركة أرامكو بمرتب 650 ريالاً في الشهر. (أظنه يبالغ) دردشنا ساعة. بحثاً عن عظمة صدر الإسلام، وقضايا أخرى... يقول في أرامكو كلها يعمل سبعة آلاف عربي، وثلاثة آلاف أمريكي. المراكز النفطية الرئيسة ثلاثة، الظهران، وعبقيق، ورأس تنورة. وليس في هذا الثالث غير المصافي. والإنتاج السعودي من النفط يبلغ مليوني «برميل» ولم أفهم الكمية المقصودة. ولم يستطع ترجمتها إلى الأطنان. يقول لكل واحد من تلك المراكز الثلاثة مدير، والمدير العام يسكن الظهران. ومرتب كل واحد منهم عشرة آلاف إلى اثني عشر ألف ريال في الشهر. ومرتب المدير العام ثلاثون ألفاً. بينما أعلى مرتب للعرب السعوديين ثلاثة آلاف في الشهر. ثم سألته عن «عبداللّه الطريقي» الذي كانت له صولاته وجولاته في قضايا نفط الخليج يوماً ما. وفيما يربحه الأجانب وينهبونه. قال إنه الآن في المنفى. في أمريكا، أو لبنان. وربما كان مشغولاً بالتدريس. خريج أمريكا. من الشباب الذين درسوا بإنفاق من أرامكو. حينما عاد إلى البلاد خطا خطوات، لدعم العمال والموظفين المحليين. فبدا لهم فرداً مشاكساً، فطردوه. يقول إن الأغلبية شيعية في الهفوف، والقطيف، والأحساء، 80 بالمئة منهم شيعة. فتذكرت القبادياني[1] تارة أخرى، وحدثته شيئاً عن القرامطة ونقلهم مكان الحجر الأسود، وغيرها من التجاوزات. لكنه لم يكن يعلم شيئاً عن التاريخ. منقطع عن التراث تماماً. إلا أنه شديد الاهتمام بطهران وملم بأخبار (15 خرداد)[2] وكان يسأل عن نتائجها... يقول إن الشيعة لم يسمح لهم بالتدريس في السعودية إلا منذ سنتين. ثم راح يفخر بأنه كان المقرر أن يأتي آية اللّه

(1) ناصر خسرو، شاعر رحالة وأديب إيراني معروف من أعلام القرن الخامس الهجري.

(2) انتفاضة الشعب الإيراني ضد الشاه، بتاريخ 15 خرداد 1342ش (1963م).

محسن الحكيم للحج هذا العام. لكنه لم يأت. لأن الحكومة السعودية لم توافق على كل شروطه. وما هي الشروط؟ بناء مزارات البقيع، وتحديد محراب للشيعة في البيت الحرام (وكنت قد رأيت إماماً واحداً هناك، وليس أربعة أئمة) وأخيراً السماح للشيعة برؤية الهلال. قال إن السعوديين وافقوا على الشرطين الأولين، ولم يوافقوا على الأخير. ثم سألته عن شركات النقل التي تأخذ الحجاج بباصاتها. كان عارفاً بالموضوع أكثر مني. قال إنها ثلاث شركات «باخشب» لرجل بهذا الاسم، و«شركة العربي» لرجل اسمه التميمي، و«شركة التوفيق» لرجل اسمه «شربتلي». أصحاب ملايين سعوديون. وهناك طبعاً سهم لـ«الملك المعظم» من كل واحدة منها. والسيارات كلها أمريكية «فورد»، «شوفرليت»، «دوج».

ثم سألني ما هو مذهبك؟ قلت له أتمنى أن أكون على مذهب المسلمين في صدر الإسلام. اندهش وتعجب. ولماذا جئت إلى مكة إذن؟ أجبته لا أدري. فقال صحيح إذن ما يقال عن الإيرانيين...؟ وأمسك كلامه. ثم أضاف بعد هنيهة أنه من الأفضل بالتالي اختيار واحدة من الفرق الاثنتين والسبعين، وإلاّ بقيت حائراً. قلت له إنني ما أزال حائراً في هذا الاختيار بالذات.

على مائدة الفطور (خبز وجبن وشاي) اختلف محدث مع السيد ذي اللحية الملونة (أبيض، وأسود، وأحمر) على مسألة في الصرف أو النحو. كان السيد هادئاً، لكنه شاطر ومراوغ. أما محدث فيصرخ ويغلي ويقسم بالبيت العتيق. بادرت لمساعدته، حتى لا يظن السيد أنه إزاء رجل عامي. مضافاً إلى أن الحق كان مع محدث. السيد بحكم عمامته وحيثيته لم يكن يرغب التراجع أمام أناس يسألونه في الشكوك والهويات، فتبدو ثقافته دون غيره، لكنه كان فعلاً أقل ثقافة وتعليماً. ومحدث لم يفطن إلى هذه النقطة. أياً

كان اقترب الرجلان من الإمساك بالتلابيب. بدأت أعرف محدثاً لتوي. هو ذاته الطلبة المهووس بالمباحثة قبل خمس وعشرين سنة.

كانت الصحف العربية المحلية مكتظة اليوم بالتباهي والتعالي، لأن السعوديين أعدوا بأنفسهم أستار الكعبة هذا العام، ولم يقبلوها من المصريين. وقد غسلوا الكعبة صباحاً ليبدلوا أستارها. وكان في فم كل واحد من جماعتنا العائدين من الطواف ملاحم جبارة. لأنهم شهدوا تبديل أستار الكعبة. وكان الزحام كمحشر يوم القيامة. أحدهم اسودّت قدمه من كثرة ما تلقت من الدفرات. وآخر أضاع حذاءه. وثالث صار وأصحابه خفراً كي يستطيع صاحبهم أداء الصلاة في مقام إبراهيم، وسط الزحام المفزع. وهكذا ينتقل الدور بين السادة. أما أنا فاشتد بي وجع الظهر. السعي بين الصفا والمروة طويل ومتعب. مع أني لا أستطيع المواصلة في كل مرة لأكثر من شوطين. أصاب بالقرف، وأهرب من المكان. الطواف أسهل وأروح. ولكن لماذا وجع الظهر هذا؟ آها... بسبب عنف اليمنيين، يضعون مرافقهم في ظهور الحجاج، ويضغطون من الجانبين، ليفتحوا لأنفسهم الطريق. شاهدت هذه الحالة أكثر من مرة. لكنني لا أتذكر أنني كنت الضحية في إحدى المرات. لكن هذا حصل على أغلب الظن. لأن المشي لم يرضرض ظهري لحد الآن.

أمس غروباً، قصرت كالآخرين. لأخلع عني الإحرام، قصرت شاربي. في طرفي المسعى، وعلى مرتفعي الصفا والمروة، وقف بعضهم يقصرون للحجاج، وبأيديهم المرايا والمقصات. يقطعون خصلة من شعر الرأس، أو اللحية، أو الشارب، ويأخذون مالاً. وصارت صخور الصفا والمروة كأرضية دكاكين الحلاقة. من خصلات الشعر الذي يقصرونه من كل حاج. أخذت المقص والمرآة من أحدهم، وقصرت شاربي بنفسي. أعطيته نصف ريال وانصرفت.

أما هذه الشمس الجبلية في مكة، فبالغة الخطورة. عاودني سعالي الجاف. وقطرة «ايبيزاندرين» في كل يوم. وما أكثر الحجاج الإيرانيين القرعان! الشيوخ منهم بالطبع، والقرويين منهم بالأخص. أحدهم شيخ ساكت معظم دهره، يخفي قرعته بقلنسوة، ويتحاشى الآخرين دائماً، كأنه دجاجة مريضة. يعيش في الممر ليله ونهاره. لم أفطن إليه في المدينة. لكنني لاحظته هنا. أمس حينما ذهبت لأشرب ماء من قربتي، التي أعلقها على شباك الغرفة، رأيته. الكل جالسون على مائدة الغداء، بينما اعتزلهم متوحداً، وأمامه جفنة ماء مثلج. جمع ركبتيه إلى حنكه كالمهموم، وراح يدخن. تماماً كالطفل الذي وبخه أبوه. كأنه جاء للاعتكاف وليس للحج. جلست بجواره، وقلت له هذه الأشياء. بأنه من أهالي «تفرش»[1] ووحيد ولا رفيق له في واحد من أبناء مدينته. والأنكى من القافلة، أنه مصاب بالإسهال. ناديت على شقيقتي من غرفة النساء، لترى إن كان لدى إحداهن طعام ينفع حالته، جاءته به. ثم خاطبته: «عزيزنا الحاج، الكل يصابون بالإسهال. الجو ليس على ما يرام. وأنا ما زلت محتمياً. ليس الإسهال جرباً»... ومن هذه الخزعبلات، فصار يجلس بين الجماعة. الواقع أن حادثة رائد الشرطة شوشت بالي. لكن هذا التفرشي يعرف على الأقل كيف يحمي رأسه الأقرع من هذه الشمس الخبيثة. غيره لا يعرفون حتى هذه. فتتفقع رؤوسهم، وتعلوها البقع الحمراء. رأيت أحدهم في المركز الصحي برأس متورم. وقد لفوا على رأسه عمامة كبيرة بدل الشريط الطبي. الشمس تقصف هذه الرؤوس القرعاء فتملؤها هواء. وشيئاً فشيئاً أصبحت طبيب جماعتنا وسكرتيرهم. أقراص الملح. فيتامين C. ايبيزاندرين. وإلى آخر هذه العجائب... والشريط الطبي (اللفاف) أكثر من كل شيء. يعودون من الطواف أو السعي، وكأنهم عائدون من معركة خيبر.

(1) مدينة وسط إيران.

جرح واحد لكل شخص على الأقل. وجميعهم يعلمون أني أمتلك شريطاً طبياً. إبهام قدم أحد المازندرانيين كان مسلوخ الجلد بفظاعة. لففت عليه ثلاثة أشرطة. وكتبت اليوم رسالتين بوصفي سكرتيراً لذلك المازندراني الذي يشبه «نيما». وكان اسمه طريفاً هو الآخر. الحاج «بائوچ» وما معناه؟ لا يدري هو أيضا. رسالته عبارة عن سطرين من أخبار السفر، ثم صفحتين من التحيات، لقرابة خمسين شخصاً. أحدهم المشهدي منوچهر!

وتعرفت على أسعار جديدة: اللبن الرائب المعلب بنصف ريال (وحامض جداً) قربة من جلد الحمل أو الماعز بثلاثة ريالات. الماء كل دلو بنصف ريال. ولا تحمله إلى الأزقة المرتفعة إلا الحمير. يحمل الحمار الواحد ثمانية دلاء. توضع حمالات صغيرة على ظهره، وتحمل كل أربعة دلاء على جانب. والناس تحمل الماء أيضاً. يضع الواحد منهم عصا غليظة على كتفه، ويعلق على كل طرف دلواً. لكن الأسعار لا تختلف. والحمير تصعد السلالم بخفة، وبطريقة متعرجة. كالبغال على الجبال. نحتوا على الأرض سلالم في الأزقة المنحدرة. والحمير مكوية بعلامات مختلفة على أردافها وأعناقها، وجلودها كالسجاد تماماً. ربما يرسمون العلامة أولاً على الجلد ثم يكوون موضعها. أماكن الكي منزوعة الشعر بيضاء، أو أنهم صبغوها بالألوان. والحمير كلها «بندرية». ونشيطة جداً.

ومكة أخذت في التنمية بسرعة، كأي مدينة أخرى. «التطور» امتد حتى إلى المقدسات. لا تقتربُ من «مقدس» إلا وتلاحظ أن القدسية ليست في العالم الخارجي، وإنما في الداخل؛ في ذهنك أنت. أو أنها كانت في ذهنك. ورمز كل مقدس كامن في حدوده وحريمه. في المسافات الفاصلة. فإذا ارتفع الحريم، عاد المقدس شيئاً، أو إنساناً، أو مدينة تتطور. وإذا كانت يثرب تتمدد على الأرض، فمكة ترتفع جواً. البنايات

تعلو وتعلو. والأزقة ترتفع على سفح الجبل أيضاً، التعبير الدقيق هو أن مكة تنبت من الأرض وتنمو. الأسس الإسمنتية في كل مكان يغطونها من الداخل بالأحجار بدل الطابوق. ولا أثر البتة للنجارة التقليدية الجميلة، فالشبابيك كبيرة حديدية زجاجية. هنا أيضاً ورطة استهلاك المنتوجات الأجنبية. وتحت هذه الشمس الخطيرة!

لثلاث مرات تقريباً، شاهدت شباباً يمسكون بأكف عرائسهم ويطوفون. شهر العسل في الحج. بدا لي أنهن عرائس من براقعهن البيضاء الجميلة المطرزة يضربنها على وجوههن. أو من شدة حماية أزواجهن لهن. وشاهدت حوامل لأكثر من مرة. قريبات جداً من الولادة، ويطفن كالآخرين تماماً. بلا أي حركات مميزة أو فزع. وبقية الحجاج يراعون حالهن بحذر شديد.

وفي شارع غزة (أكبر شوارع مكة) مسجد يسمى «مسجد الجن».

اليوم نفسه في المكان نفسه

حينما هبطت حرارة الجو عصراً، خرجت من البيت للتجوال. ألقيت الخمار على رأسي كالفوطة. وعلى عاتقي عباءة جواد، كالآخرين تماماً. لا مفر من ذلك مع هذه الأتربة والغبار والشمس. اتجهت شمالاً إلى ساحة «المعابدة». والشمس مستترة خلف الجبل. خضرة جميلة وسط الساحة، ومصطبات بين الزهور. الأشجار الاستوائية لا تزال يافعة بلا ظلال. باستثناء بعض أشجار اليوكالبتوس. والجو يملؤه الغبار. وقليل من زهور الزينة على جوانب الحديقة قرب الثيل.

تجولت قليلاً ثم جلست بجوار شاب فارع، راح يقلب أوراقاً مستنسخة ويقرؤها، كأنه يذاكر دروسه. سلمت عليه، واستأذنته للجلوس بما أجيده من العربية. هرب من المذاكرة إلى الحوار. وتبين أنه ضابط عاد لتوه من

«خميس مشيط» في إجازة (أيام عيد الأضحى، والعطلة السنوية الرسمية في السعودية، وما يشبه عطلة النوروز عندنا)، والخميس هذه منطقة على الحدود اليمنية السعودية. وهو مسؤول عن عدة جنود. لحماية الحدود مقابل «السلاّل». والحماية من «البدر» نوعاً ما. مرتبه 750 ريالاً في الشهر. له زوجة وطفل. من عرب «عنيزة». لم أتصور أبداً أن يكون عرب عنيزة بهذه النظافة والجمال. وقرأ قصائد لشعرائهم تقدح بالسلطة الوهابية والحكومة السعودية. كان شديد الشوق لمعرفة هل أنا «مواطن صالح» أم لا. فهمت ما يقولـه. ولذت بالإنكليزية. وكان ملماً بها بعض الشيء. قلت له تقصد Good Citizen؟ فلم يفهم. اضطررت أن أوضح أنه إذا كان مراده «عالم وطني» فلست كذلك. سأل لماذا؟ قلت له مع أن الإنسان ليس حجارة توضع في بناء، وترتهن لـه، لكن حدود كل إنسان في لغته، وثقافته، وتراثه، و... ولكن ينبغي أن أسمع منه شيئاً. لذا أجملت القول ورميت الكرة في ساحته. الأوراق التي كان يطالعها تاريخ الحربين العالميتين بالعربية. ترجمة لنص أمريكي. قال إنه شيوعي. وذكر ميكافيلي، وماركس، وهيغل. وتحدث عن الرأسمالية. قبل مدة وجيزة أوفد ثلاثة أشهر إلى مصر في دورة عسكرية. وجاء بكل هذه الأسماء والكتب «صوغة» من هناك. الأسماء التي ذكرها واستشهاده بـ«هارولدلسكي» ذكرتني بحالنا قبل عشرين عاماً. وكان له بعض الإلمام بالعبرية تعلمه في المدرسة العسكرية، حتى لا يحاروا في إدارة إسرائيل بعدما يستولون عليها. وهكذا انتقلنا إلى إسرائيل. سقت له مثالاً من الأيدي والقلب كأعضاء في جسم واحد (وقد سقته أيضاً لشباب عرعر في دكان المرطبات) وضرورة إيقاف القلب عن العمل حتى تقف الأيدي عن الحركة. والقلب الخطير في الشرق هو الرأسمالية الأجنبية. أما أرامكو وباقي الشركات النفطية فتمثل الأيدي. وإسرائيل من الأيدي أيضاً.

لكنه لم يقنع. فتشت مدة عن معادل عربي لكمة «عوام فريبي» (خداع البسطاء) (لأنه لم يفهم المصطلح الإنكليزي) لأقول له إن عبدالناصر يمارس هذا الشيء في قضية إسرائيل. لكنني لم أجد مفردة ناجعة. كان متنبهاً لمخاطر الرأسمالية. لكنه لا يستوعب أن وحدة العرب ينبغي أن توجه ضد الشركات النفطية، عوض توجيهها ضد إسرائيل. ثم بدا مرتعباً لأنني أسجل ملاحظات في الدفتر. خصوصاً حينما سجلت مقولة الملك المعظم سعود الأول «لا تعلم الشاب فيأكلك». قال إنهم يلقون القبض على الشخص فجأة ويأخذونه. أردت معرفة مكان السجون السعودية. تلفت حواليه ثم نطق على عجل باسمين لم أفهمهما. رآني أنوي كتابتهما في الدفتر، فلم يكررهما. سألته أين تقع؟ قال في «الربع الخالي». ثم قال إنه ليس الوحيد الذي يحمل هذه الأفكار في الجيش. فهنالك الكثيرون مثله. ثم قرب فمه من أذني «على حد تعبير عبدالناصر، ينبغي القضاء على إسرائيل في قصور الملوك العرب أولاً، ثم بعد ذلك في فلسطين» وطفق يبث همومه عن الفقر، وتردي الوضع الصحي، و... إلخ. نسيت أن أسأله عن رتبته. ولكن يبدو من سنه أنه ملازم أول أو ثاني.

عندما افترقنا، عنّ لي أن الغرب نجح في جعل إسرائيل ستّارة لعيوبه. أو جداراً يختفي وراءه. زرعوا إسرائيل في قلب الأراضي العربية، لينسى العرب في خضم مشكلتهم معها، مشكلاتهم الأصلية مع الغرب. ولا يتذكروا أن سقاية شجرة إسرائيل وسمادها لا يتوفر بدون الغرب المسيحي. الرساميل الفرنسية والأمريكية. ثم دعم البابا لهم في دحض لعن المسيح لهم. أظنها فتوى البابا «جون الثالث والعشرين»... ثم خطر ببالي أن صعود نجم عبدالناصر وتعملقه، تأتى بسبب أنه اتخذ موقفه ضد الغرب، من دون أن يكون له احتياطي نفطي. وقناة السويس لا تستحق الصبر على أكثر من

هذه المعضلات. أما مواقفنا نحن فكانت مع وجود احتياطي نفطي هائل. وكان هذا أحد أسباب هزيمتنا في نهضة الدكتور مصدق، وما أحاط بها من ملابسات. وقد كانت هزيمتنا من الداخل لا من الخارج. فالغرب كان مندساً فينا. وقد نخرنا من الداخل. وإذا كان الغرب بأساليبه الاستعمارية الجديدة، يجول على عربة المسيحية بهذه الدرجة من الكفاءة، فلماذا تركنا نحن عربة الإسلام صدئة عاطلة هكذا؟ وتساءلت مع نفسي أفلا تكون مراسم الحج هذه منطلقاً مناسباً لاتخاذ موقف ضد الغرب؟ (أووه ه ه، عدت إلى «نزعة التغريب» مرة أخرى...).

اليوم نفسه

لم أترك الحمية منذ أن كنا في المدينة وإلى الآن. الشاي ومعلبات الفاكهة واللبن الرائب. وقد وجدت الأخير في مكة. لكنه حامض جداً. والمعلبات التي أكلتها ظهراً كانت يابانية. شيء بين الخوخ والمشمش. وعصير المانجو من إنتاج الهند. وكل شيء من مكان ما. بضائع العالم كله تجتمع هنا. قضية في منتهى الجد. فهذه الجمهرة العظيمة أفضل سوق يخطر في الخيال. ربما أمكن القول إن موسم الحج خير مستهلك لسقط أمتعة معامل العالم كلها. ورفاق السفر غارقون في الشراء. ويتصفحون الآن مشترياتهم. ويعلنون أسعارها، ويخبرون بعضهم بأسرارها. أيّ الباعة محتال، وأيهم منصف. الشاي، والتمر، والأقمشة، والياقوت الأحمر، وجلد الأفاعي (للأثرياء) والخلع، والعباءات السوداء (وكم ذا يدخنون ال بي) وزيت البلسم، والعود، والعطور، والشمع، والساعات، والقمصان الرجالية، والجوارب، والأحذية، وأشياء أخرى كثيرة. كل شيء من بلد في العالم. ويا لها من ضيافة أقامها الكلاب، والماعز، والقطط خلف جدار بنايتنا. تكومت فضلات طعام تكفي لقطعان منهم.

بقايا موائد الحجاج. حرارة الجو لا تبقي عليها صالحة للأكل. والطريف هو السلام الفاشي بين الحيوانات. الكلاب والقطط معاً. تتنازع القطط فيما بينها أكثر مما تتنازع مع الكلاب. ومائدتهم خليط من الرز والخبز واللحم والدجاج... وكل ما لذّ وطاب.

من رفاق سفرنا رجل كبير السن نحيف طويل يلبس نظارات. وقور جداً. مدير مدرسة متقاعد في ساري.[1] وصل تواً وقد أخذ منه التعب مأخذاً. دفعوه عند الطواف، فسقطت نظاراته، وتكسرت شر مكسر. قال إنه في الطريق إلى هنا منذ صلاة المغرب ولحد الآن. مشى هائماً على وجهه يتخبط، وأضاع الطريق. كاد ينفجر من الغيظ والقرف. تعاونّا على إسعافه بالماء والشاي وماء «الخوبة» المثلجة والعشاء. واعدته أن أذهب معه غداً عند طبيب محلي ليعطيه نظارة جديدة. سألته ما هي درجة نظاراتك؟ فقال عشرة. لكن نظاراته لا تنم عن هذا!

وفي وقت العصر تجمع أطفال المحلة (بعد انتهاء الدوام) يتفرجون على ذبح الدجاج ورفسته. عشاؤنا هذه الليلة رز ودجاج. ومن العاملين في قافلتنا عربي تعلم بضع كلمات فارسية. واعترته نوبة مزاح مع أحد رفاق السفر، يبيع الطحين في سوق معيّر. رأسه شديد القرع. يقول له «ليس لك مخ» ويضحك الجميع. ومرة كل دقيقة. لو رآه مئة مرة في اليوم لَما وفر مرة واحدة منها، يقول له فيها بفارسية فذة «مخ نيست» (لا يوجد مخ) وقهقهات الناس. وبدأ رفع الرايات من الآن. احترازاً من الضياع في منى وعرفات. كل قافلة تحمل رايتها باسم رئيسها ورسمه. وعامل قافلتنا الذي رافق حضرة الرائد المتقاعد من المدينة إلى مكة لم يعد لحد الآن، فتعرقلت بذلك برامجنا.

(1) شمال إيران.

الإثنين، 20 نيسان

مكة

صباح اليوم مسّني أنا أيضاً طائف من التبضّع. مثل هذا السوق يثير في المرء حفيظة الشراء. أظن أن الناس تشتري الصوغات لا على التعيين في أول الأمر. تبعاً لهياج السوق. ثم حين يعودون إلى الأوطان، يقررون هذه لفلان وتلك لعلان. اشتريت خمارين، وثلاث عصي خيزرانية، وعدة علب من أغصان العود، وأربعة أقلام حبر. وتجمع الرفاق حولي، يسألون ما الذي اشتريت. أعجبتهم الأقلام. وسألني بعضهم عن دكانها ليشتري مثلها. لكن الخيزرانات لم تعجبهم. لم يقل أحدهم شيئاً. ولكن بدا السبب على نظراتهم. السهم الذي نحر «علي الأصغر» بن الإمام الحسين كان من الخيزران... أيمكن أن تكتب رحلة حج ولا تعرج على كربلاء؟ ثم إن المسير إلى منى بدأ من اليوم. وزحام الشوارع لا يطاق. وأصوات الأبواق من كل حدب وصوب.

اليوم نفسه، المكان نفسه

كنت أسجل مذكراتي، إذ طاب للخال أن يبعث رسالة. قضى عمره كله كاتباً، لكن يديه الآن ترتجفان ولا يستطيع الكتابة. فرغت من كتابة رسالته لتوي. أراد أن يمضيها بنفسه. أمسك القلم بقبضته ووضعه على الورقة. كما يمسك السكين ويريد غرسها عمودياً على الطاولة. وبصعوبة بالغة كتب كلمة «محمد». كبيرة جداً. وجر خطاً دائرياً حولها. الشيخوخة والعجز مصيبة حقاً. حينما أفكر أراني نافراً جداً من بلوغ ذلك العمر. ثمانون عاماً[1]؟! إنه عمر نوح. خالي وخلافاً للقرويين يقلب الكلمات في ذهنه ولسانه، ثم يلهج

(1) غادر جلال الحياة بعمر 46 عاما.

بها (رسالته الرسالة الثانية عشرة التي أكتبها لرفاق الدرب) يحسب لكل شيء حسابه ويضعه موضعه. قضى حياته في المحاضر. وقد علمته القيمة الاقتصادية والحقوقية للكلمات. لكنه شيخ ضعيف البنية جداً. ونتوجس جميعنا خيفة عليه. تورمت قدماه يوم أمس. لا من المشي الكثير. بل من خوف إضاعة الطريق، ذهبت اليوم، وزرقوه دواءً بالإبرة، ويظن أن حاله قد تحسنت. طاف وسعى على العربة. بأربعين ريالاً في المجموع. لكنه في عودته انتظر جواداً لفترة طويلة. ومن دون فائدة. حينما وصلت إليه عند باب الحرم، كان يتصبب عرقاً، وعيناه تجولان هنا وهناك إلى حد مفزع. حاولت تطمينه، وتسكينه، وعدنا سوية على مهل. ومنها تورمت قدماه.

والحاج بائوچ راح يقص على مائدة الفطور حكاية أو موضوعاً. عاكسه أحد أبناء مدينته أنْ «يا حاج، خير الكلام ما قل ودل» انكسر خاطره وزعل مرة أخرى. لم ينس ما كان يريد قوله فقط، بل وأضرب عن شرب الشاي أيضاً. كأنه لا يريد أن يطيل الكلام. من أولئك الناس الصريحين، غير الهيابين، الذين يدلون بآرائهم بلا تحفظ. والمدير المتقاعد، ذهب اليوم مع ابنه إلى الطبيب. أخذ نظارة مؤقتة إلى أن يتم إعداد الأصلية. والنظارة المستعارة على وجهه كقناع الغازات السامة.

اليوم نفسه

مكة

تقرر أن ننطلق في السادسة أو السابعة إلى عرفات. وقد هاجت الغرفة وماجت من الآن. الكل يتحركون بلا انقطاع. بعضهم مضطربون، يتعجلون في شد الأمتعة وفتحها. وبالتالي نسوا أن يرتدوا الإحرامات. وطفقوا يعلمون بعضهم شد مناطق الخصر والهميانات، بحيث لا يراها أحد. وانتابهم شك

قلقل أحشاءهم. هل يأخذون كل أموالهم معهم أم بعضها؟ فالقسم الأكبر من أمتعتهم تبقى هنا. ولا يأخذون معهم إلا ما يحتاجون له، خلال يومين أو ثلاثة في منى وعرفات. والمشكلة الأهم أن صنابير المياه بلا ماء. ووجوب الاغتسال للإحرام، وما إلى ذلك، بمجرد أن يكون الماء ضرورياً، يختفي من الأنابيب، كالجن. وبسم اللّه. مع أن في البيت إسالة مياه. ولكن ماذا يفعل كل هؤلاء الناس في هذا البيت الكبير وأربع صنابير مياه؟ وصاحب البيت يروح ويغدو؛ افعل هذا ولا تفعل ذاك. في بيته مبردة واحدة، يظنها جوهرة جاء بها من الهند. يتعامل معها كالمثقفين المتميعين مع سياراتهم في طهران. يطل برأسه دائماً ليتأكد من أن أحداً لم يمسسها بسوء، أو قلل من سرعتها أو زاد. ليتها لم تكن أصلاً، ولم يلفحنا كل هذا الهواء المزيف. ولم نستمع لصوتها المزعج، الذي لا يتركنا ننام ليلنا. والإخوة تعرفوا على نقطة ضعف الرجل، فراحوا يعبثون بها تباعاً، كالأطفال تماماً. أما أنا فمسرور جداً، لأني سأخلص ليومين أو ثلاثة في منى وعرفات من شرها.

واندلع الشجار بين رفاق السفر الآن، على النعال، فالنعال كلها من شكل واحد، لكن كل زوج بلون. بعضها كبير والبعض صغير. أحدهم ضاع حذاؤه. وذاك لا تتشابه فردتا حذائه... وهلم جرا. وفي هذه الغمرة انفتحت شهية المزاح لدى صالحي (واعظنا الذي طلب أكثر من مرة أن أذكره في هذه السطور، وها أنذا ألبي طلبه). ولم أدر ما المناسبة التي دعته ليروي لنا قصة الضفادع التي اشتكت البرد لنبي اللّه سليمان، وطلبت منه أقبية تعصمها من البرد، فوعدها سليمان بذلك، لكن الأجل لم يمهله. ومن حينها إلى اليوم ما انفكت الضفادع تردد حنيناً إلى الأقبية «قبا.. قبا.. قبا». ثم قال إن مظاهرات خرجت أمس من المسجد الحرام بعد صلاة المغرب. مظاهرات سياسية. نهض اثنان وخطبا في الناس. أحدهما قدحاً بإسرائيل، والثاني قدحاً بسورية.

ولم أفهم علة الثاني. وحرب الأحذية لم تضع أوزارها بعد. ضاعت لحد الآن أشياء أخرى: خاتمان، وجفنة لعابية. وثلاث قناني من ماء الليمون (اشترى محدث أحداها أمس بريالين ونصف. بماركة گلاسكو، آبردين) وتعال اسمع السباب والفضائح من أجل هذه الأشياء. وعلى أية أفواه؟! أفواه حجاج بيت اللّه الحرام المحترمين. أغنياء الأمة الإسلامية في إيران.

اليوم نفسه مساء

عرفات

انطلقنا في التاسعة مساءً. بسيارة حمل، ووصلنا في الحادية عشرة، وكنا مستعدين للحركة من الخامسة عصراً. ما أغربها حكاية البداوة الممكننة هذه! الانطلاق من مكة والوصول إلى صحراء عرفات جهاد أكبر بكل معنى الكلمة. هنا يفهم الإنسان معنى المفردات الدينية. وكما في السابق علينا أن ننتظر، وننتظر، وننتظر. وعزائي هو الغوص في دفتر مذكراتي الصغير. وإغلاق أبوابه الورقية على نفسي. أياً كان، انطلقنا بعد ذلك، وقطعنا 21 كيلومتراً في ثلاث ساعات. وكانت الشاحنة تتوقف دوماً، ويتكدس الحجاج على بعضهم، وتتعالى أصواتهم. (نادى عليّ جواد بأن نصعد على قمة الشاحنة. فوق غرفة السائق. وصعدنا. لم أفهم السبب في البداية. لكني لاحظت بعد ذلك أن الهواء يدخل تحت الإحرام، وأصبت ببرد شديد) انطلقنا ثانية بسرعة. وبعد قليل عاد صراخ البوق، وأنين الكوابح، ثم اعتراضات الحجاج الذين يتكدسون على بعضهم. أركبوا النساء في مقدمة الشاحنة، والرجال في آخرها. وعند الكبح يترامى البعض على البعض، وترتفع الأصوات المستنكرة. ثم وصلنا صحراء، بحوالي فرسخ في فرسخين. والخيام مضروبة في كل مكان. والحبال متشابكة. أربعة شوارع في الوسط. في أحدها

مسجد. وفي الثاني دكاكين وخبازون وقصابون. والصحراء كلها بلا كهرباء. الإضاءة مصابيح نفطية صغيرة وكبيرة، معلقة وذات مساند أرضية. والأغنام المسلوخة معلقة أمام الدكاكين والخيام. والمقاهي مشهودة هي الأخرى. لكن صاحب الدكان نائم على واجهته. وأفران الخبازين لا تزال باردة. والبدو نائمون على جوانب الشوارع الرئيسية. مع أحشامهم وأغنامهم. بأعناق مخضبة، وأيد وأرجل زرقاء. والخيام، الخيام، الخيام على مد البصر. حتى الشرطة وأفراد القوات المسلحة يرتدون الإحرامات هنا. لكن بنادقهم على عواتقهم. شرطة الطرق فقط لا يزالون يرتدون ثيابهم الرسمية. والهراوات في أيديهم. يرشدون السواق إلى أماكنهم. والكشافة يساعدون الناس في العثور على خيامهم. وجدنا خيمتنا بسهولة نسبياً. ونحن الآن تحتها. والكل في مأتم لأماكنهم وفراشهم، وعشائهم، ولكل شيء. يبدو أننا عند منبت جبل. و«جبل الرحمة» يتردد بكثرة في الحوارات. رأيناه من بعيد ونحن في الشاحنة إلى هنا، بأضواء متحركة صغيرة على سفحه. الهواء بارد، وأنا متعب، والسعال يمنعني. وإلا خرجت وتجولت ساعة بين الناس. اللعنة على هذا الـ«برونشيت» الذي صار الآن «تراكييد».[1] أكتفي لهذه الليلة بهذا القدر من الكتابة، وأشير فقط إلى أن هذه المنطقة سميت عرفات، لأن آدم وحواء التقيا فيها بعد طردهما من الجنة، وعرفا بعضهما.

الثلاثاء، 21 نيسان 1964 (9 ذي الحجة)

عرفات

استيقظت صباحاً على هذا النشيد:

يا عم الحاج، حجي

---

(1) يشير إلى تفاقم وضعه الصحي.

اللّه يتقبل، حجي

حيّ بريال، حجي

سواء سواء، حجي

يا بوطربوش، حجي

طربوشك أحمر، حجي، و... إلخ

على إيقاع ريم، بام، بام، بام.. بام، بام. أغنية تردد ترجيعها (حجي) طفلة في السابعة من عمرها بحركة معينة تصدرها حينما تقول (حجي). تثني ركبتيها فجأة، وتقصّر قامتها. وبقية الأغنية تنشدها فتاة بالغة ذات وجه وقوام جميلين، وما أدفأ صورتها؟ أظنها نفس الأغنية التي سمعتها عند باب حديقة الصفا، من بعض بنات النخاولة. استيقظنا في الخامسة فجراً للصلاة، ثم خلدنا للنوم تارة أخرى، من شدة التعب. وامتد بنا النوم إلى السابعة والنصف. بعدها أيقظتنا أغنية الحجي. الفطور شاي وخبز. وعشاؤنا البارحة رز وعدس بارد. طبخوه في مكة، وتناولناه في عرفات. (وعندنا الآن مجلس تعزية. تعزية، تعزية، تعزية. خنقونا بهذه التعزية. يأتي الرجل للحج ولزيارة بيت اللّه، ولا ينفك يئن ويولول حنيناً إلى زيارة كربلاء. وكأن معممينا ونواحينا لا يكفون، وإذا باثنين من النواحين الكربلائيين يطلان علينا اليوم. بلهجة عربية) وبعدهما أي بعدما جمعا مالاً وانصرفا جاءت امرأة متلثمة في حجرها طفل صغير. لها عيون وحواجب الغزلان. قرأت هي الأخرى ما تيسر لها وجمعت مالاً وانصرفت. كلمات أنشودتها كانت عسيرة. لم أستطع تسجيل شيء منها. مع أن وجهها أحسن من صوتها. نحن المجموعة الوحيدة في هذا الجانب من الصحراء لنا دكان تعازي. ويا لزحام المجلس! لم يعد هذا مكاننا. يجب أن أسير. أتجول في عرفات. أختي أضاعت البارحة ساعتها

حينما حططنا الرحال. والآن تتشاجر مع زوجها. وفي المدينة أضاعت خاتمها. لا أدري ماذا دهاها. ربما هياج السفر. والوقوف في عرفات أهم أركان الحج. أي اليقظة التامة في هذه الصحراء من الظهر إلى الغروب. وقفة الذوبان المطلق.

اليوم نفسه

عرفات

البارحة عند وصولنا، كنا نفرش متاعنا البسيط، إذ رأيت حشرة كبيرة تمشي على البطانية. شيء يشبه الحُنظُب. قتلتها للأسف. وفجأة تذكرت حرمة هذا العمل. ترتدي الإحرام وتؤذي المخلوقات؟! لكن حصل ما حصل، وقال محدث ونحن نمسك البطانية لنلقي بجسدها خارجاً «كان فيها خطورة على حياتنا بالطبع» أي لا بأس في قتلها إن شاء اللّه. ثم تعشينا ونمنا. وما كان أبردها من ليلة! تلفعت بالإحرام تحت البطانية، وتمددت وأنا أسعل. مستعيناً بخمس عشرة قطرة من «ايبيزاندرين».

أما عرفات فهي صحراء تشبه السهل الرسوبي. تحاصرها الجبال من ثلاثة أطراف. على طريق الطائف. بادية مرتفعة. تشبه حوضاً. وهي أبرد من ضواحيها. والثيل النابت في بعض نواحيها. خصوصاً عند بداية الجبل. إلى الشرق من مكة. وقاع الحوض مليء برمال ناعمة تذكر برمال السواحل. وبعض الأصداف المكسرة. أو أشياء تلتمع وتبرق. بلون حليبي. وحتى الجبال وصخورها حليبية. عندما وصلنا البارحة هبت نسائم باردة. واليوم شاهدت على المرتفعات شجيرات تشبه العاقول. ثم قطعان الخراف والماعز ترتفع على المرتفعات. فضلاً عن الأحشام داخل الخيام وخارجها. يبدو أنهم يأتون بالأغنام إلى هذه المراعي قبل التضحية بها. حتى لا تذبح جائعة. (أمس 8

ذي الحجة كان يوم التروية، أي يوم الارتواء من الماء) وبدا لي المجيء إلى عرفات نوعاً من (13 بدر).[1]

أشبه بسفرة عائلية. المنطقة التي نحن فيها قريبة من منبت الجبل. وخيام كل الإيرانيين والشيعة متقاربة من بعضها في هذه الناحية. قال صالحي على المنبر إن الوقوف على قمة الجبل أو سفحه يوم عرفات أفضل. وهنا تذكر جبال إيران وقال: «جبال الحجاز أنبض بالحياة من جبال إيران» وأضاف «أقول هذه لك بالذات يا فلان» يقصدني أنا. وكان الحق معه. الجبال والصحراء هنا أنقى وأعرى. وهي بذلك أبهى. لا ترى بينك أنت الإنسان، وبين أي من عناصر الطبيعة، أي حجاب أو حاجز. الشمس في مكان الشمس. راسخة قوية ساخنة، كأفران الحدادين. والصحراء صحراء. جافة زاخرة بالسراب. والجبل، قطع من الصخور الكبيرة مرصوفة على بعضها إلى الأعلى. ما من نبات. لذلك يقصدون عرفات لترعى فيها مواشيهم.

تجولت ساعة في الصباح. المراحيض أسوأ ما في القضية. وضعوا لكل خيمة يسكنها مئة إنسان، حاجزاً قماشياً صغيراً على حفيرة. لا يتسع المكان إلا لشخص واحد. وعندما تجلس تلامس ركبتاك الجانبين. وتكون قريباً جداً من الحجاج. صحيح أن الحج ينادي الناس إلى البداوة، وحياة الصحراء تحت الخيام. ولكن حينما تنقل الحجاج سيارات الشوفرليت، وطائرات الجت، بدل الإبل والخيول، أفلا يفكرون بالمراحيض أيضاً؟! يمكن تأسيس مرافق إسمنتية كبيرة في كل مكان. بمياه جارية وبشكل منظم، حتى لا يقف الحجاج لقضاء حاجاتهم في مثل هذه الطوابير. ولا يتخلوا في الملأ العام

(1) يوم الطبيعة، يخرج فيه معظم الإيرانيين إلى البساتين والمتنزهات، ويتشاءمون تقليدياً من البقاء في البيت.

هكذا. والعياذ باللّه من حروب المياه التي اندلعت من أول الصباح. لكل خمس خيام أو ست، قناة مياه واحدة، أطلت برأسها من تحت الأرض. على قاعدة إسمنتية. وعليها مَنّ وتشدقات، تذكرك بأنها هدية الملك المعظم! والحال أنها المياه التي جاءت بها «زبيدة» زوجة هارون الرشيد من الطائف. وحتى صنابير المياه هذه خاضعة لاحتكار باعة الماء. وتعال انظر العراك، وحلبات الملاكمة، والتراشق بالنعال المبللة كأنها السياط، وطاق وطيق، و«يابن الكلب»... والى آخره.

بدؤوا النحر والتضحية منذ بواكير الصباح. يتولاه في الغالب بدو، ويمنيون. بالقرب من الخيام. يعلقون الذبيحة على عمود ويسلخون جلدها. أو يفرغونها من الأمعاء والأحشاء. عند باب الخيمة تماماً. ثم تقطيع اللحوم لأكلها. وترى الأمعاء والأحشاء والجلود في كل مكان، والجو مزدحماً بروائح الذبائح. ماذا كنا سنفعل لولا هذه الشمس التي لا تبقي على رطوبة أكثر من نصف ساعة؟ وفي كل شبر على الجبل آثار العرب والعجم. وباعة حلوى السمسم كلهم نشاط وحركة. والأرض مغطاة بقشور الموز والبرتقال، وعلب سجائر Kent، وفضلات الآدميين والحيوانات، وأعواد الحسك المحترقة ونصف المحترقة. ضربوا خياماً حتى على مرتفعات أطراف صحراء عرفات. خيام خصوصية طبعاً. لأولئك المتحررين من ربقة المطوفين. عوائل معظمها من أهل البلاد. في كل هذه الصحراء وأطرافها لا يخلو مكان من الخيام، إلاّ جبل الرحمة. المنفصل عن قوس الجبل الأصلي. حدبة من صخور نتأت على ظهر البيداء. وعلى رأسها مئذنة سميكة دميمة. وسلم عريض منحوت على سفحه الشرقي. من آثار جمال الدين جواد، وزير أتابك الزنجي. والناس تتسلقه كالنمل والجراد، يرتلون الأدعية، ويقرؤون القرآن. وقوفاً تحت الشمس في الغالب. وبعضهم يحملون مظلات حتى الآن، وقد جاوزت الحادية عشرة،

يلوح ازدحامهم وضجيجهم من بعيد. ويلوح السراب في جانب آخر. منظره ذو خطوط حرارية متداخلة ترتقي إلى السماء.

ويا للشحاذين! نساء وأطفال، وشيب وشبان. وليسوا عمياناً ولا مشلولين ولا معاقين كلهم، بل وأصحاء ايضاً. خلال ساعة من التجوال، سرحت كل ما كان معي من المسكوكات. شاهدت امرأة توزع عملات من فئة ريال واحد. أحاط بها الفقراء حتى تمسحوا بإحرامها. وفي مكان آخر، راح أحدهم يصنع «الشامية» ويبيعها. يصنعها في قدر من تنك على نيران الحسك. ويبيعها في أكياس ورقية صغيرة. كما في (13 بدر) تماماً. أثناء التجوال كنت أمر أحياناً بالقرب من مطابخ مؤقتة. قدور الرز والحساء والمرق تحرك الشهية. ودخانها يذكر بأسحار رمضان. رجل ضخم أسود، جعل من مرغاة صغيرة (چفچير) مظلةً يدافع بها عن وجهه ورأسه من أشعة الشمس، وهو يمشي بسرعة. ورجل عربي انحنى وقبّل يد امرأة ترتدي السواد. مدتها من نافذة سيارة فاخرة غاصة وسط جموع الناس، ولا يمكنها السير حتى ببطء. أظنهم كانوا سوريين. يقلدون حركات البرجوازيين الفرنسيين، وسط صحراء عرفة! وقبل نصف ساعة جاؤوا تحت خيمتنا والتقطوا صوراً. صورة جماعية، بعد انتهاء مجلس التعزية. وكان رئيس قافلتنا واقفاً في الوسط وكذلك معممونا ووعاظنا كانوا منتفخين منتصبين بكل انتظام. إطفاء السجائر في الرمال كما على سواحل البحار.

تصاعدت حرارة الجو بشكل عنيف. أزحت الأزار عن كتفي، ووضعت عليهما إزاراً احتياطياً من قماش خام. البارحة كان يضيء في هذه الصحراء ما يزيد ربما على خمسمئة ألف مصباح نفطي. لا كهرباء إلا في بنايات رسمية بعدد الأصابع، بعضها مراكز صحية، وبعضها مساجد. الشوارع الأربعة الرئيسة مبلطة. زهاء أربعة كيلومترات. والبقية طرق ترابية؛ أي رملية.

الظاهر أن الخروج بعد الظهر من تحت الخيام مجازفة جد خطيرة. نويت أن أقرأ هنا ختمة كاملة من القرآن. وأنا الآن في أواخر سورة البقرة. ورحت أسجل مشكلاتي على طرف صفحة من القرآن، فوجدت الأعزاء لا يطيقون هذه التجاوزات. لا بد أن أُعرض عن هذا. ينبغي رعاية بعض الحدود في كل الأحوال.

الأربعاء، 22 نيسان 1964 (عيد الأضحى)

منى

غادر الناس في الساعة الرابعة عصر الأمس. المشاة، والبدو، والشطار، وخفيفو المتاع، سبقوا غيرهم إلى منى. ومكثنا نحن إلى التاسعة، تناولنا عشاءنا على بساط الرمال، خارج الخيام، وتحت سقف السماء، بينما كانت أمتعتنا في الشاحنة. والآخرون قد برحوا المكان. وبدأت بقايا الحياة البدوية التي لم تستغرق أكثر من يوم، تجيف وتنتشر روائحها. والخيام بدت الآن بمنظر خلاب جميل، بعد أن تركها الناس، فغيّروا بوصلة اهتمامك منهم إليها. يضربون الخيام قبل يومين أو ثلاثة من مناسك عرفات، ثم تبقى يومين أو ثلاثة أيضاً إلى أن يجمعوها. تجولت فيما بينها، كأنها سفن مقلوبة، والحبال مجاديفها، وقد انكفأت على الرمال بدل الماء. بقايا هذه النزهة البدوية هي رماد الأفران، وعظام الذبائح، مرمية في كل مكان، ولا أثر لكلاب أو قطط، ولكن ماذا لو بقينا يوماً أو يومين أو أكثر؟

البارحة كانت أصعب ليلة قضيتها في هذا السفر، سارت بنا سيارة الشحن من التاسعة إلى العاشرة والنصف. ما زلنا نرتدي الإحرام، والبرد ما زال قارساً. عدنا من الطريق نفسه إلى أن وصلنا مضيقاً غاصاً بالباصات، والشاحنات، والسيارات الصغيرة. ونيران الطعام البعيدة تغمز بعيونها الظلام، والروائح

مبثوثة في الفضاء، وأصوات القطعان تطرق الأسماع، وتضج بجوار المضيق. تمددنا على أرض صخرية. وبقيت النساء في الشاحنة، والرجال على المنحدر في أول الجبل. كان لنا نحن الأربعة سجادة صغيرة، بسطناها على الأرض، واضطجعنا، وتدثرنا بالبطانيات إلى أكتافنا. خلفي شجيرة شوك. ومن الجهة الثانية تمدد خالي، ومحدث، وجواد على التوالي. ورفاق السفر عكفوا في الصمت والظلام، أو في أضواء مصابيح البطاريات، على انتقاء حصيات، يرجمون بها الشياطين غداً. أحياناً، يمر بعضهم بجوارنا صامتين، كأنهم جميعاً نائمون، ولا يسمع سوى وقع أقدامهم، وأحياناً نسمع رغاءً مخنوقاً لبعير يترنح وسط جموع البشر. وأصوات «هَي، هَي، هَي» ينادي بها الرعاة على قطعانهم. تململات الرفاق، وتقلباتهم ذات اليمين وذات الشمال، لم تنقطع إلى الصباح. والبرد لا تقوى على صده ثياب الإحرام. وسعالي وتململ وضجر الخال. والأفكار التي تقتحم خاطري، حول شروط استمرار التراث على الدرجة نفسها من الجاذبية. كنت أعلم أنه ينبغي في مثل هذه الليلةترقب الفجر، بتأمل عميق، ورؤيته بتدبر، ثم الإشراق بالأنوار، تزامناً مع إشراق الأرض بأشعة الشمس، لكنني كنت كتلك العجوز التي انتظرت الخضر أربعين يوماً، وهي تغزل في بيتها، ثم لم تعرف الخضر في اليوم الأخير. في تلك الساعات الأخيرة، كان التعب، والبرد، والأرق قد أقرفني، إلى درجة لم أرغب معها حتى بالقيام كي أرنو في ظلام الليل إلى سريرتي. «أنا»ي كانت غريبة عليَّ إلى أقصى حد. أطياف «الأنا» و«الغريب» تواشجت، واندمجت. وفي مثل هذا المضيق المظلم «المشعر الحرام» تتشابك التخوم حتى بين الآدميين والحيوانات. كنت مستلقياً، وأنا أسأل نفسي: (ألم تكن الدعوة إلى هذا بالذات؟ ثم ألم تلهج أنت بتلبية هذه الدعوة؟ وما معنى الخروج عن الذات إذن؟). وإذ ذاك طرقت شامتي رائحة طيبة، لقهوة جد معطرة. على

بعد خطوات منا عائلة بدوية، يعدون قهوتهم على نار صباحية، والرائحة المنبثة منها في الأرجاء كأنها عطور غيبية، في فضاء يرفع المرء إلى المعراج. نهض جواد. سمعته يسلم عليهم، ويسائل معهم الأحوال، بعربية منقوصة. وأصوات القهوة المغلية والفناجين، بيد أني كنت منهكاً، إلى درجة منعتني من النهوض، ومشاركتهم مائدة القهوة تلك.

جال بخاطري أن الذين نشؤوا في أحضان هذه البيئة، وتأدبوا بآدابها، لن تعوزهم الروح الشعرية في لياليها، ولا القهوة الساخنة في مطالع فجرها. إنهم لا يجددون بها قواهم فحسب، وإنما سينالك أيضاً نصيب من أريجها، أنت الذي لا يعلم إلاّ اللّهُ، لماذا جئت من أقصى الأرض إلى هنا.

اليوم نفسه، في المكان نفسه

غادرنا المشعر الحرام في الخامسة صباحاً. سرنا بالسيارة كيلومترين وإذا بالطريق مسدود من الزحام. الكيلومتران السابقان قطعناهما في ساعتين، بلا مبالغة. كان علينا أن نجتاز مضيقاً آخر. والكل متسرعون متعجلون؛ إذا توفرت مسافة متر أمام السيارة، يضغط السائق بكل أحقاده على البنزين، ثم يضغط من فوره على الكابح، ويتكدس تسعون إنساناً، يركبون الشاحنة على بعضهم، ويتزلزلون زلزالاً ما عدت أطيق رؤيته. قفزت من فوق الشاحنة، وسقطت وسط الماشين. كنت أعلم أين يقع مخيم الحجاج الشيعة. العنوان كان معي، وها أنا ذا واحداً كالآخرين. كنا نجتاز دوماً أرتال السيارات التي تُقل أكداس الحجاج الصابرين. الانتظار، الانتظار، الانتظار. انتظار أن ينفتح الطريق، ويتبدد الزحام، وتخف حرارة الشمس، وتجري المياه في الأنابيب، ويصل دورك في دورات المياه، وعلى مائدة الطعام، وألف انتظار آخر.

تغادر في هذه السفرة من «ميقات» إلى «ميقات». ومع هذا لا معنى

لـ«الوقت» فيها على الإطلاق. ليست القضية أن هذه الصعوبات المتراكمة لقضاء الحوائج اليومية، لا تترك مجالاً لعوالم الغيب والاتصال بها، إنما القضية أن مليون إنسان يحجون سنوياً إلى هذا المكان، ولو كان لهذا الموسم نظام، وتسهيلات، وآداب، وتطوير في الخدمات، لاكتسبت هذه الفريضة طاقات مضاعفة، فالمسلم المعاصر الذي لا يتقبل العربية الجاهلية، أو الجاهلية العربية، ولا يرغب أن يواصل هذه البداوة، يحتاج إلى من يغيثه ويرعاه، إذا أريد لمناسك الحج أن تستمر، ولا تُمنى بمصير الرق، الذي عفت عليه الأيام. ولكن كيف يتسنى هذا؟! أما أنا فأطالب بالحد الأقصى؛ تدويل إسلامي للديار المقدسة. كما أن الإسلام غدا إسلاماً بوصوله إلى بغداد، والري، ودمشق، والاسكندرية، وبخارى، والأندلس، واليوم أيضاً ينبغي أن يهب المسلمون من كل الأصقاع لمساعدة هذه البداوة «الممكننة».

مررتُ أولاً خلف جدار اسمنتي طويل. المجزرة، ثم تهالكت في أول مقهى على الطريق. على سجادة من حصير، وتحت مظلة من حصير. لقيمات خبز وشاي «براد». ثم تابعتُ المسير. على سفح الجبل مررت بخزان مياه غير مكتمل، ودخلت أحد الشوارع التي تخترق المخيم. الحجاج موزعون في مجاميع متداخلة، وعلامة كل واحدة منها مرفوعة بيد أميرها. يمرون وسط الخيام بطريقة هجومية، متعجلة، مذعورة، كنت أراها في سوق طهران أيام عاشوراء، حينما كنت صغيراً. والكل يلهج بالتلبية، والجميع يرتدون البياض. واليوم فقط فهمت أن البياض أيضاً لون له أنواع مختلفة. والناس يثيرون الحماس في أنفسهم، بحركات ناجمة عن خوف الضياع. شعرت وأنا أمشي أن الطريق منحدر، ونحن نصعد، ثم يبدو أن الطريق يضيق شيئاً فشيئاً. قلت في نفسي لا بد أننا نسير إلى مكان الرجم كالآخرين. قليل من البيوت السكنية على صخور كبيرة، لها جدرانها المتواضعة، وأبوابها، وشبكات

مياهها، وسكانها على السطوح يتفرجون، وربما كانوا من الحجاج؟ واصلنا مسيرنا الصاعد إلى أنْ انقطع الطريق. وظهر أن الناس كانت بلا دليل، فدخلت في زقاق مسدود، وكان الزحام والتدافع شديداً، إلى درجة أفزعتني. كنت وحدي وسط جماعة غريبة، يتكلم كل واحد منهم بلغة. لمحت أنقاض برج بابلي في زقاقنا الصخري الضيق. رفعت نفسي على أحجار الجدار، فكنت أعلى من رؤوس الناس بحوالي نصف متر. وناديت بأعلى صوتي على الحجاج الإيرانيين، الذين ربما كانوا بين الجموع، أن الزقاق مسدود، وينبغي العودة، فتعاونوا على نقل الخبر إلى آخر الجماعة. وفعلاً، بدؤوا يتناقلون الخبر. ثم بالعربية: «اوگفوا. ما بشارع». عدة مرات. وضغطتْ الجموع شيخاً إلى أحجار الجدران، ضغطة غاب بها عن الوعي. حملناه على الأيدي إلى فوق الجدار وأتى الجيران بالماء، عسى أن يفيق. الخوف من إضاعة الطريق، الخوف من المكان المجهول، والرغبة في التفرج، والحرص على الاشتراك في الأعمال والمناسك، تجعل من كل حاج تياراً جموحاً، يستولي الهياج على كل ذرات جسمه وروحه. والذهول يصيره قطرة في بحر. كل المقدمات جاهزة هنا، لكي تنسى إرادتك وشأنك. أنا بالذات انفتح إحرامي ثلاث مرات. وحين ذاك فقط تفهم لماذا يأخذ الحجاج معهم كل هذا المتاع، والهميانات، وأكياس الثلج، و... إلخ. ضاع دفتر ملاحظاتي الصغير في هذه الغمرة، ومعه قلمي الرصاص الذي كان في طياته. وحين العودة من الرجم طلبت دفتراً من الدكاكين المؤقتة فلم أجد. لكنني اشتريت قلماً رصاصاً بستة قروش.

لأكتب الآن عن «منى» نفسها. واد وسط جبال صلدة. طمي آخر بتشعباته في الوديان المجاورة. وهناك بنايات قليلة على جانبي الشارع الأصلي، ثم الدكاكين، ثم مسجد الخيف، وأخيراً الوادي. عند مضيق ينتهي إلى مكة. وآخر «الجمار»، والخيام مضروبة خلف البنايات، وعلى الشوارع.

«الجمرة الأولى» بجانب كشك شرطة المرور بالضبط. عند تقاطع شارعين، هل يكون الشيطان في متناول أيدي الناس إلى هذه الدرجة؟! كل واحدة من الجمرات هيكل من أحجار، بحجم جسم الإنسان مرة ونصفاً إلى مرتين، وقد صبغوها بالأزرق الفاتح، وجداران دائريان قصيران يحيطان بالجمرتين الأولى والوسطى. يجتمع فيهما الحصى لكيلا يسيح إلى الأطراف، ووابل الأحجار والحصى ينهمر من خطوتين إلى عشرين خطوة. إذا كنت بالقرب من الجمرات ينبغي أن تخاف على رأسك، لأنهم يرجمونها بالأحذية أيضاً، والذي يبقى من كل مناسك الحج كوثيقة لهياج الناس، هو فردات أحذية منزوعة، وفردات نعال خفيفة، من صناعة أندونيسيا. كثيراً ما تستخدم هنا لرجم الشيطان. وزيت مراق، نذراً للطم الشيطان. والطريف أشكال أعلام الدلالة، بيد الأمراء، والمطوفين، ورؤساء القوافل. أحدهم علق شرشفاً على عصا (ربما كان من أهالي قم). وآخر علق علبة كارتونية كبيرة، وآخر رفع إبريقاً نحاسياً مقلوباً على رأس عصا. وغيره لف چراوية[1] كردية على خشبة ورفعها... وهكذا دواليك. وبعضهم رفعوا أعلام البلدان، عليها أسماء، وصور رؤساء القوافل. الشارع الأصلي مزدحم، والمعابر أشد زحاماً، وعلى جانبي المعابر سيارات صغيرة، وباصات، وشاحنات (وسائل نقل الحجاج)، ضيّقت الطريق طبعاً، والذاهبون يصطدمون بالآتين، والعربات اليدوية بين جموع الماشين، تتحرك بصعوبة. ثم هنا الحمالون، والحمالون، والحمالون. وما أعسر حركتهم! حينما يقطع أحدهم الطريق، يتضاعف الزحام بشكل مرعب. وفي هذه الذروة لمحت سقيفة صغيرة، على جانب من الشارع، فوقها لوحة مضاءة، بمساحة أربعة أمتار في أربعة امتار. مُنارة في وضح النهار، لتقول (البرق، والبريد، و...). قفزت إلى الطابور، وبعثت معايدتين

(1) الچراوية غطاء الرأس.

إلى طهران. بعد ذلك وجدتني لا أقوى على شيء. التجوال، والتفرج، يحتاج هو الآخر إلى طاقة وهمّة. مجرد الذهاب والإياب إلى الجمرات أضناني بضراوة، كأني عائد من جهاد الشيطان. تجولت قليلاً ومررت ببقايا عمليات النحر، ووسط جماعات مكدسة مرصوصة، لا تخوّلك حتى أن تبصر الأرض التي تقف عليها، وفجأة تشعر أن ما تحت أقدامك ناعم لين، ربما كان جلداً أو أمعاء، أو قطعة من ذبيحة أُلقيت. وأخيراً وصلت. مررت على مهل لفترة ما بين حبال الخيام، إلى أن وصلت مكان «الصحرة». ولكن لا أثر لرئيس قافلتنا، ولا لقافلتنا. كنت متعباً إلى درجة تمددت معها تحت أول خيمة فارغة، وعلى الأرض العارية، وأظنني غفوت، لأنني شعرت فجأة أن الخيمة امتلأت بالضجيج، والرواح والمجيء. وخطوات عربية تعبر على جنازتي. كانوا قافلة لبنانية من الشيعة. أوضح لي رئيسهم أن للصحرة مخيماً آخر، في مكان غير هذا. والتجوال تارة ثانية، إلى أن وجدت جماعتنا.

الشيء الذي يتعبك أكثر من أي شيء آخر أثناء المشي وسط هذه الجموع، هو عنف السود والبدو. وكأن السود تعلموا من اليمنيين وضع مرافقهم في ظهور الناس، لفتح الطريق. ورفاق دربنا الواصلون تواً، بعد لَأيٍ وجهد ونَصَبْ، وبعد أن ضلوا الطريق، وفقد البعض أمتعتهم، انقلب كل واحد منهم إلى چنكيز خان، أو تيمورلنگ. ولا ننسى حرارة الشمس التي بلغت بقلوبهم الحناجر. والغداء لبن وخيار. ثم المسير والتضحية.

أما المسلخ فمساحة كبيرة، يحيط بها جدار، له بوابتان. أرضه محاطة بحفر كبيرة، أعدّت مسبقاً، بجوارها تلال التراب المستخرج من الحفر. بعض التلال أعلى من الجدار، ويمكن رؤيتها من الخارج. والأرض مغطاة بالذبائح. ماعز، وخراف، ونوق، ولا ترى أبقاراً. والذبائح المنحورة تواً لا تزال ترفس، والأطفال يحملون السكاكين، ويعبثون ببقايا الجثث. الأقدام تغوص دوماً

في الدماء والأحشاء. أسير وأنا رافع ذيول إحرامي. أحدهم كان يصور فيلماً، وهو يرتدي الإحرام، بكاميرا من عيار 16 ملم، ورجال من موظفي «دائرة الصحة والأمن» يحومون حوله[1]. الجميع بأيديهم سكاكين، يخوضون بها في الحيوانات المجزرة، قطعوا رأس ماعز وألقوه جانباً. جاء صبي وركز سكينه في فتحة منحر الماعز، فتشنج الحيوان بشدة، والدم يشخب من نحره. يبدو أنه متمرس، ويعرف ماذا يفعل، ليرغم الجثث على الرقص. لا أدري أين كان يغرس سكينه، فيزيد من تشنج الماعز ورفسها، على كل حال، كان يعرف ما لا أعرفه. ناقة ممدودة على الأرض، حينما وصلت إليها رفست رفستين بكل جسمها، وقضت نحبها، والدماء السائلة من جرح نحرها تعلوها رغوة. جرحها كان بطول شبر واحد، ودماؤها المسفوكة صارت على الأرض، كرغوة صابون ملون، تنفشت، واكتست لوناً بنفسجياً فاتحاً، ويا لها من ناقة! كانت واقفة، حينما أنبت الرجل خنجراً في نتوء صدرها، بجوار منبت العنق، وفتح جرحاً بطول شبر، من الأسفل إلى الأعلى، وما إن أراد الحيوان أن يلتفت حتى لقّاه لكمة على بوزه. جعر الحيوان، وأراد الهروب، لكن أقدامه كانت مربوطة، فوقع أرضاً. وأراد القيام، لكن الدم شخب من صدره، فلم يقدر. واستسلم شيئاً فشيئاً. التصق عنقه شيئاً فشيئاً إلى أن مس رأسه الأرض. وانقطع شخيره الذي استمر دقيقة. وحينما وصلت عنده رفس رفستين، وأسلم الروح. أبشع وجوه هذه البداوة الممكننة. مرتين أو ثلاثاً كادت قواي تخونني. تذكرت المرة الأولى التي زرت فيها صالة التشريح بكلية الطب. ربطت على قلبي بحماقة الصبيان، وسوغت هذه المذبحة بأنها كانت للحيلولة دون ذبح الآدميين. لنعد إلى تضحية إبراهيم، هذه يمكن تسويغها

(1) وسمعت أن فريقاً أندونيسياً صور هذا العام فيلمًا لمراسم الحج، وكان ثمة فريق فرنسي، وقد بث التلفزيون الفرنسي الفيلم، وشاهده شقيق زوجتي في باريس، وحدّثَنا عنه.

على كل حال، لكن وضع المسلخ فضيحة حقاً، ورؤيته دقيقة واحدة خير دعاية للانضمام إلى النباتيين، لو وضعوا لقطة واحدة من هذا المسلخ في ذلك الفيلم «الدنيا الدنية» Mondo Cane لنجحوا أبهر نجاح.

كل الشوارع المفضية إلى المسلخ، مغطاة بأجزاء من الذبائح. قطع اللحم الممكنة الأكل تؤخذ فوراً، ويترك الباقي. خصوصاً رؤوس الماعز والخراف، التي تسحقها عجلات السيارات. وحفار قبور كل هذه القرابين الضائعة هدراً، بلدوزر أحمر، يصنع حفراً كبيرة بلا انقطاع. هنا وهناك على أرض المسلخ، وما إن تمتلئ حفرة حتى تفغر الأخرى فمها، وهكذا يذهب هذا الكم العظيم من الأضاحي هدراً. ما الضير لو أعدوا عشر شاحنات ذات ثلاجات، لينقلوا كل هذه الذبائح خلال ساعة إلى جدة (المسافة بين منى وجدة أقل من مئة كيلو متر)، ثم ينقلوها إلى متن سفينة، بحمولة ألفين أو ثلاثة آلاف طن ويقومون هناك بتمليحها، وطبخها، وتعليبها، وتجميدها، وهي في طريقها هدية إلى فقراء العالم؟! وما هي مهمة هذا الأسد والشمس الأحمرين[1]، والهلال الأحمر؟ ألا يبصرون هذا الإسراف الوحشي؟! والحال أن ثلثي الناس في دهرنا لا يأكلون اللحم مرة واحدة في العام. لماذا لا يعلّبون هذه اللحوم، ويمهرون المعلبات بعلامة مسلخ منى، ويبعثونها تبركاً إلى مرضى العالم الإسلامي؟ أو للمرضى الذين يقضون نحبهم، بسبب سوء التغذية...؟ دعني من هذا الآن.

كثرة مشاغل السعوديين لا تسمح لهم بالاهتمام بهذه الأمور. علاج كل هذه المسائل تدويل إسلامي للحج. وإذا جاز لنا أن نقتبس بخل الأجانب وماديتهم، وجب القول إن عائدات بيع هذه اللحوم وحدها تفي بتكاليف

(1) الأسد والشمس شعار الشاهنشاهية في إيران.

إدارة مكة والمدينة. مليون حاج قدموا قرابينهم في هذه المراسم[1]، ولكل واحد منهم ضحية واحدة على الأقل. ولنفترض انهم قدموا جميعاً خرافاً أو ماعزاً من أضعف الأنواع، فيكون وزن كل ذبيحة عشرين إلى أربعين كيلوغراماً من اللحم، ولنسقط النوق من الحساب. النتيجة زهاء عشرين ألف طن من اللحم... فضلاً عن جلودها، وأمعائها، و... ويا لها من ثروة!! بينما هي الآن يعلوها التراب، وتتعفن، وتولّد شتى الأمراض.

ثم من أين تأتي هذه القرابين؟ سمعت أن غالبيتها يؤتى بها من السودان، والحبشة، وبعضها من اليمن، وسوريا، والعراق. وهل يمكن تربية المواشي خصيصاً للتضحية؟ بعدد حجاج كل بلد؟ وأيضاً قياساً إلى سهولة الحمل والنقل؟ وبذلك تعود ثروات البلدان الإسلامية إلى جيوبها؟ وكما ترون، فالقضايا كثيرة... دعني من هذا.

أرض المسلخ والشوارع المحيطة به ملغمة من الدماء، والأمعاء والأحشاء، واللحوم، والعظام، والأتربة. عناصر جعلت الأرض وحلاً، وقذارة. لا تقع عينك على إنسان هناك إلا وفي يده سكين. إما أنه يسعى لرزقه بنحر المواشي، أو أنه يقتطع من اللحوم، وليأكل منها خلال عامه، وبعضهم يحملون ذبائح

---

(1) نقلت صحيفة «المدينة» بتاريخ 16 ذي الحجة 1383 أن (مجموع الحجاج بلغ 800 ألف حاج، منهم 266550 أجانب غير سعوديين، والبقية سعوديون. ويأتي الباكستانيون بالمرتبة الأولى بين الأجانب: 26093 حاجاً. ثم تركيا 22381 حاجاً، ثم الهند 21416 حاجاً، ثم إيران 20501 حاج. تليها مصر 17743 حاجاً، بعدها سوريا 16937 حاجاً، ثم أندونيسيا 15207 حجاج، يأتي بعدها السودان 14445 حاجاً، يليه العراق 13889 حاجاً، ثم اليمن 12322 حاجاً، بعده الجزائر 8301 حاج، ثم الفلسطينيون المهاجرون 6339 حاجاً، يليهم المغاربة 6809 حجاج، بعدهم الأردنيون 6359 حاجاً، ثم الماليزيون 5229 حاجاً، بعدهم الأفغانيون 3177 حاجاً، ثم التايلنديون 1790 حاجاً، فالفلبينيون 1423 حاجاً، ثم الغانيون 913 حاجاً...) وإلى آخره.

بكاملها على عواتقهم. حتى من دون سلخها. سمعت أن الحكومة السعودية تأخذ الجلود والأمعاء، لكنني رأيتهم ينحرون، ويقتطع المضحي كل ما يريد من الضحية وجلدها، ويترك كل ما يريد. شخصان أرادا إخراج ذبيحة بيضاء من باب المسلخ، فمنعتهما الشرطة، وقالوا لهما عليكما سلخ جلدها، والخروج باللحم فقط.

ثلاثة سود، رجل، وامرأة، وطفل انهالوا على بعير، يسلخون لحمه الأحمر عن العظام، وبدت عظام صدر الحيوان غليظة بيضاء. وفي مكان آخر شاب بيده سكين من قاع قفص صدري لبعير، بطريقة أذهلتني، بل أرعبتني. قطعان الخراف والماعز الواقفة، تنتظر دورها وسط الوحول، وترى أحياناً قامات الإبل الفارعة. الماعز تجتر، والخراف ناعسة. الماعز فقط فطنت إلى مصيرها، فراحت ترغو وتضج، والشرطة عند بوابة المسلخ لا يسمحون بدخول قطعان جديدة، إلى أن تنحر القطعان الموجودة.

لاحظت أن هذه التضحية العظيمة تشفي غليل بعض المشاعر لدى الإنسان البدائي. من هذه المشاعر ما ذكرناه من التضحية بالحيوان بدل الإنسان. الكبش بدل إسماعيل. اذبح حيواناً عسى أن تكف عن ذبح الآدميين. ثم إنها خير تمرين للطعن بالسكاكين، لسفك الدماء، ورؤية انهمارها. الرجال، والنساء، والأطفال يمسكون السكاكين بأيديهم، ويخوضون في أجساد الحيوانات، كما يشتهون، بقصد توفير الطعام، أو لمجرد التسلية. رأيت عدة مرات أناساً يطعنون بقايا الذبائح، لمجرد التسلية، وشرر الغبطة والرضا يبرق من أعينهم، كأنهم جميعاً يدرسون علم التشريح، أو أنهم يقومون بعمل بطولي نادر.

وأخيراً فإن هذا نوع من أنواع الرياضة. سلخ الجلود، وتقصيرها، أو تطويلها، ومكابدتها، و... إلخ، فالحج لا يحتوي رياضة أخرى، غير المشي،

ورمي الجمرات. وهذه رحلة بداوة تحتاج إلى ثلاث رياضات على الأقل. والنحر هو الرياضة الثالثة.

في كل منى، ربما لا يتجاوز عدد الأشجار عشراً إلى عشرين، والباقي وادٍ، وأحجار، وجبال محيطة. وتحت السواد الظاهري للأحجار المحترقة يلوح الجبل أبيض، بشيء من الخضرة أو الزرقة. وماء زبيدة نعمة عظيمة هنا حقاً. منذ سنين وهم ينقلون النفط من الظهران إلى سوريا بالأنابيب، لكنهم منذ ألف عام لم يستطيعوا مد أنابيب مياه لمناسك الحج! ويبدو أنهم أجروا بعض التغييرات في مجرى الماء القديم، حتى علقوا على كل أنبوب لوحة تقول «سبيل الملك» أو «زبيدة، العزيزية، السعودية».

أما على صعيد الكهرباء، فمنى مكهربة، وقد مدوا الأسلاك والإضاءة حتى تحت الخيام. جاؤوا عصراً بسلك ومصباح كهربائي، وعلقوه على عمود خيمتنا، وهو الآن يضيء لنا إضاءة جيدة. يضربون الخيام بحيث يكون امتدادها بين الشرق والغرب لكيلا تدخلها أشعة الشمس. زوجاً، زوجاً في الغالب. طرق سمعي أن الأمم المتحدة أخذت على عاتقها توفير ماء وكهرباء الحج، ولكن ما من أثر لمثل هذه التطورات إطلاقاً. فالفقراء الذين يتعيشون على الحج وتطفلاً على الحجاج، وحمالة المراسم كذلك، تعود بمنافع على الأجهزة التقليدية السعودية، وتسند الحكومة إسناداً، لا أظن معه أنهم يسمحون قريباً بتغيير السائد. واضح أن مناسك الحج ستبقى سنوات طوالاً بعد الآن، لأنها زيارة، وسياحة، وتجارة، وتسلية وتجارب لكل قروي نهض من عند حقوله، وأبقاره، ولم يجد غير هذه فرصة للسياحة والتجربة والسفر. ولكن إذا جعلنا هذا الحج في مستوى إنسان القرن العشرين، بل في مستوى إنسان القرن الرابع عشر، يمكن التفاؤل بأنه سيكون مرحلة وتجربة في حياة أبناء الأمم المسلمة، وإلا فالحج الحالي بداوة آلية، ممكننة... ويكفي هذا. يدي بدأت تؤلمني.

الخميس، 23 نيسان 1964

منى

نسيت أن أكتب أنهم أطلقوا المدافع يوم عيد الاضحى (أمس) صباحاً في منى (وسمعناها في المشعر الحرام) وعند الظهيرة بدل الأذان. ثلاثة مدافع، تشير إلى أنه عيد الأضحى. الحكومة السعودية تضع على أرضية علمها الأخضر سيفاً وكلمة (لا إله إلا اللّه). ومع ذلك تعلن عن العيد بإطلاق قذائف مدفعية. بقيت حائراً في معنى هذا؟ تضعون سيفاً تحت كلمة (لا إله إلا اللّه)، فهل تريدون القول إن الإسلام انتشر بالسيف؟ وهي فكرة أدخلها الأجانب في عقولكم، ثم ما هو دوركم في هذا الإسلام الذي انتشر بالسيف؟!

أمس صباحاً طفح الكيل بالحاج بائوچ، على الرغم من كل اعتزاله وركونه للصمت. تشاجر مع رئيس قافلتنا، وأسمعه ما كان جديراً به. كلامه لا يفهم للأسف. وأذاع جل السباب والشتائم باللهجة المازندرانية، فلم أفهم منها شيئاً، لكنه صفى حسابه مع الرئيس، والمازندرانيون في مجموعتنا تنفسوا الصعداء جميعاً. المؤاخذات كانت، لماذا كل هذا البخل والتقتير؟ ولماذا أعدت الرائد المسكين؟ والسرقات في مجموعتنا ولماذا تمتص الناس ولا تعطيهم شيئاً؟ وكثرة التعازي قد خنقتنا، و... إلى آخر القضايا. وهذه الأزمة كانت الفاصل بين صلاة الصبح ومائدة الفطور، وقد أبدى رئيس القافلة تنازلات كثيرة، لأن عليه في ختام مراسيم منى أن يجمع من جماعته رشاوى لعمال القافلة، وبعد الفطور، سار بعض المازندرانيين إلى المسلخ، وحينما عادوا كان في يد كل واحد منهم قطعة لحم. أو فخذ كامل سمين. لم أر مثل هذا اللحم المكتنز، منذ أن انطلقنا من طهران وإلى اليوم. وشدني الشوق إلى الشواء، حتى أنا العاطل عن الأكل، وكان الجماعة يعدون أسباب الكباب،

إذ تعالت تحذيرات وتنديدات رئيس القافلة، وساعده بعض كسبة السوق، أنه لا يمكن أكل اللحم، ونحن غير مسؤولين عمّا يسببه لكم من أوجاع، و... إلخ. والمازندرانيون يردون على الهجمات؛ ولكن من المستحب الأكل من لحوم الأضاحي، و... إلخ.

ثم سمعت منهم أنهم ذهبوا خفية إلى زاوية ما، وأعدوا أسياخاً وفحماً، وأراحوا بطونهم، وسددوا ديونها.

الطريف أن أغلب القرويين والمازندرانيين في مجموعتنا ذبحوا قرابينهم بأيديهم؛ تشاركوا في شراء سكين حادة، ونحروا القرابين واحداً تلو الثاني. ويا لها من لحوم! حينما يتحدثون عنها يذوب القلب شوقاً إليها، لكن نظام قافلتنا يقضي التقليل من اللحوم، والإكثار من اللبن السائل والرائب.

روت شقيقتي وزوجها بعدما عادا من رمي الجمرات، أن عمالاً سعوديين كانوا يجمعون اللحوم، والجلود، والأحشاء المرمية في الشوارع. وكانوا يعقّمون الأرض بمضخات يدوية، فقد كانت الأرض بالأمس، متدثرة حقاً بغطاء من اللحوم والجثث. خصوصاً على الطريق بين بوابة المسلخ إلى مخيم الحجاج. والنيجيريون ضاربون خيامهم على جانبيه. جلست عصر أمس في دكان حلاق أسود ليحلق رأسي بالموسى، مقابل ريالين. كان زنجياً، ويقول إنه من الطائف. يحلق رؤوس الحجاج منذ ثلاثين سنة، ويعدها مفخرة عظيمة، يتباهى بها... طويل القامة، غير منتظم الخلقة كغلمان العصر الحجري «العصملّي». وموسه عريض، وكليل جداً كسكاكين نجف آباد[1] عندنا.

لم أخرج من الخيمة لحد الآن. اشتدت حرارة الجو، وتفاقم السعال

(1) مدينة وسط إيران.

عليّ، والمناظر ليست جذابة. نساء القافلة المجاورة وهن إيرانيات على ملاءاتهن علامة خضراء، في شكل ورقة شجر، خِطنها فوق جباههن، ورئيس قافلتنا صنع مهراً كالطغراء باسمه ورسمه، يضربه على ملاءات النساء، خلف رؤوسهن، وما أتعس منظره! ومع ذلك يضيع في اليوم الواحد خمسة أشخاص أو ستة. وصاحبنا القروي لابس الجلود، لم يخلعها عنه لحد الآن. لابد أنه خاط أمواله في بطانتها، لكنه يقسم بكل المقدسات أنه يرتدي الجلد بسبب أوجاع ظهره... ولكن من ذا يصدقه؟ والطريف اليوم هو رؤوس الحجاج الحليقة، كأنها الرقي، ويالسعادة القرعان، وهم يرون الناس مثلهم! وبدت الجماجم بأنواعها وأشكالها المختلفة، المثلثة، والبطيخية، والدائرية، والمائلة... وأطرفها جماجم المازندرانيين، التي تشبه جماجم القزوينيين جداً. مائلة من الخلف. وأنا أنزع قلنسوتي بصعوبة، لأن الشعر كالإبر في قماشها.

وهناك أيضاً الباعة المتجولون، يدخلون تحت الخيام جماعات، جماعات. والشحاذون، الشحاذون، الشحاذون، بمختلف صنوفهم. لا طاقة لي على كتابة الصنوف واحداً، واحداً، لكن أحدهم كان طريفاً، زنجياً عربياً، بيده عريضة بالعربية، تفيد أنه يستحق الخمس والزكاة، في آن واحد، وفي خاتمتها مهر وإمضاء المفتي العربي الفلاني. بعضهم ينتعلون شيئاً، والبعض حفاة. والحفاة أقذر من غير الحفاة، والعكس صحيح أيضاً.

وباعة الثلج، وباعة السجائر، والبرتقال، والشحاذون، وباعة ألعاب الأطفال، والشحاذون، الشحاذون، الشحاذون، والكل ينادي «في سبيل اللّه».

أما المراحيض هنا ففضيحة، منخفض إسمنتي، له خمس بالوعات. تفصل بين الواحدة والواحدة صفائح، والأبواب خشبية محلحلة، وتقف عليها الطوابير ليل نهار، ويا للرائحة المنتشرة منها. خمسة مراحيض لخمس مجاميع، في كل واحدة مائة إنسان!

اليوم نفسه

منى

لم أخرج من الخيمة حتى الخامسة عصراً، لشدة الحر. نمت ساعتين عند الصباح، ونمت وقت الظهيرة أيضاً، ليست صحتي على مايرام. جاءني شقيق جواد بقنينة «سولوكامفر» لسعالي، استعملتها فخف السعال، وقضيت الوقت كله في قراءة رحلة فرهاد ميرزا، أو تسجيل بعض المذكرات، أو متفرجاً على الشحاذين والباعة.

ثم أقيم مجلس عزاء من جديد، بدأ نوّاحنا أولاً (أكتب الآن، وصالحي على المنبر يختتم خطبته بالأدعية). ثم جاء باكستاني وأخذ مكبرة الصوت، وراح يقرأ تعزيته بالأردية. لم أسمع بمثل هذا من قبل. ولكي يبرهن أنه شيعي أصيل، وليس نصّاباً، شرع بأداء الشهادتين ثم عدد أسماء الأئمة الاثني عشر، وهذا هو الشيء الوحيد الذي فهمه الجميع من فرس، وترك، وعرب، أما الباقي، فـ...؟ وقام جواد يجمع له النقود، وبدأ تململ المازندرانيين، لكن جواداً لم يبال لشيء. أخبرنا أنه جمع له 42 ريالاً سعودياً.

في الوقت الذي كان فيه الباكستاني يقرأ تعزيته، كانت مجموعة من الشباب اللبناني في الخيمة المجاورة يلعبون الورق، على رؤوس الأشهاد، بلا أي شعور بالعيب أو القبح. وفي الخيمة التي على اليمين، والتي يعلق نساؤها علامات خضراء على ملاءاتهن، أقيم مجلس لطم في المساء، وحسين، حسين، حسين، ويا للحماس! والخيام تتبادل سكانها، وأكواب الشاي، و... إلخ. وفي تلك الأثناء تعالى صوت الموسيقى من مذياع اللبنانيين، الذين يلعبون الورق. كانت أطراف خيمتهم مرفوعة، ونهضت امرأة من أطراف مجلسنا (قالت شقيقتي إنها كربلائية) فراحت

تأمرهم بالمعروف، وتنهاهم عن المنكر، عبر فتحة في خيمتنا، تطل على خيمتهم، بالعربية طبعاً. ويا لها من لغة مناسبة جداً للأمر والنهي هذه العربية! وبعد أن سكتت موسيقاهم، جاء شبابهم ليتفرجوا على مجلس تعزيتنا، ثم مراسم اللطم في الخيمة المجاورة.

أضيف شعر الرؤوس إلى كل فضلات هذا المخيم العظيم عصر الأمس. والغريب أنك لا ترى كثيراً من الذباب. ربما من شدة الحر أثناء النهار، ومن شدة البرد آناء الليل، ولكن أتذكر في المسلخ أن ذبابة حامت على قدمي، ولم تتركها. وحينما خرجت عصراً شاهدت العديد من العربات وأدوات النظافة تتجول. يدوية، وآلية، و... إلخ، لكن الجثث لا تزال تحت الأقدام.

السيّئ هو أن الحجاج أنفسهم لا قابلية فيهم للنظام، نحروا الأضاحي أينما اتفق. في وسط الطريق، عند تقاطع الطرق، تحت الخيام، في السواقي، على حواف الشوارع... وهكذا.

حينما كنت نائماً بعد الظهر، كان الجو حاراً إلى درجة ذكرتني بصيف العراق، سنة 1943. كأننا لا خيمة فوق رؤوسنا تحجبنا عن أشعة الشمس. الرياح ساكنة، وجانب الجسم الذي إلى الأعلى كأنه تحت قصف الشمس مباشرة، تتصاعد حرارته إلى حد الاحتراق، كالكف التي تمسكها عند فتحة تنور، ورغم كل هذا لا يزال الحاج الهمداني يرتدي معطفه الجلدي.

إن دخان الكباب أخذ يتصاعد، منذ عصر اليوم الماضي. وعصر اليوم، قضيت نصف ساعة على جبل أعلى مسجد الخيف أطل منه على وادي منى، ورأيت الدخان يتصاعد إلى الهواء من كل مكان في المخيم. من طباخات القوافل الدائمة، ومن نيران الكباب المؤقتة.

وترى الآن بدل الذبائح المطروحة على الأرض، أكوام العظام، واللحوم

نصف الممضوغة في كل مكان. كتف ناقة مطروح في مكان ما، وقد بان بياضه الناصع من بين أجزاء اللحم الأحمر المتبقية عليه. ما أنسبه للكتابة! كاللوح تماماً. عريض، وكبير، وله مقبض. عددت البنايات الكبيرة من فوق الجبل: «وزارة الحج والأوقاف»، و«مسجد الخيف»، و«الأمن العام»، و«أمن العاصمة»، وبناية «إرشاد الحجاج». وربما كانت هناك بناية أخرى للملك، مع أني لم أرها. وهناك مركز الشرطة أيضاً. وفوق كل واحدة من البنايات لوحة مضاءة تعرفك الحماقات حتى من فوق الجبل. وكل إعلان لتوجيه الحجاج مكتوب بخمس لغات أو ست: العربية، والتركية، والأردية، والأندونيسية، والفارسية، والإنكليزية. وثمة في الوادي قرابة عشرة مكاتب للبرق والبريد، وعشرة مرافق عامة، كتبوا اسمها بالأردية «پاي خانه» على غرار «چاي خانه»، وكانت مبنية بناء أنيقاً، حتى ظننتها للوهلة الأولى «چاي خانه» فعلاً. لكن الروائح أرشدتني إلى الصواب.

عند باب دائرة إرشاد الحجاج، وفيها مطبخ، وخيام، وغرف للسكن، وقف حوالي اثني عشر خفيراً بأعلام البلدان المختلفة، والكشافة السعوديون بسراويل قصيرة، وخرائط في الأيدي، وصفارات في العنق، يساعدون الحجاج الضائعين على الوصول لخيامهم. سألت أحدهم من أين يمكن شراء الخرائط؟ أجاب أنها لا تباع، إنما أعطتنا إياها وزارة الحج والأوقاف. ألقيت نظرة عليها، كانت خارطة تفصيلية جيدة، ربما بمقياس 5000/1، وأشارات إلى كل الوديان، والمرتفعات، والشوارع، وأرقام القطاعات، وأماكن الخيام الإيرانية، والعراقية، والسورية، والمصرية، بل وحتى أرقام الخيام. وهذه علامة أخرى للنظام، ولكن كقطرة في البحر.

والطريف أمر هؤلاء الباكستانيين الذين يتكلفون الصعاب، ليكون لهم شأن بين الشعوب الإسلامية، كالغريب الداخل على جماعة من الغجر، ويريد

أن يحتل مكاناً بينهم. يوزعون «ماء السبيل» على عدد الدقائق، وبصهاريج كبيرة، وعلى كل صهريج ألف علامة وإعلان. ومركزهم الصحي مميز هو الآخر (لكني لم أدخله). والأكثر تميزاً منه هو لوحته وإعلانه.

حينما كنت أتنقل فوق الجبل، رأيت على جانب من الوادي، وفي شق الجبل، وادياً آخر صغيراً جداً، وفيه مقبرة، وجماعة متكاثفة هناك، نزلت إلى المقبرة. رجل مسن من الأتراك قضى نحبه، وجماعته تدفنه الآن. قرأت الفاتحة، وأومأت برأسي للواقفين بالعزاء، وطول السلامة. القبور معدة سلفاً حُفرت في التراب، وصُبت لحودها من إسمنت. وإحصاءات الوفيات في اليومين أو الثلاثة الماضية سبعة أشخاص، نقلاً عن أحد عمال الجنائز.

أما عمال قافلتنا فقد جمعنا لهم الليلة 1300 تومان، بعنوان عيدية، أو بقشيش آخر المراسم. أعطى جواد أربعين ريالاً سعودياً، بالنيابة عنا نحن الأربعة، أفلا يأخذون من النساء؟ أم إن شقيقتي وحدها لم تعطهم شيئاً؟ لم أعرف.

على الجانب الجنوبي لوادي منى (رأيت ذلك من فوق الجبل الفاصل) ثمة واد آخر، يشبه الأول، مع فروق طفيفة في تقطعات الجبل. أرض الوادي بيضاء، والجبال سوداء. الصخور الغرانيتية الضخمة متسلقة على بعضها، كأنها مرصوفة بشكل اصطناعي. وطريق في وسط الوادي، حوله بعض الأبنية والتأسيسات، منها بناية كبيرة، تشبه ثكنة عسكرية. جال ببالي أن هذه منى احتياطية، لو اتسخت الأولى وضاق فيها المكان، يمكن نصب خيام في هذه الثانية. الفاصل بينهما جبل، ولا بد طبعاً من نفق في الجبل لرمي الجمرات.

الطائر الوحيد الذي رأيته في منى وعرفات، كان فوق الجبل، عصفور صغير، أسود الجناحين، رمادي الجسد، يتنقل بين الأشواك، ويبدو أن ما ظننته إلى الآن عاقولاً، إنما هو شجيرات أم غيلان صغيرة.

جلست في مكان مرتفع للاستراحة. ورحت أدخن سيجارة، إذ وفد ثلاثة من العرب، والسلام عليكم، وعليكم السلام، وكانوا يمنيين. الشمس تنحدر نحو المغيب خلفنا، وأمامنا أرض الوادي، تحيط به الجبال. المصابيح تنار واحداً تلو الآخر. قال الثلاثة إنهم مهتمون بالسياسة، ومن أنصار «الإمام البدر» ومعارضون لعبد الناصر، ومؤيدون للسعوديين. أحدهم، وكان الناطق باسم الآخرين، قال إنهم قوات مسلحة للإمام، ولكن كلما سألتهم أين الإمام؟ وأين خطوط جبهتهم؟ لم يكونوا يفهمون ما الخرائط، بل كانوا أميين أساساً. ولم ينفع معهم أني رسمت خرائط على الصخور، لعلهم يشيرون إلى شيء. أو أنهم تظاهروا بعدم فهم ما أقول، كتماً للأسرار. قالوا إنهم سيعودون بعد ثلاثة أيام إلى «تعز». وتبين أنهم ليسوا من الزيدية، بل من الشافعيين. يظهر أن اليمنيين أفقر حجاج العالم، مظاهرهم رثة، وأجسادهم جد نحيفة من سوء التغذية، وهم أصحاب الموائد هذه الأيام في أطراف المسلخ.

حينما نزلت من الجبل، مررت عند كل شبر بأمتعة للحجاج، وضعوها في ظلال الأحجار، خوفاً عليها من الشمس. وبدأت تلوح الآن على ضوء القمر، والأنوار المضاءة في الوادي. عثرت في طريقي على ساعة يدوية فوق حجارة، نسيها صاحبها هنا. انحنيت لا إرادياً وأخذتها، ومشيت خطوتين ثم تذكرت، أين أنا؟ ومن أنا؟ عدت وأرجعتها إلى مكانها.

ثم إني أدركت الليلة، لماذا يتخذون الشهر القمري ملاكاً للأعمال هنا، دون الأشهر الشمسية. أقصد في كل هذه النواحي من بابل القديمة، إلى مصر، فالأشهر الشمسية لا يمكن أن يكون لها معنى هنا. الشتاء كالخريف، وكلاهما كالصيف. وهكذا من المناسب اعتماد الأشهر القمرية. والليالي الصافية الباردة، تشجع على ذلك. ولهذا تقام المراسم الدينية في النصف الأول من الشهر عادة؛ 10 ذي الحجة، 18 ذي الحجة، 15 شعبان، الثالث من

رجب، العاشر من المحرم... وإلى آخره. أي أن المناسبات الدينية، والأعياد، والمآتم تتخذ غالباً حينما يكون القمر عالياً ممتلئاً، أو أنه في طريقه إلى الرفعة، حتى تكون الصحراء مضاءة في الأماسي الباردة، فيتسنى بذلك أداء الطقوس والمناسك.

الكهرباء في منى ذابلة، ولا تغطي الحاجة، لكثرة الأضواء والمصابيح على أبواب البنايات الحكومية، وفوق قممها. ولكن من الواضح أن وضع البنايات، والكهرباء، والماء يتحسن عاماً بعد عام. وواضح أن الحياة متواصلة في منى بعد انتهاء موسم الحج، فهي في غير أيام الحج منطقة مأهولة في مستوى قصبة.

إن النواحين والوعاظ الإيرانيين وكل المجاميع الإيرانية التي زرتها كانت على هذه الشاكلة يصرّون أيما إصرار على ذكر الإمام المنتظر، في كل مناسبة، خلال أيام الحج. وأن الإمام المهدي المنتظر يحج كل سنة، وكأنهم يريدون الإيحاء للحجاج، بأن كل رجل عادي في موسم الحج ربما كان هو الإمام المهدي، فحذار من الإساءة إلى أحد، و... إلخ.

هذه طبعاً غاية طيبة جداً، لكنك ترى أن هؤلاء الحجاج رغم غناهم (استطاعتهم) قانعون، ترابيون بشكل عجيب، أي أنهم ليسوا استهلاكيين، لكنهم على كل حال زبائن مميزون للصناعات الغربية، كل ما يستهلكونه في الموسم إما غربي أو ياباني. الأضاحي فقط ليست من صنع الشركات الأجنبية. وهم يهدرونها على النحو الذي ذكرت. لو ألقينا نظرة من زاوية غربية، وقلنا إن «الحضارة» هي «الاستهلاك» أو «الحاجات المتزايدة دوماً»، فهؤلاء الحجاج متخلفون جداً، وهم في طريقهم إلى التنمية. ولكن متى ينمون؟ لا شك هذا سيحدث حينما يستهلكون البضائع الغربية، أكثر، فأكثر!

والقضية تكمن هنا تحديداً، أي لا بد من كسر هذا الطوق المغلق (ذهاب المواد الخام، وعودتها مصنعةً، ثم استهلاكها. والمستهلك يحتاج أموالاً، وقدرات شرائية، فمن أين تتوفر هذه الأموال؟ من تصدير المواد الخام. وهكذا دواليك). ينبغي إيجاد ثغرة في هذا السور المنيع. غاندي مثلاً أعطى الهنود أدوات غزل ينتجون بها، ومصدق أغلق أنابيب النفط... دعونا من هذا الآن.

يروي مدير مطبعة في القافلة المجاورة، أنه شاهد زنجياً سودانياً تأخذه الشرطة إلى السجن، مكبلاً بالأغلال، وهو يبكي، ويستغيث، ربما سرق شيئاً.

يقول جواد إن الحجاج الإيرانيين لم يصابوا بخسائر لحد الآن. ثم إن روائح الجيف بدأت تنتشر من الآن (الساعة العاشرة والنصف مساء). الرياح صامتة، والجو حار، والقمر عال، ونتن الذبائح، والأحشاء المسحوقة تحت الأقدام، تختلط روائحه بروائح المرافق. إذا خرج الحجاج من هذه سالمين فقد سلموا.

الجمعة، 24 نيسان 64

لا نزال في منى

أيقظونا اليوم في الرابعة فجراً. أيقظتني «ولا الضالين» يجرها محدث جرّاً. ها هم يصلون قبل أذان الفجر مرة أخرى. توهموا إضاءة الشوارع والبنايات في الوادي (مع أنها على جهتنا الغربية) فجراً يستوجب الصلاة. حدث هذا أكثر من مرة لحد الآن. أحدهم ينتابه الأرق، فيقوم لصلاة الليل، ويظن الآخرون أنه الفجر، فينهض الجميع ويصلون صلاة الصبح. كانوا يستعدون للنوم مرة أخرى، حينما نهضت ورحت أضجر من مغبة السفر مع عامة الناس. رشثت ماءً على وجهي، وسرت إلى مسجد الخيف، للمشاركة في

صلاة الصبح، التي لا يزال هناك نصف ساعة على فواتها. صادفت في الطريق ثلاث بنات جميلات، يمشين مع والدهن. ثلاثتهن بقامة واحدة، ومتشابهات كالتوائم. الوجوه صغيرة، ومحتويات الوجوه منتظمة مرتبة، والشفاه متجمعة دائرية، واللون حنطي، والقامات ممشوقة. بدا لي أن الحج مناسبة طيبة للتعارف والزواج. الأب كان يمشي أمام بناته. عجلت في المشي ومررت. شاهدت بعد ذلك سلتين من تفاح صغير في دكان. في مثل هذا الصباح! لا أظن أن أصحاب الدكاكين هنا يعرفون ليلهم من نهارهم. في مكة أيضاً رأيت مثل هذا التفاح، أو أظنني رأيت مثله، بحجم الطماطم غير الناضجة. ثم رائحة الحناء التي استعملها الناس. إنه العيد على كل حال، وقد انتهت مناسك الحج، وينبغي الذهاب لزيارة بيت اللّه بكل تأنق، وبكامل الخضاب، وما أكثر ما تباع الحناء في مثل هذا السفر؛ أعظم «الصوغات» من الديار المقدسة. وخلف أبواب المرافق الخشبية على مر الطريق، طوابير طويلة. يضاف إلى هذا جلوس رجال ونساء في الكثير من الزوايا، بجوار كل واحد منهم إبريق أو «كتلي». يقضون حوائجهم، ثم يتوضؤون. ليتكم علمتم بالأعمال الكبيرة التي ينجزها الأفارقة والهنود بأقل القليل من الماء! وهناك إعلان يقول «بعثة امدرمان سوداني» ربما تعني (الهيئة الصحية السودانية). وربما كانت امدرمان هي أم درمان. ومعنى هذا أن الفارسية ساحت في الأرض بصور شتى[1]. وهذا إعلان آخر فوق صنبور مياه: «منجانب پاد شاه سعود. سبيل اللّه. پايي مفت. نهر زبيده. ايرثوچوماري سبيلكن. اوليه بكندارجا سعود. عين زبيده» (كذا) العربية مختلطة بالأردية، والتركية. والطريف أنهم كتبوا هذا المعنى بالإنكليزية أيضاً. هكذا:

King soud Drinking Water Supply.

---

(1) لكن علي أكبر كسمائي نبهنا إلى أن امدرمان مدينة في السودان على ضفاف النيل مقابل الخرطوم.

وما هو هذا الذي يتباهون به؟ أنبوب ماء بطول مترين، تفرعت منه صنابير مياه، لا تخرج من أي منها قطرة ماء، جربتها واحدة واحدة. أضف إلى ذلك أنك لا تجد في ذلك الوقت من الصباح أي حنفية ماء، من دون أن يكون أمامها طابور طويل من العطاشى. وهناك صهريج ماء أمام هذه الصنابير، يتسلق الناس عليه، ويغترفون منه. بعضهم من حنفيته، والبعض من فتحته العلوية. ويتحاورون فيما بينهم بالأوردية (جيك وبيك، جيك وبيك). لا بد أن تذهب للحج لتفهم معنى «جنات تجري من تحتها الأنهار»؟ وهذا إعلان آخر: «معلم حسن شير محمد پنجابي» ولا بد أن المراد بالمعلم هو المطوّف. ثم يبدو أننا سنتخلص عصر اليوم من الحياة تحت الخيام، ونعود إلى مكة.

يوم الجمعة أيضا

مكة

كنا مستعدين للسفر اليوم، من الساعة الواحدة بعد الظهر، للعودة من منى إلى مكة. الأمتعة مجموعة ومرزومة. البعض بكروا في الانطلاق، وساروا مشياً على الأقدام، أو على متن السيارات، أما نحن فانطلقنا في الرابعة والنصف، ووصلنا في السادسة والنصف. ليس الطريق بعيداً بين منى ومكة، لكن زحام الطرق عذاب قاتل، ولا علاج له فيما يبدو، إلا بتوسعة الطريق، وهذا بحاجة إلى همة، ربما لا يتحلى بها السعوديون. الطريق كله كان باتجاه واحد، من منى إلى مكة، والمشاة يحملون أمتعتهم على عواتقهم ورؤوسهم، أو يعلقونها على أطراف عصي غليظة، يحملونها على أكتافهم، والرجال مختلطون بالنساء، والطريق غاص بالسيارات والمشاة، وبالآثار الباقيات من مخيم الحجاج في منى، وبجثث الأضاحي المنتفخة،

كأنها قرب مملوءة، وأطرافها ممدودة بتضرع إلى السماء. موزعة في كل مكان، وروائحها النتنة تتفسح في الهواء. يا لها من نِعَمٍ يبددونها هدراً! لكن الغريب أنه لا ذباب هناك، ولا كلاب، ولا غربان، ولا رخم. التفسخ وحده يملأ الفضاء. نظر خالنا إلى الجثث وقال: «فأين القطط إذن؟!».

في منى يتيقن الإنسان أن قرابين الحج في العالم الإسلامي، أسوأ قرابين الدنيا عاقبة، فالقرابين إما أن تؤكل، أو تحرق، أو تطعم للآخرين، لا أن تطعم للتراب، ويتضاعف منها نتن الدنيا بهذا الشكل، والبلدوزرات لا تزال تزأر، وتحفر الحفر الكبيرة... إلى أن خرجنا من أجواء منى الملوثة.

والطريف هم الفقراء، الذين علقوا اللحم على الحبال. يقطعون اللحم قطعاً رفيعة طويلة، قطر الواحدة منها بقطر الإصبع تقريباً، وطولها بطول الذراع، وينشرونها على الحبال، كما نصنع نحن بالفلفل الأحمر. يفعلون هذا في منى قرب المسلخ، وفي الضاحية الشرقية لمكة، حينما دخلنا كانت كل البيوت قد مدت حبال اللحوم، وترى أحياناً قطعاً من اللحم على أحجار بجوار البيوت، لغرض التجفيف. مرت شاحنتان مزدحمتان بالبدو، وقد علقوا بجانب قرب الماء أفخاذ الأغنام. ومع كل هذا عادت قطعان كبيرة من الخراف والماعز المحتضرة من منى، وكانت السبب الرئيس لزحام الطريق. إنها الناجيات من هذه التضحية غير المجدية. إن أخذ المواشي قبل يومين أو أكثر، يعني توفير علفها ليومين أو أكثر، ولكن من الذي يفكر في مثل تلك الفوضى بعلف الحيوانات وإطعامها؟ سألت رفاق سفرنا، فتبين أنهم اشتروا القرابين بعشرين ريالاً سعودياً إلى ثمانين ريالاً، وقد دفع أعلى الأثمان ذلك السيد ذو اللحية الملونة. ولا شك أن الحيوان الذي يباع بعشرين ريالاً (أي 36 توماناً) ضعيف محتضر، لم يبق منه شيء للتقرب إلى اللّه، إنه جلد وعظم بلا ريب، ولا يليق إلا بالتراب. أما أنا فاشتريت أضحية بأربعين ريالاً.

في مكان ما عند العودة، مررنا بمعبر ماء «زبيدة». ماء يجري داخل قناة مغطاة على صدر الجبل من الطائف إلى مكة. يمتد نحو أربعة كيلو مترات بمحاذاة الطريق، ثم يختفي، وله مساند حجرية طويلة، وبقرب المدينة تراءى للأنظار بيت شيد على صخرة مستقلة عن الجبل، وحول البيت حديقة من الأحجار المزروعة في الأرض اصطناعياً. كل حجر مكان شجرة باسقة. حينما دخلنا المدينة، قرأت فوق باب محل لتصليح السيارات عبارة «مستشفى السيارات». وعند باب أحد البيوت وضعوا برميلي ماء، ووقف صاحب الدار بالباب ينادي: «ماي بارد سبيل». والعابرون يقفون أحياناً ليشربوا منه الماء وينصرفوا. يتساقط الماء من أفواههم على ثيابهم، إلى درجة أشعر معها بالبرد حين أراهم. أما الشاحنات فقد زينوها، وزوقوها بنحو مبالغ به، على غرار ما يفعله عمال البناء عندنا مع دراجاتهم الهوائية. أضوية ومرايا، وزرقورق، وزينة.

والمشي بين منى وعرفات مسيرة عظيمة، والأفضل أن لا تكون هناك سيارات. يمكن اختيار ساعة مناسبة في أواخر النهار، والانطلاق فيها مشياً، ستكون مظاهرة فاخرة، وبالمستطاع أخذ العاجزين وكبار السن بعد ذلك بالسيارات. الطريق ليس طويلاً، وبإمكان الأغلبية الساحقة قطعه مشياً على الأقدام. ينبغي إخراج السيارات من هذه المسيرة الدينية. وهذا ممكن، ولكن على يد التدويل الإسلامي.

الحاج بائوچ اشترى أمس قميصاً جديداً، من سوق منى، فقد مزّق بنفسه ياقة قميصه، أثناء شجاره مع رئيس القافلة، مزق قميصه تمزيقاً فظيعاً إلى الأسفل. لم أر منذ زمان قميصاً يمزقه الشجار، وهو الآن بقميصه الأزرق هذا تحفة يشار إليها بالبنان، كالماعز الصغيرة المذبوحة، بعدما تنتفخ وترمى في زاوية، مع فارق أنه يجلس على الأرض.

والتفرشي الاعتزالي زعم اليوم أنهم مزقوا هميانه، وسرقوا ثلاثة آلاف تومان ونيف كانت فيه، فهل كان يعتزل الجماعة خوفاً على أمواله؟

الإنسان محروم في هذه الرحلة من الجمال، سواء بالنسبة للفن، أو من حيث قامات البشر. الصخور عجيبة، وكذلك الصحراء، وحتى السماء. شجيرة أم غيلان صغيرة وسط الصحراء الشاسعة، قصيدة عصماء طويلة. عندما تعيش في مثل تلك البيداء، تتحرى ضرورة النبوة في الهواء، وتتلمسها في التراب، فهل يتاح القول إن خشونة الأمر والنهي، وهي من مستلزمات كل ديانة، وليدة تلك الطبيعة القاسية؟ أياً كان، ما زالت بساطة الخشونة البدوية مهيمنة على كل شيء. وترى هناك أن إبراهيم محطم الأصنام، كان محطماً للفن أيضاً، ولكن أليس هو الذي شيّد البيت العتيق؟ أفيكون الوهابيون سائرين على خطاه...؟!

المساجد بيضاء في الغالب، والبيوت بنية، أو سوداء، أو زرقاء أحياناً، وحتى خضراء. هذا عن البيوت الجديدة، أما الأقدم، وخصوصاً في مكة، فلها جدران حليبية، وتغطيها واجهات خشبية، بلون الخشب الأصلي، وهي أروع ما يمكن مشاهدته هنا من بنايات. من أجل بناء بيت من سبعة طوابق. في مكة لا يرفعون سوى سبعة أو ثمانية جدران وأسس، ويغطون ما بين الأسس بألواح خشبية، بأبواب مضاعفة، وستائر، وزخارف حشبية، وهناك مصابيح تضاء، في أعلى نقطة من الدار، وعلى حافات السطوح، وفوق المآذن. وقد سطع محيط بيت الله بأربعة عشر مصباحاً متوهجاً «بروجكتر» أو أكثر من ذلك. إنها أيام عيد على كل حال. خلعوا على مقام إبراهيم، وبوابة الكعبة القديمة إكليلاً، بألوان صارخة. المهم أن الكعبة ذاتها مبنية من أحجار غرانيتية كبيرة، ولبساطتها هذه عظمة لا تقاس بهذا الجمال المتبدل كل يوم على الجدران والأبواب، لكن أرضية حجر إسماعيل مقفعة. لا بد

أن يفكروا بمقام إبراهيم، وباب الكعبة، بعد أن يفرغوا من تشييد الرواق الجديد، وهدم القديم، ويجعلوهما بحيث لا يعرقلان طواف الحجاج، كما صنعوا بالمنبر، وبئر زمزم، فأبعدوا الأول عن البيت، ونزلوا بالثاني إلى تحت الأرض. خطر ببالي أمس أن هذه الكعبة ربما كانت المعبد الوحيد المشيد في الهواء الطلق. المعابد الأخرى محاريب، أو تماثيل، أو أصنام، أو مشاعل، لها على كل حال سقوفها وجدرانها التي تحفظها من الرياح والأمطار والشمس، حتى اليهود في سنوات التيه كانت لهم خيمة يجتمعون فيها. أما هنا فالمحراب الأصلي غرفة كبيرة، أو إنه بيت كما يسمى، عرضة للرياح والأمطار، وربما لهذا السبب سموه بيتاً.

والمثير هو تساوي كل الناسكين، والعابدين، والركع السجود. تختفي هنا كل علامات الأرستقراطية، والطبقية، وما من مكان يخصص لهذا الأمير أو ذاك الملك.

عندما وصلنا عصر الأمس، استحممت، وتوجهت إلى بيت اللّه. طفت، وصليت، وسعيت، ثم جلست أتفرج. مجاميع من الطائفين يمسكون بعضهم بقوة، ويحرس أحدهم الآخر بدقة، وكأن الناس بئر من رمال، يجب الحذر من الوقوع فيه. بعض الشباب حملوا آباءهم وأمهاتهم على ظهورهم، وراحوا يطوفون بهم. وحماس مجموع الناس ينتقل إلى الفرد، ويزيد من سرعته. ست أو سبع نساء زنجيات مررن بجواري، تضوع منهن عطور زكية. عدة عطور مختلطة ببعضها، لأول مرة أشم من الزنجيات رائحة طيبة، مع أني لم أشم منهن رائحة غير طيبة.

ثم جاءت مجموعة على جانب كبير من الطرافة. الرجال أمسكوا بأيدي بعضهم، صانعين حلقة أحاطت بنسائهم في الوسط، وهم يطوفون على هذه الحال.

وتشاجر حمّالان يحملان كرسي طواف مع أحد الرجال، على بعد خطوات من الكعبة، وعلا الضجيج والصراخ! لم أسمع من كل ذلك الضجيج سوى كلمة «مصروع». تسربت إلى أذني من بين همهمات الطائفين، ومن لسان أحدهم، ثم غابوا هم وأصواتهم بين الطائفين.

بعض الرجال وضعوا أيديهم في نعالهم وهم يطوفون وجاء شحاذ يسأل، ضرير يلبس البياض، ويحمل فوق رأسه قماشاً يظله، وفي يده اليسرى عصا من خيزران، وسلسلة ساعته الفضية مقوسة من جيب صدريته إلى زرها. يعطيه الناس الصدقات في يده اليمنى، فيصنفها بنفس اليد، ويضع كل واحدة في أحد أربعة جيوب في صدريته.

في طريق العودة، استوقفتني مادة سوداء في دكان أحد العطارين. كان العطار يخرجها من التنكة بالعصا، ويضعها على ورق ملون، ويلفها، ويرصف اللفائف على طبق للبيع. سألت عن اسمها، قال: «جراك». مادة يدخنونها بالزجاج...(؟) مر رجل آخر وشاهد استغرابي، فقال: إذا أكلت حد التخمة، فإن تعاطي هذه المادة سيريح بطنك. سألت هل هي من نوع الأفيون أو الحشيش؟ لم تكن كذلك. لها رائحة عطر لا أعرفه. في طعمها مرارة. سوداء مطلية بالزيت. تبدو كأنها قير لين، وسوادها كسواد الكحل، لكنها لم تكن أياً من هذه الأشياء، أي أن رائحتها ليست كرائحة أي منها. تركتها أخيراً من دون أن أفهم ما هي.

قلما تبقى استفساراتي بلا جواب هكذا. إنه الحج الأكبر بكل ما فيه من غرائب. وعوض ذلك عرفت أفغانياً كان يشتري الحناء، تمشينا ندردش، فقال إن الحكومة الأفغانية في يد مئة عائلة ملكية، فقلت له إنها هنا في يد خمسة آلاف نفر من العائلة السعودية. وحكومتنا كانت يوماً ما في يد ألف عائلة، والآن...؟ في يد حديثي التأنق، بفضل أموال البترول.

السبت، 25 نيسان 64

مكة

الحاج بائوچ ما انفك يزعل من الآخرين. أصبح اعتزاله مائدة الجماعة ديدناً لا يتنازل عنه، أو أنه ابتلاء لا يستطيع الفكاك منه، لكن عينيه تراقبان كل شيء بدقة، وينقنق على مدار الساعة، والمؤسف أنه يفعل ذلك بلهجة مازندرانية غير مفهومة.

المازندرانيون جماعة متميزة داخل جماعتنا. لهم أحاديثهم، ومداولاتهم الخاصة، وبلهجتهم المحلية. واحد منهم يسمى «إسلامي» من مدينة چالوس، يروي أن فلاناً من المازندرانيين، الذي شقّت عليه مناسك الحج، قال يوماً بأنين وتضرع: «يا إمام حسين، فدتك نفسي، تعال وخلصني من شرّ اللّه!»

قال هذه في اليوم الذي تلا الليلة التي تراكمنا فيها على بعضنا، في المشعر الحرام على سفح الجبل، وضاقت بنا السبل من خلفنا، ومن بين أيدينا. رجل متوثّب الروح. وعرفت بعد هذه الدعابة، لماذا يبكي هؤلاء عند بيت اللّه، وهم يستمعون تعزية سيد الشهداء، ويتمنون زيارة كربلاء؟ إنه طموح الحضارة في معقل البداوة. في منى، وقف شرطيان عند «جمرة العقبة»، وبأيديهم السياط. لم أفهم السبب، سألت أصحابي أثناء الغداء، فأجابني أحدهم أنه كان هنا في العام الماضي، ورأى بنفسه رجلاً تعلق بالجمرة، وراح يلطم رأس الشيطان بالحذاء، فعلق الأصفهاني الأقرع «خوفة أن يتعب الشيطان من وابل الحصى، ويفكر بالفرار، ذهب الرجل وظل ممسكاً به». وروى آخرون أن البعض يرجم الجمرات حتى بالمعلبات الفارغة، أما أنا فشاهدت الرجم بالأحذية فقط.

لا أقوى اليوم على فعل أي شيء، سوى القعود والتفرج على رفاق السفر.

عقيد متقاعد، ثلاثة مازندرانيين أو أربعة، صانع أسنان، بعض الأصفهانيين، والطاجيكي الزاعم أنه طهراني، وعدة أشخاص غيرهم. كل واحد منهم في مكانه، تبدو على الواحد منهم أمارات البخل، والتشدد، وعدم الاهتمام بالآخرين، والانكباب على تدبير شؤون السفر المهمة، وغير المهمة، ورزم الأمتعة وفتحها (وما شأنك أنت حتى تراقب الناس بأربع عيون؟ انهض واحلق ذقنك، واخرج من البيت). في اليوم الذي حلقت فيه رأسي في منى، عدت إلى الخيمة، وجلست أحلق ذقني، أمام الناس (ربما أردت الرياء والمباهاة). وقد رمقني الكل بسهام نظراتهم، وكأني أرتكب معصية كبرى، مع أن أغلب الذين رمقوني بتلك النظرات حلقوا لحاهم في اليوم التالي.

الأحد، 26 نيسان

مكة

لا أنباء عن العودة لحد الآن، مع أن مهمتنا انتهت. ننتظر ترخيص الحكومة السعودية. شاع أن المصريين يمنحون قبل غيرهم تراخيص عودة، بحسب العرف الجاري في الأعوام الماضية، لكنني لم أر أثراً للمصريين لحد الآن. أظننا هنا إلى عيد الغدير.

لمدينة مكة «بدالة مركزية». مزارع بيوتها مزهريات من التنك، وعلى السطوح حمير من النوع البندري الكبير، الذي أشرت إليه. على ظهورها بسط أو سجاجيد صغيرة، أو أنها مربوطة بالعربات. تمشي سريعاً كأنها الخيل.

رأيت أمس بائعاً جوالاً يبيع أوراق الشاي، في سلال كبيرة. كان معه ثلاثة أنواع في ثلاث سلال. بسط بضاعته على رصيف الشارع.

وحينما مررت أمام باب محل تغسيل الموتى، أسفل محلة سليمانية،

شاهدت عدداً من الحجاج الأتراك، يصلّون على ميت مكفن، مددوه على مصطبة أمامهم.

البارحة حصلت أخيراً على قهوة، عند البوابة الغربية لمكة، في مقهى مزدحم كمقهى قنبر، وشاي، ونرجيلة. معظم الزبائن من الأتراك. القهوة بقرشين، في وعاء فلزّي، لا يتسع لأكثر من فنجان، وحبات القهوة غير الذائبة يمكن مضغها بين الأسنان. طلبت أن تكون مُرّة.

سألت التركي الذي بجواري عن عدد الحجاج الأتراك، قال شيئاً لم أفهمه، فوضعت ورقة أمامه، وكتب العدد باللاتيني، ستون ألفاً. جاء عشرة آلاف منهم بالطيارة، والـ«واپور»، أي السفن. يبالغ كغيره. ثم مرت سيارة تابعة للهلال الأحمر السعودي، كتب عليها «تبرع أرامكو».

قبل أن أصل إلى هذا المقهى مررت بساحة كبيرة محاذية للشارع ومسورة. سألت عنها، فإذا هي مقبرة. كانت مستوية، وخالية كراحة اليد المبسوطة. وما اسمها؟ «حارة الباب»، مثوى عدد كبير من عظماء الإسلام.

ثم صادفت صرّافاً، علق بالدبابيس على لوحته 23 نوعاً من العملات، لا أثر فيها للعملة الإيرانية. صرفت عنده بعض المال، فأعطاني مقابل 100 تومان 54 ريالاً سعودياً. في جدة، كانوا يعطون 56 ريالاً، وفي المدينة يهبط الرقم إلى 53. قلت لجواد حينما كنا في جدة، الأفضل أن تصرّف نقودك هنا، لكنه لم يسمع مني. تحاسبت معه أمس، وأخذت بقية نقودي. عندي الآن 350 توماناً إيرانياً، و25 ريالاً سعودياً. أنفقت إلى الآن ألف تومان، ولكن كيف؟ لست أدري. اشتريت البارحة عدداً من مناديل الرأس، عشرة منها بخمسة عشر ريالاً، عليها صور مكة والمدينة. كنت جالساً في المقهى وإذا بأصوات سيارات بصفاراتها وأبواقها، تدل على سرعة عالية. موكب «فخامة»

أحد الشيوخ العرب، ببهارجه، وطنطنته، والشرطة على الدراجات النارية، تسير أمام الموكب، وتنادي رسمياً «اطرح! اطرح!» أي ابتعد، غض طرفك... كالعهد «العصملي» تماماً.

اليوم نفسه

مكة

ها قد بدأ القرف، والملل. الجو شديد الحرارة، ولا يمكن الخروج أثناء النهار. بقيت إلى الخامسة عصراً، أقرأ «هداية السبيل» بقلم فرهاد ميرزا. يكتب حرف (N) بشكل مغلوط، ويتشدق مع ذلك بمعرفة الغرب، وبقراءة الخرائط البحرية لقبطان السفينة، لكنه عند هوج العواصف يعطي الملاحين تراباً مقدساً، يرمونه في البحر ليسكن غضبه. إنسان عجيب، مع أنه لا يشط كثيراً، ولكنه بوصفه أميراً من العائلة المالكة تمتع بما لا حصر له من النعمة والترف، وتهيأت له أسباب العلوم والثقافة، يبدو أحياناً على درجة من الجهل، تفجّر في الإنسان غيظه. هؤلاء هم أعلم رجالنا قبل مئة سنة، وهذا ما أفضى إلى ما نحن عليه اليوم.

حينما خرجت عصراً، بقيت لساعة من الزمن، رفيق خالنا في تبضعه وتجواله بين الدكاكين. خرج ليشتري بعض الأشياء فلم يشتر شيئاً، ظل ينتقل ويساوم من دكان إلى دكان. ساوم وتململ إلى أن تعب، لكن قلبه تفتح. أعدته إلى البيت، وتوجهت إلى جبل أبي قبيس، ومسجده، مسجد صغير لطيف، على صخرة مطلة على مكة. المكان الذي يقال إن القمر انشق فيه. والزنوج يعطون النقود بانبهار، لدليل صغير يشير إلى تصدع على حجر خلف المسجد، وكلهم يهزون رؤوسهم تصديقاً وإعجاباً! ولكن تعال انظر الأوساخ والقاذورات، التي عمت الأزقة الصاعدة إلى مسجد أبي قبيس.

ينبغي مشاهدة مكة الأصلية هنا، أرض الأزقة أنابيب مياه آسنة، والفضلات والمزابل في كل زاوية ومكان.

نساء المنطقة لا يحملن أطفالهن على أذرعهن ولا خلف ظهورهن، وإنما يركبنهم على جنب خصورهن، يميناً أو شمالاً، ويملن بأنفسهن إلى الجهة الثانية، والطفل كأنه جالس على ظهر دابة. إحدى رجليه على بطن أمه، والرجل الثانية على ظهرها.

وبجانب جبل الصفا، خارج المسجد الحرام، بنوا دورة مياه كبيرة تحت الأرض، يبدو أنها حديثة. نزلت للفرجة، ويا غياث المستغيثين! من الرائحة والزحام. ليس هنالك أي منفذ للتهوية، حتى ولا شبابيك صغيرة. كان من السهل أن يصمموا فيها منافذ للتهوية، ولكن من يفكر بهذه الأشياء؟ والقضية المهمة أني لا أعلم كيف يصرّفون المياه الآسنة في مكة. لا يمكن حفر آبار في هذه المدينة الصخرية، ولا أظن أن لديهم مجاريَ لتصريف المياه الآسنة، فماذا يفعلون إذن؟ أفيكون هذا هو السبب الأصلي للقذارة وعدم النظافة؟

لا بوادر للعودة لحد الآن، وليتها كانت، اللّه أعلم كم سنبقى هنا، وفي جدة بلا جدوى. وواأسفاه! على قبلة المسلمين، لا أحد يفكر بتنظيف أطرافها. إذا جاز لنا معرفة نظافة العالم الإسلامي، قياساً إلى نظافة مكة، خصوصاً في أيام الحج (وما يدريني كيف تكون في غير هذه الأيام) فطوبى لغير المسلمين. ينبغي مشاهدة مكة عن كثب، والاندكاك بحياة عرب البادية، التي يندر فيها الماء، ليتضح معنى الوضوء خمس مرات في اليوم. كل أحكام الطهارة والنجاسة في الإسلام من أجل مكافحة هذه القذارة والوسخ الذي تراه في هذه الأزقة، ولكن إلى متى؟ مضت ألف وأربعمئة سنة، وظهرت شبكات المياه الصالح للشرب، ومجاري التصريف، لا يعلمه

إلا اللّه، ثم هذه مكة كأنها محلة اليهود في أصفهان. والمشكلة أنه إذا كان المكوث في منى يكفي ليومين فقط، وقد تعالت روائح الجيف آخر اليوم الأول، فلا بد من البقاء هنا أسبوعاً على الأقل، وقد تفشت الجيفة منذ أول يوم. لأدع هذا الحديث الفضيحة. أسوأ من دزفول قبل مئة سنة، بمرافقها العجيبة فوق السطوح. حينما تصعد إلى الأعلى في أزقة مكة، يتجلى لك، لماذا أو كيف كان الأوباش يرمون الرسول بالقاذورات.

الإثنين، 27 نيسان

مكة

البارحة لم يتركونا ننام أبداً، أحدهم يخرج ليلاً من الدار، ويعود بعد منتصف الليل، والثاني يقرأ دعاء كميل إلى الصباح، والثالث يتهجد طوال الليل، وبعض العبّاد المميزين يتوجهون إلى بيت اللّه نصف الليل، ويرجعون مع الفجر، والأذان والمناجاة، و... هكذا.

السبب أنها الأيام الأخيرة في هذه السفرة، ويجب معرفة قدرها، كليلة الامتحان بالنسبة للتلاميذ. باقي الليالي كأنها غير موجودة بالنسبة لهم، يرجئون كل شيء إلى اللحظات الأخيرة، وهكذا حال رفاق سفرنا في كل ليلة، وصاحب البيت يريد أن يكون متفرنجاً معنا، يرش السلم بالكريولين المركّز، بكل تركيزه، ولونه البني، من دون أن يضيف له ماءً، ليخفف من رائحته، ويتحول لونه إلى الحليبي، ورائحة لا تدعنا ننام ليلنا، جعلتنا كأننا في المراحيض ليل نهار.

أما المرحاض الذي في الممر فهو وسيلة إعلام، تنشر كل الأصوات مهما خفتت. الحاج السقز آبادي، كان يسعل البارحة سعالاً خطيراً، أيقظ الجميع، وتحامل البعض عليه.

لكنني لم أفهم ماذا يتعاطى. البرونشيت اللعين هذا يقتل صاحبه، ويعذبه عذاباً أليماً، خصوصاً مع وجود هذه السجائر المتنوعة التي يدخنها (أما أنا فما يزال عندي سجائر اشنو). لكن هذا الحاج المسكين يبدو أنه لا يعرف حتى كيف يسعل، كأنه ينفخ في بوق ثلاث مرات، وهو مستلقٍ كالمصلوب، كالكركدن المزكوم تماماً: «بوه هه اوه» وبأنكر الأصوات. قلقتُ لرؤيته جداً.

في الغرفة مروحتان سقفيتان، وأربعة مصابيح كهربائية، وخمسة شبابيك، ومبردة هواء، وسكان الغرفة أحدهم يشرق، والآخر يغرب. واحد يشعل، وواحد يطفئ. واحد يفتح، والثاني يغلق. والشجار لا ينقطع، لكل منهم ذوقه ومزاجه. وللعبث بهذه المبردة قصة مستقلة.

الطريف ذلك السيد ذو اللحية الملونة، وقد خضب اليوم لحيته، فانقلبت حمرتها سواداً، وبياضها خضاراً. وخضرة منابت الشعر القريبة من حمرة البشرة، تميل الآن إلى اللون الرمادي من بعيد. هو سيد جدير بإثارة الدهشة. تخال أن لحيته اصطناعية، ومتشرع جداً، ومهموم دوماً، لأن الآخرين يحلقون ذقونهم.

وصاحب بيتنا، فضلاً عن تفرنجه، صاحب ذوق رفيع أيضاً. يبحث عن «الخوبة»[1] في كل الأحوال، يطلب من الحجاج كيساً من «الخوبة» مقابل كل خدمة يقدمها لهم. لا أدري بماذا تنفعه.

صباح اليوم صعدت في الزقاق السُلمي المنحدر، الذي بجوار مكان سكننا. بيتنا فقط فيه أنبوب مياه آسنة، ينتهي عند الباب إلى داخل حفرة.

(1) الخوبة حبيبات نبات بري معروف في إيران، شائع تعاطيه كشراب للوقاية من الحمى وغيرها.

رأيته صباح اليوم، حينما رفع ابن صاحب البيت غطاءه، ليفتح مجراه. ينحدر إلى حفرة أحدثوها تحت البيت للمرحاض، وينزحونها مرة في العام. هل لباقي البيوت مثل هذا؟ المياه الآسنة في البيوت الأخرى تجري صوب خندق إسمنتي مفتوح، أحدثوه بجوار سلم الزقاق، مملوء بالوحول والقاذورات، والبيوت الأولى في الزقاق تنفتح مياهها الآسنة على الزقاق مباشرة، ربما لكيلا تمتلئ آبار مراحيضهم بسرعة. والطريف أنابيب الماء، في البداية كنت أرى مضخة البيت الكهربائية تعمل مرتين أو ثلاث مرات في اليوم، وتصورت أن هناك خزان مياه، تأخذ المضخة الماء منه إلى الحنفيات. ولكن تبين بعد التحريات، أن هذه المضخة تسحب الماء من أنابيب شبكة المياه الحكومية إلى خزان الماء في البيت، وربما كنت على خطأ. لم أسمع هذا الخبر بالعربية، إنما ذكره لي رئيس القافلة.

الإثنين مساء أيضاً

مكة

ذهبت عصر اليوم إلى جبل «حراء»، جبل النور. أول مهابط الوحي. سرت في الخامسة عصراً، وكنت فوق الجبل في تمام السابعة، وحينما عدت إلى البيت كانت الساعة تشير إلى التاسعة إلا ربعاً. جبل على درجة كبيرة من الصلادة والقسوة. يشبه الزقورة الطبيعية إلى حد ما. لاقيت مشقة كبيرة في صعوده، لا سيما أثناء العودة حينما خيم الليل، ولم أكن أبصر موضع قدمي، والتَوَتْ قدمي بهذين النعلين عدة مرات، وأصابتني جروح في عدة أماكن منها. حفروا فوق الجبل حفرة كبيرة، كالبركة تتجمع فيها مياه الأمطار، لكنها كانت خالية، وقد أخذ مني العطش مأخذاً تركني أطلب الماء من امرأة تعود مع أطفالها، ومعها زق ماء صغير. شربت جرعتين،

وكانت نعمة عظيمة. وبعد البركة بناء رباعي الأطواق فوق أعلى نقطة في الجبل. لكنه بلا أطواق. لم يبق منه سوى متر واحد فوق الأرض. وفيه صدع على صخرة الجبل باتجاه القبلة، وفي أكثر من مكان. ربما كانت علامات انشقاق القمر. وعلى حد تعبير فرهاد ميرزا «انشقاق الجبل والصخور» بدل انشقاق القمر.

مررت في الطريق بمسيل مكة الذي ذكر فرهاد ميرزا تاريخ بنائه، وعلى سفح جبل النور ضربت بعض العوائل خيامها، وكلابهم تخدمهم أحسن خدمة عند العودة. كل الوديان المحيطة ممكنة الرصد من فوق الجبل. مكثت هناك إلى أنْ جنّ الليل، وزالت حتى حمرة المغيب، وغدت مكة مائدة ملونة من الأضواء المتلألئة. زوار الجبل، ما عدا تلك المرأة وأطفالها، رجلان سودانيان، وأربعة شباب سوريون. هؤلاء فقط طوال صعودي والنزول.

الإهمال يقطر من كل نقطة هنا، فلا تعمير، ولا تشييد، ولا مياه شرب، ولا مد سلالم، أو طرق، ولا أدلاء، ولا إضاءة. أول منازل الوحي في العالم الإسلامي، وملجأ الرسول وهذه حاله؟! كنت أمسح الجبل والوديان بنظراتي، إذ أرخى الليل سدوله، ولم أستطع رؤية الغار.

ما أجمل الجبال والصحراء في هذه البلاد. وهذه على الضد من تلك. تذكرت ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾[1] بتركيز شديد. في كل مهبط للوحي، من الطبيعي أن يتحرى الإنسان موجبات الوحي.

الطرقات كانت رهيبة الخلوة عند العودة، أقصد الشوارع، والأزقة، والمحلات في «حي المعابدة». غادر الحجازيون، ويغادر باقي الحجاج شيئاً فشيئاً، لكن أطراف الحرم لا تزال مزدحمة، والسوق ما برحت مزدانة

(1) سورة النبأ، الآية:7.

مزدهرة. المدير المتقاعد الذي انكسرت نظارته في الطواف، حصل أخيراً على نظارة جديدة اليوم، بمئة وثلاثين تومانًا. طبيب عيون واحد لكل مكة، وعويناتي واحد فقط. وكل هذا التأخير. ذكر الأسماء لكنني نسيتها. فهل هذا صحيح؟

كتبت صحف اليوم أن 1.066.555 مسلماً حجوا هذه السنة، وكنت قد أوردت قبل هذا رقماً آخر.

وذهبت لدائرة البريد. كنت أسجل العناوين على الظروف، إذ اجتمع حولي بضعة أشخاص، أحدهم حاج من الجزائر، كان يريد إرسال تلغراف، وأراد أن أكتب له باللاتينية، فكتبت، والآخر من سوريا، معه ستة طوابع، وستة ظروف، يريدني أن ألصقها له. قلت له: إنك تستطيع ذلك، فقال: «ما أعرف».

نقاش ما بعد الغداء اليوم، دار حول التطبير وحرمته أو جوازه. الأصفهاني الأقرع الظريف دافع عن الظاهرة بخجل، بغية إيذاء المتشرعين الذين أبدوا استنكارهم الشديد لهذه الممارسة الدموية، وساقوا ما ساقوا من آيات وأحاديث عن حرمة إلحاق الضرر بالنفس. أياً كان، لم يتركونا ننام. قمت وذهبت إلى حمام بالقرب من بيتنا، وحينما عدت وجدت الرفاق يقيمون أمتعتهم ويراجعونها: الخوبة، الخبز اليابس، ماء الليمون، اللبن الرائب، النعناع المجفف، وخصوصاً النبات (بلورات السكر). وصاحب الدار يريد صناعة المستحيل، ومراقبة كل شيء وضبطه. باستثناء كيس كبير، ملؤه الخبز اليابس، من أملاك لابس الجلود الهمداني، وكيسي لبن رائب ألقوا بها خلف جدار البيت، يبدو أن الحاج الهمداني أعطى خبزه اللواش[1] (ربما لزوجته

(1) نوع من الخبز الإيراني رقيق جداً.

في القرية) فطحنوه وأعادوه دقيقاً، ليأتي به إلى الحج في كيس يسع 15 كيلو، لم يأكل منه حتى الثلث. صلد، ومج، ومتعفن، ويا لرائحته! ومع ذلك يتقطعون حسرات للتخلي عن هذا الزاد الإضافي. قضوا وقتاً طويلاً يتشاورون، ويفكرون، ويتدبرون القضية، إلى أن رضوا أخيراً بمفارقة الأحباب.

الثلاثاء، 28 نيسان

مكة

الرفاق يتحدثون عن الرحيل، قيل إننا سنغادر في الثانية بعد منتصف الليل، وإذا انطلقنا مع الفجر، فإننا سعداء الحظ أيضاً. عاد رئيس القافلة يجلجل ببطولاته، وشطارته، ودفعه الرشاوى ليحين دورنا بسرعة، و... إلخ. مِشيتي أمس إلى جبل حراء كانت حماقة، بكل معنى الكلمة، فقد شربت من الماء بما صرفني عن الطعام. كنت شديد الظمأ، وحينما عدت، تهالكت في أول مقهى، وشربت إبريقاً من الشاي، وقنينة من الماء، وأكثرت من الماء عند العشاء أيضاً، ولا تزال شهيتي للطعام ذابلة، بلا أي حراك.

حينما كنت أحاول النوم بعد ظهر اليوم (الحر لا يدعك تغادر البيت إلى وقت الغروب). تحدث الرفاق عن معجون «السمنقور»! وفوائده للتقوية على الجماع، وهو معلق فوق باب أحد الدكاكين، وقالوا إنه معجون يستخرج من سمك، يقفز من وسط رمال الصحراء، فيأخذ الصيادون معهم بطانيات، حتى يمنعوه من العودة إلى الرمال إذا قفز! (كذا) هذا ما تحدث به الحاج بائع الطحين في طهران. بائع الطحين الوحيد الذي ما يزال يعمل بطريقة تقليدية، ولم يشتر طاحونة آلية لحد الآن. وهو يفخر بهذه المنقبة. أقرع هو الآخر، وهو من عرف بـ«مخ نداري» أي عديم المخ، على لسان العامل العربي في قافلتنا.

ثم رووا أن امرأة سحقت قبل أمس تحت الأقدام أثناء الطواف، قفزت من مكاني، وتحريت عن الحادث... لم يكن فيهم مَن شاهد الحدث بنفسه. يبدو أن الحكاية مثل السمنقور.

ذكر فرهاد ميرزا في رحلته أن مترجمه في تفليس كان «فتح علي آخوند زاده»[1]، بآرائه وأفكاره العجيبة الغريبة، في (زمن لا يفهمه)، وأبجديته المقترحة، و... إلخ. رآه مرتين عند الذهاب، وعند الإياب، وقد اطلع بلا شك على سائر ادعاءاته... الاشتراكية، الديمقراطية... وما إلى ذلك، ولكن كأنه لا يرى شيئاً، ولا يسمع. بقي ذلك الرجل القاجاري المتعامي، المتفاضل. والقانع بالفرس والعلف، والبغلة، والاستقبالات، والمشايعات.

ثم إني بدأت أتبرم بكتابة هذه المذكرات. انطفأت حيوية السفر وغرابته، وعدم الأكل يغذي هذا الخمول، ليس أمامي سوى قراءة رحلة فرهاد ميرزا إلى النهاية، واجتراح مقارنة تلو مقارنة، وكيل السباب واللعنات على كل ما فوق البسيطة من جهالات.

الأربعاء، 29 نيسان

مكة

ها قد ساءت الصحة تارة أخرى، خرجتُ بصعوبة من الدار، واشتريت «آنتروفيوفورم». منذ ليلة المشي، وتسلق الجبال، وتحمل العطش الشديد، والحال غير الحال. وعصير البرتقال اللبناني يصيبني بالغثيان من كثرة ما شربته. حينما خرجت لشراء الدواء، عرجت على سوق الحراج في مكة؛ راديوات، ساعات، سجاد، دراجات هوائية، مكائن خياطة، دراجات نارية،

(1) أحد اوائل المثقفين المتغربين في إيران.

بنادق، كاميرات، عباءات، بسط، وخناجر، و... إلخ. بضائع كانت تباع وتشترى هناك، وفتاة جميلة مع والدتها ربما كانتا من سوريا تمشيان في السوق، وقفتا للتساوم مع بائع جوال على سجادة حرير، عليها زخارف «بته جقية»[1]. لم يتفقوا على السعر، لكن الناس وقفوا يتفرجون على السجادة، وعرقلوا المرور في السوق.

ثم إن المدينة آيلة إلى الخلوة تدريجياً، وصاحب بيتنا توجه اليوم إلى عمله في الدائرة، وما عاد يتفقد مبردته مرة واحدة كل ساعة، لكن ابنه حل محله، طبعاً من دون أوامر ونواهي، ومن دون مراقبة لحاجيات المنزل، جاء يبيع ألعابه، وكأن حرارة البيع والشراء الموسمي انتقلت إليه هو الآخر. لعب قديمة منذ طفولته، جاء يبيعها، ولعله اشتراها من السوق، ورفاق بيتنا يساومونه، ويعاملونه، ويلعبون بألعابه. عرائس، وقاطرات، وشاحنات، ورشاشات، وأرجوحات، وطائرات... وكلها يابانية.

أمس طاف خالنا بأرجله. أمسكه اثنان تحت ابطيه، وطوفاه أواخر الليل، حينما خف الزحام. يحاول الأشياء المستحيلة، بمعنويات عالية جداً، ولم ينقنق اليوم على مائدة الفطور، خلافاً لعادته. وهو الآن نائم رغداً.

سوق مكة أسعد أسواق العالم حظاً، متخم بالحركة، وقصير الأمد. سوق عكاظ يتكرر. زيارة تعقبها تجارة والعكس صحيح أيضاً. المسافة بين الصفا والمروة كانت سوقاً في الأساس، والسعي بينهما كان سعياً للمساومات إلى حد ما، من دكان إلى آخر. والآن وقد شيدوا المسعى، وفصلوه عن السوق، جعلوا له خمس أو ست بوابات كبيرة، تنفتح على السوق الموازي؛ كل

(1) نوع من الزخرفة التقليدية في إيران، كثيرة الاستعمال في السجاد والأقمشة القديمة، قوامها أوراق أشجار معقوفة الرأس كالصنارة.

بوابة تنفتح على سوق خاص، فإذا تعبت انعطفت لتشتري شيئاً، تحتاجة أو لا تحتاجه. أعظم قضايا اللاهوت والناسوت إذا تحولت مرتكزات لعواطف الناس الإيمانية، فلا بد لها أن تأخذ معيشتهم ومعاملاتهم أيضاً بنظر الاعتبار. بعض الدكاكين باعت كل ما فيها، وطفق أصحابها يغسلونها، ويكنسونها، ربما استعداداً للسنة القادمة. أو لحجاج العمرة، أولئك الذين يحجون في غير موسم الحج. مررت بمحل للتسجيلات والأشرطة الصوتية، عنده أسطوانات «الرحمن»، و«ياسين»، و«الحجرات»، بجانب «أم كلثوم»، و«عبد الوهاب»، و«جيلي»، والجاز الأمريكي. أسطوانة القرآن بخمسة وعشرين ريالاً سعودياً. والنوع الثاني بعشرة ريالات إلى خمسة عشر... لم أشتر شيئاً، فلن يكون الشراء إلا استجابة لهياج التبضع. أو للعودة بذكريات من هذه السفرة. أوَ لا تكفي هذه السطور ذكرى لرحلة الحج؟

ثم إن الضجيج مهيمن هنا على كل شيء. أبواق السيارات التي تسمعها هنا خلال نصف ساعة، لا تسمعها في شوارع طهران طوال ثماني ساعات، وصراخ الكسبة والزبائن، ومساومات السوق، ومن حسن حظنا أن سكننا في مكة بعيد عن الشارع، ومع ذلك فالإخوة رفاق السفر لم يتركوا صوتاً تصدره ألعاب ابن صاحب البيت، لم يستخرجوه من صمته. يفعلون ذلك الآن. أحدهم اشترى قاطرة مدرعة، وخالنا لا يزال نائماً. الأفضل للمجيء إلى مكة، أن يكون الإنسان أصمّ مثله.

يوم الأربعاء نفسه

وما نزال في مكة

قصدت بيت اللّه عصر اليوم، كزيارة أخيرة. «زيارة»؟ كلا، كوداع. «وداع»؟ مع اللّه؟ أم مع بيته؟ حينما لا تستخدم الكلمات في محلها لن

تكون النتيجة أحسن من هذا. أياً كان، الخاجوات راحوا يكنسون، خاجوات زنوج، يرتدون البياض، بأحزمة خضراء على الخصور. وساءلتني نفسي؛ لماذا لم يجعلوا الرواق الجديد دائرياً؟ فالصف الأول للمصلين القريبين من البيت مربع، أما الصفوف من بعد حجر إسماعيل، فدائرية. ثم ألم يكن سور حجر إسماعيل مقوساً لهذا الغرض؟ لا يسمحون لأحد بالوقوف لصلاة الجماعة داخل الحجر، والطائفون عليهم المرور من خلفه لا في داخله، والستار الجديد ليس أفضل من سابقه، أسود بلون الباذنجان، غامق جداً. وخطوطه غير سوية، واضح أن السعوديين بحاجة إلى زمن غير قصير، حتى يكونوا أساتذة في معامل نسيجهم. الرجل الباكستاني الذي وقف للوعظ في مسجد المدينة، وتكلم بما يشبه «نزعة التغريب»، جلس تحت الرواق هنا، في طرف حجر إسماعيل يكتب شيئاً، يسجل ملاحظات ربما، والباكستانيون يقصدونه، لعلهم يطرحون عليه بعض مسائل دينية، وهو كباقي الرؤساء شديد العكوف على مشاغله ويستغرق رفعهُ لرأسه، كي ينظر في مسألتهم مدة من الزمن. طريقته هذه حالت دون أن أقصده للدردشة والتحاور. ولم أكن أدري بأي لغة سأحاوره، وهل كنت أدري ذلك مع غيره؟

على سُلّم بئر زمزم، وقف الشرطة يقلبون أوعية الماء فيسكبونها. أوعية باعة الماء طبعاً، يخزنون الماء ليبيعوه على الحجاج. وسباب وشتائم بالعربية، لم أفهمها، بسبب المتاجرة داخل المسجد الحرام على أغلب الظن. وهذه فزعة كانت للسيد المسيح أيضاً عند الهيكل، ولكن لا فائدة من كل هذا. الزيارة والتجارة توأمان قديمان. هذه المظاهر لا تستر أي شيء، ثم ما هو مبررها؟

وصنابير مياه زمزم كانت مزدحمة كالسابق. عجوز وقفت بجانب السلم، وابنها ينزل، ويأتيها بأكواز الماء (الأكواز ذات الجرعة الواحدة، من وقف

وزارة الحج والأوقاف). يريقها على رأسها، وكتفيها، وجسمها، وهي ترتدي الإحرام، وتضرب على صدرها، ورأسها مرفوع إلى السماء بالدعاء، إلى أن يعود ابنها بكوز آخر. ليتني كنت مكانها. لم يكن لها أسنان، ومع أنها كانت تدعو بصوت واطئ، وبلغة لم أسمعها ولم أفهمها، لكنني سمعتها تدعو للإنسانية كلها.

تابعت المسير، وصادفت عيوناً وحواجب هندية جميلة على وجه فتاة في 17 أو 18 من عمرها، ترتدي إحراما كأنه الساري ثم أليس الإحرام نوعاً من أنواع الساري؟

ضابط يشد مسدساً! أخذ يطوّف عدة نساء. بناته وأهله ربما. وما أكثر الحوامل الطائفات، الطواف والسعي الآن أقل زحاماً، والحوامل أقل عرضة للخطر. عددت أربعاً منهن. رجل أعرج بعصا تحت إبطه جلس على رمال الحرم الباردة. جرف الرمال الساخنة إلى أن ظهرت الرمال الباردة، ثم جلس. ظننته أولاً ممن قطعت أرجلهم بالسرقة، لكنني علمت بعد أن جلس أنه أعرج بالولادة. باطن قدمه مشوهة، مجعدة. قدم سليمة، والأخرى سقيمة وراثياً. ومرة أخرى، نساء يجب أن يتأخرن خلف الرجال عند الصلاة، ولكن حينما كنا جالسين للتشهد، لمحت امرأة ترتدي السواد، وتقود طفلاً وراءها، تعبر أكتاف الرجال نحو الحجر، لتروي غليلها من استلامه. الحرم كان غاصاً بالناس، والصفوف متراصة مضغوطة، لكن المرأة كأنها تتجاوز موانع حجرية وسط الصحراء، لا هيبة للبيت، ولا احترام لصفوف الرجال المصلين، بدا لي أنها هي صاحبة البيت، ولا أدري لماذا تذكرت ذلك الداعي القبادياني.

أخي الأكبر، الذي جاء إلى هنا من طوق الخلافة البغدادية، يتحرى أثراً للفاطميين والإسماعيليين كي يزرع في بقعة داخل ذلك الطوق بذرة انتفاضة وثورة، ويضعضع الأمر على تلك الخلافة في خراسان، على أقل

تقدير. ثم تذكرت أخي الآخر، وكان شقيقاً لي من أبي وأمي، والذي لم أره أكثر مما رأيت الأخ الأكبر. جاء هو الآخر إلى هذه الديار، لإحياء بقايا التشيع داخل إطار الهيمنة الوهابية، ولم يعد لي منه سوى ذكرى قديمة.

وماذا فعلت أنت أيها الأخ الأصغر؟ من أجل العثور على بقايا ثقافتك داخل طوق أرامكو؟ ولكي ترى هذه الكعبة صخرة تصمد لأعتى السيول والتيارات؟ وما الحاجة أساساً لكل هذا الرياء؟ ألم تر أن تلك المرأة هي صاحبة البيت؟ وعلى فكرة ما الذي كان يحدوها حتى راحت تجرجر أنوثتها بلا تردد بين صفوف الرجال المتراصة، وهم جالسون للصلاة؟! ووجدت أن مجرد تلبية حاجة يكنها فؤاد هذه الملهوفة (شكاية من ضرّة، أو رجاء سعادة ابن، أو طلب شفاء مريض... إلخ)، مسوغ كاف لأن تبقى الكعبة قرونا متمادية جداراً ندياً تستند إليه الجباه المتعبة، لكل البشرية المغتربة في عوالم الفقر والجور والفوضى.

اشتريت خمسة أقلام «باركر» في طريق العودة «صوغات». الواحد بخمسة وعشرين توماناً. من دكان رجل في شارع غزة، كفيف وأبكم، لكنه يسمع، ويتعامل مع الزبائن بطلاقة وكفاءة قد يحسد عليها.

الخميس 30 نيسان 1964

جدة

اللعنة على هؤلاء المطوّفين وشركاتهم السخيفة. للعودة إلى جدة نهضنا من الساعة العاشرة ليلة البارحة، نحزم أمتعتنا ونعدها، وننتظر، ولم ننطلق إلا في الثانية إلا ربعاً بعد منتصف الليل، والطريق مسدود كل خطوتين بسبب تراخيص العبور، وما إلى ذلك.

يتعاملون مع الحجاج كالمجرمين المساجين. لم يكن الحال هكذا عند

المجيء، أما عند العودة فكأن الحجاج لصوص محترفون، يحاولون الهرب. توقفنا مرة لشرب الشاي في الطريق، ولم نصل جدة إلا في الرابعة والنصف فجراً. والطريق كله لا يتجاوز 12 فرسخاً. والآن وسط الساحة أمام المطار، فرشنا بطانياتنا على الأرض كآلاف الحجاج، وجلسنا بقرب أمتعتنا، ننتظر دورنا في الإقلاع، وأنا أتصبب عرقاً، رغم أن الشمس لم تشرق بعد، فياللّه حينما تشرق!! مع أن إنزال الأمتعة من السيارة ليس بريئاً من إجهادي وتعرقي. شدة الزحام لم تترك مكاناً لأحد، حتى في مدينة الحجاج. الكل يتعجلون العودة، فالذين استطاعوا الخروج من مكة إلى جدة سارعوا إلى ذلك بلا تأخير وهم ينتظرون دورهم الآن.

القسم الأكبر من قافلتنا انطلقوا في باص قبلنا وبقينا أقل من عشرة أشخاص حملنا باص آخر، شاركنا فيه السوريون. وقعت أنا ومحدث في آخر الباص بجوار اثنين من السوريين. أحدهم بائع كتب في دمشق، والثاني حداد من المدينة نفسها. والسلام عليكم، وعليكم السلام، وسؤال الأحوال، وتبادل العناوين. بائع الكتب يتكلم عربية فصحى، لم أسمعها من قبل، إلا من مدير المكتبة في المدينة، وصاحبه الحداد يزعم أنه يعرف الفرنسية، لكنه لا يعرفها. أسمعني: تته پته، أحبطتني، وعدت إلى العربية. يقول: إن إمام المسجد الحرام قرأ في صلاة العشاء البارحة سورة البروج، وراح يفسرها لنا ويحكي لنا أنا ومحدث عما فيها من تنبؤات، ثم روى لنا رفيقه الحداد قصصاً وأخباراً عن عظمة وجلال قبر زينب في دمشق، ودعانا إلى زيارة المرقد بسيارته الخاصة، إذا سافرنا إلى دمشق،... إلخ. الطريف أنهم يستعملون حرف« ژ» بدل الجيم.

حينما نزلنا من الباص صباحاً، اشتريت من بائع حليب في وسط الساحة مقابل المطار، إبريقين من الماء بريال واحد للوضوء، الذي كان

بانتظارنا، ثم اشتريت منه ثلاثة أقداح حليب، شربنا منها جرعات، إلى أن يحضر فطور قافلتنا. كان حليباً مجففاً، أضافوا له ماء، وملؤوه بالسكر. القدح باثني عشر قرشاً.

في مجلة «البلدان» السورية أو اللبنانية (لا أتذكر، فقد تركتها جميعاً في مكة وعدت) طالعتني مقالة منقولة عن صحيفة عربية أخرى حول هذا العلم(!) الذي يسمونه استشراقاً، وأنها الزائدة الدودية للاستعمار، وهما حصانان لعربة واحدة، وما إلى ذلك. و«البلاد» نشرت في عددها الصادر بتاريخ السابع عشر من ذي الحجة، قصة مترجمة عن الفارسية، من نمط قصص حميد مستعاني، بأسماء «لادن»، و«سوسن» وعلاقات حب وآهات وترهات.

البارحة كان خبزنا على مائدة العشاء قطعاً من الجلود لا تقضم، معدّاً من طحين الذرة الأمريكية التي شاهدت بعضها في سوق مكة. حمراء ذهبية- تشققت بعض حباتها، وندّ عنها النشاء. والعجيب فحمهم الذي ربما كان من خشب أم غيلان. صلد مقاوم يعمّر طويلاً. تذكرت الأتراك ووجدت أن مكانهم خال هنا، مع أن شرّاب النارجيلة العرب خلفاؤهم الشرعيون بلا منازع. وها هو حلاق جوال يبحث عمن يريد العودة إلى وطنه مهذباً مشذباً.

التاسعة صباحاً الخميس أيضاً

جدة

غيرت مكاني مرتين منذ الصباح وإلى الآن هروباً من الشمس، ونقبع حالياً تحت مظلة وسط الحديقة مقابل المطار. فرشنا البطانيات، وتهالكت كل مجموعة في مكان وعلى «مظلة» نامت قطة تحت ظلال الأشجار، أنثى تدلت أثداؤها ربما هربت من صغارها الرضع.

توجهت بعد الفطور إلى السوق، لأصرّف آخر نقودي، من أجل تبضع طفيف من سوق جدة ثم جولة في المدينة أو إلى الميناء. رأيت امرأة سوداء شابة جميلة، على كل واحد من خديها أخدودان أفقيان، تأكل خبزاً وحليباً، خلطتهما كالثريد. قصدت السوق بالتاكسي، تمشيت مدة في «سوق البدو»، وكانت بعض دكاكينه مفتوحة، لكن السوق إقطاع لباعة المخضرات والقشطة الآن، كنت أبحث عن سوار لطفل داريوش فلم أجد، ومررت في الطريق بدكان فيه عدد من الرجال جلسوا القرفصاء، مولين ظهورهم صاحب المحل، حتى يحجمهم. كتب على لوح دكانه «سالم بن محمد باسيف. طبيب حجام. نمرة واحد». وقفت أتفرج. الزبائن سود، لا دماء فيهم، ولكن على ظهورهم محاجم رقيقة وطويلة. أكثر من محجمة على متن كل واحد. يقتلعها صاحب الدكان بالترتيب، ويجرح بالموسى المكان المنتفخ، ويعيد المحجمة إلى مكانها. المحجمة كأنها رأس نارجيلة. لكنه طويل وبقطر الاستكان. مصنوع من التنك رأسها مغطى بغطاء هرمي الشكل. وقاعدتها المفتوحة تلصق بمتون الزبائن. وعلى عنقها أنبوب ضيق مائل يمتص منه الحجّام الهواء، ثم يضع على رأس الأنبوب شيئاً، كمصاصة الأطفال، لكي لا يعود الهواء إلى المحجمة. تفرجت مدة من الوقت، إلى أن انتابت الحجام الشكوك. أردت سؤاله عن أسماء أدواته، فظن أني مفتش صحي. كنا قد ارتدينا ثيابنا العادية، حينما خرجنا من مكة، ثم لما اطمأن باله راح يشرح لي ما تيسر من قضايا الحجامة. كأس الحجامة يسميه «حجاماً» والموسى «مبرزاً». موسه بعرض سنتمتر واحد، وله مقبض، ولا يطوى، ورأسه دائري حاد. سألت عن سعره، فقال: خمسة ريالات. لكنه كان بريال واحد، فحينما مشيت وحدي، خاطبه عربي يركب دراجة هوائية، شاهد فضولي، وأسئلتي (كنت تريد خداع هذا الحاج بأربعة ريالات...؟!).

قصدت باعة الأقمشة، وهم يفتحون دكاكينهم تواً. أحدهم شاب ملتح طيب اللسان، دعاني للدخول فدخلت، كان يمنياً زيدياً، وقال عن نفسه (حسيني). اشتريت قماشاً بواحد وعشرين ريالاً لقميصين، وأردت الانصراف، فدعاني لشرب الشاي، وجلسنا نتحاور. إنكليزيته أسوأ من عربيتي، وخضنا في السياسة. قال: إن عشرين ألف مقاتل مصري في اليمن الآن، لمد يد العون للسلال والجمهورية، وكان في اليمن قبل هذا أربعون ألف مقاتل مصري، الأمر الذي كلف أمريكا خسائر باهظة. يقول: إن أمريكا تنفق يومياً 250 ألف دولار لمواجهة هذه القضية. كان يبالغ، ويندد بصراع الإخوان، ويعتقد أن السلال عميل لعبد الناصر، والبدر عميل للسعوديين. يشفق على البدر، لأنه من ذرية الرسول. دخل دكانه بعض الزبائن، فودعته وانصرفت.

يبدو أنهم يعملون بجهد حثيث لتحديث جدة. حتى الأحياء القديمة يتم تحديثها، وربطها بالشوارع العامة مباشرة. المواد الإنشائية القديمة، من أحجار تشبه تلك المستعملة في بوشهر. رمال مضغوطة، استحالت أحجاراً كلسية الأطراف. مثل تلك التي يأتون بها من «بهمني» في بوشهر. والحدائق، والطرق العريضة ذات الجانبين، والساحات المشجرة في كل مكان. ستكون ميناءً عصرياً بعد أربع سنوات أو خمس. حينما كنت أتجول في سوق البدو، لم يكن ثمة أثر للبداوة. الباعة المتجولون انصرفوا، والدكاكين فتحت أبوابها. متخمة بالبضائع الأوربية، والأمريكية، واليابانية، كأي سوق في مكان آخر من عالمنا الشرقي. القليل جداً من الباعة وأصحاب الدكاكين يرتدون الغترة والعقال.

عدت إلى المطار بـ«الاوتوبيس»، من سوق «البدو» إلى المطار بأربعة قروش. ركب معي معلمون، وكسبة، وأطفال مدارس، ونساء ذهبن للتبضع،

أو عُدن منه. وشاهدت من الباص لأكثر من مرة، نساء أمريكيات يتجولن ويتسوقن كما لو كن في بلادهن.

الحادية عشرة صباحاً، يوم الخميس أيضاً

جدة

عدنا تواً من نزهة على ساحل البحر، ويا لها من نزهة! ذهبت مع خالي وشقيقتي، وأردت الانفراد، فاحتج خالي (ما هذا... تذهب لتتنزه، وتتركنا!!) جئنا بالتاكسي أولاً إلى ساحل وسخ، مليء بالفضلات والقاذورات، المرمية في الماء، بريالين ونصف الريال.

رأيت المكان غير مناسب، استأجرت تاكسياً آخر، ليأخذنا إلى مكان تمكن السباحة فيه، اتفقنا على عشرة ريالات، أخذنا إلى رصيف الميناء، وتوقف مرتين في حراسة الجمارك والتفتيش، وأوضح للشرطة أن هؤلاء حجاج يريدون التنزه، ثم توقف بالقرب من سفينة سويدية كبيرة. ألقيت بنفسي في الماء، كان نظيفاً عميقاً أخضر كالبلور، لا يفهم معنى هذا الماء إلا الذي جاءه من الصحراء. غسلت جسمي، ووقفت على صخرة غاطسة في الماء بقرب الرصيف، أبحث لي عن موطئ قدم، مستسلماً لشفاه الأسماك الناعمة، التي راحت تلعق قدمي. أحسست حرقة في باطن قدمي، قلت لا بد أنها شوكة مرجانية، وألقيت بنفسي مرة أخرى في الماء، سابحاً إلى خلف السفينة، ثم عدت أدراجي، وأعدت الكرة سابحاً على ظهري هذه المرة، لكن حرقة القدم تضاعفت، عدت إلى الساحل لأرى ما جرى. نعم... جرحت قدمي، تحت الإبهام، باطن القدم اليسرى، جرحته زجاجة، جرحاً ليس سطحياً، فالدم يجري، ويلوّن الماء. خرجت من البحر بكعب القدم، فتح سائق التاكسي باب سيارته، وسأل (هل أعطيك زيت سيارات تضعه

على جرحك؟) لففت قدمي بمنديل، وارتديت ثيابي، وشقيقتي تحاضر عن النجاسة والطهارة. طلبت من السائق أن يأخذنا إلى صيدلية، فقال: إن في الجمرك مستشفى، قلت له: إن هذا أفضل، وذهبنا. علامة الهلال الأحمر السعودي على باب غرفة صغيرة، يبدو أنها المركز الصحي في الجمرك. فوجدت رجلاً مستعداً للخدمة، غسل القدم بالكحول، ثم بالتنتوريد، ثم رشها بمسحوق السولفاميد، ثم ضمدها بكل دقة. أهديته علبة سجائر (اشنو) وتبادلنا الأسماء والعناوين، وخرجت، وقدمي الآن تؤلمني، واللّه أعلم متى سنقلع، أقلعت الآن طائرة الرحلة رقم 23، ونقلع في الرحلة رقم 30. سيكون الوقت عندها ليلاً، أو منتصف الليل، وما أتعسني! إذ أنهكت نفسي كل هذا الإنهاك. لا يمكن أن أتمشى، كما لا يمكن التفسح طول الوقت بالتاكسي، فهل يمكن القعود في هذا الشارع العام إلى المساء...؟!

الثانية بعد ظهر اليوم نفسه

جدة

الساعات الأخيرة هذه أسوأ الساعات، خصوصاً وأن قدمي تؤلمني بشدة، ولم يأت الدور لحد الآن إلا للرحلة رقم 28، ولم يعلنوا عن الرحلة رقم 27 أصلاً، لا أدري لماذا؟ مكبرات الصوت في أطراف المطار، وأطراف مدينة الحجاج، تذيع البيانات والتعليمات باستمرار، وما أشد الزحام في مطار جدة هذه الأيام! مكبرات الصوت لا تنطق بغير الفارسية، ومعنى ذلك أن الرحلات اليوم مخصصة للحجاج الإيرانيين. لم أسمع منذ الصباح إلى الآن سوى إعلانين بالعربية، أو بإنجليزية غير سوية، ثم كيف ستجتاز كل هذه الأمتعة بالجمرك؟ ترتعد فرائصي حينما أفكر بالأمر.

حينما كنت مضطجعاً على البطانية وتحت ظلال «المظلة» غير الوارفة.

مر رجل عربي، طوّق عنق طباخ نفطي «بريمس» بالحبل، وراح يهزه، ويمشي به كالكوز، أو القربة. ربما أمكن تفسير المنظر بأن الصناعة الغربية تستهلك بأمر البداوة وتوجيهها. على جانبي كرسي مكسور وضعوه على كوم من قناني الكولا الفارغة، وبجواره رف من الخبز الأبيض، يابس وبائت. مخلفات الضيافات والأماسي في أحد مطاعم المطار.

لم أفهم بالتالي هل تُباع المشروبات الكحولية هنا أم لا؟ لا أثر طبعاً لقنانيها الفارغة، وصاحب المكان عنده دكان صغير مليء بالمعلبات والسردين، وJuice، والمشروبات الغازية، والبيض المسلوق، كأنه أراد أخذ ريال من كل حاج، لقاء جلوسه هنا، لكن رؤساء القوافل صاروا شطاراً فلم يدفعوا. وغداؤنا خبز، وجبن، وبطيخ. آخر مصاريف الرئيس وآخر وجبة جماعية، وأبسطها.

إلى هنا، لم أكتب هذه الترهات إلا لنسيان الوجع. حينما أضع قدمي على الأرض وأريد الوقوف عليها، تسارع الدماء إلى العروق، ويداهمني ألم لا يطاق، كأنه جرح أحدثه سيف. لم أكن رقيقاً كما أنا الآن، ولحسن الحظ معي حذاء صيفي، ربطته بالقماش إلى قدمي.

الرابعة والنصف عصر اليوم نفسه

لا نزال نتسكع في جدة. خفّت حرارة الجو، وهبّت نسائم باردة، ملأت البالون المقلّم الذي يحمل علامة المطار، ونشرته في الهواء.ضاعت فردة جورابي صباح اليوم، عند الرصيف على ساحل البحر. اشتريت جورباً جديداً، ولبسته. يعلنون الآن لتوهم عن الاستعداد للرحلة 28. تفضلوا اصعدوا الطائرة. ومسافرو الرحلة 29 يسلمون أمتعتهم للجمرك، ليس ثمة تشدد في الجمرك، لكن فيه حمالة ونقلاً، وما أكثر الحمالين هنا!

أردت تسجيل درجة حرارة الأيام والمدن، لكن ذلك لم يتسن لحد الآن. استعنت بالذاكرة: الحرارة في جدة الآن بين 37 و39 درجة، والرطوبة بين 80 و90، أما في المدينة فأقل بقليل، وفي مكة، لا أتذكر. لماذا لم أسجل ذلك في وقته؟ جاءت الآن جماعة جديدة من الحجاج الإيرانيين، نزلوا لتوهم من الباص، ويريدون الجلوس بقربنا. وتعال انظر اللهفة على مكان أفضل، وأرق، وأنعم، ويتيح إسناد الظهر إلى شيء، و... إلخ. وفي أي مضيف؟! فيهم امرأة ذات جمال مصطنع، لا يليق الشادر برأسها، ولا يقر له قرار عليه. تجامل الجيران بلسانها، وتتودد إليهم، و... إلخ. وتمددت عائلة أخرى على بطانية بجوارنا بعد الظهر. وابنتهم التي فاتها القطار تقرأ القرآن، وتراقبني. كنت طوال هذه السفرة أراقب الآخرين، وأتفحصهم، وصرت الآن موضوعاً للمراقبة، وقعيد الفراش، وجع قدمي لم يسكت بعد.

السادسة والربع عصراً

سلمنا أمتعتنا للجمرك وانتظرنا، والانتظار يعني الشعور بالبطالة، والعبث. الشعور بعدم وجود مبرر لوجودك، لا رغبة لي حتى في الكتابة، لأدع كل شيء.

التاسعة مساء من اليوم نفسه

خلف باب المطار

لنا ثلاثة أرباع الساعة، يتزاحم فيها مئة وعشرون مسافراً، خلف باب المطار المغلق، ويتشاجرون، أيهم يكون أقرب إلى الباب، وتدخلت الشرطة، وموظفو المطار، وعلا السباب، والفضائح. خصوصاً وأن جماعة من نحو أربعين غريباً وقعوا في شراكنا، من أهالي نطنز [1] وتلك المناطق. وجلست

(1) مدينة وسط إيران.

ناحية، أراقب أشعة المصابيح الساطعة في سماء جدة الحامية. خيوط غليظة من الضياء الأصفر، شدت رؤوسها إلى زجاج المصابيح الساطعة البنفسجي، وطرفها الآخر يتجول في عنان السماء. ورفاق سفرنا يشبهون ثيابهم، ولا يبدون إلا كما هم عليه؛ متلهفين، لم يروا شيئاً في حياتهم، متشددين مع بعضهم، ويستحقون كل ما حلّ بهم.

العاشرة والربع مساء

وها نحن أمام الطائرة، والشجار، والفضائح مرة أخرى. الموظفون يرتبون الحجاج في طابور منتظم، ولكن بمجرد أن يبتعدوا خطوتين يتراكم الناس على بعضهم، كقطيع الغنم، ويا لها من حكاية، وصعود الطائرة فيه من التأخير ما يمكّن من كتابة بعض السطور.

الحادية عشرة مساءً

في طائرة B.U.P

نحن الآن في طائرة ذات مجموعة مراوح، وأربع محركات. قالوا إننا سنعود بطائرة جت. أنا وبضعة أفراد صعدنا الطائرة بعد كل الناس، لذلك لم نجد مكاناً للجلوس. جاؤوا بنا إلى غرفة صغيرة، خلف غرفة قيادة الطائرة، مخصصة لاستراحة المضيفين. طاولة في الوسط، وكنبتان طويلتان على الجانبين، دخلناها بصعوبة. المشكلة أن أصوات المحركات تدك الآذان دكاً، لا يمكن النوم، ولا يمكن الجلوس بلا عمل، فما كان مني إلاّ أن لذت بهذه الأوراق مرة أخرى، لا أدري ماذا كان سيجري عليّ لولا صحبة هذه الأوراق؟ مدة الرحلة تستغرق ثلاث ساعات وخمساً وثلاثين دقيقة. هذا ما أعلنوه. الطائرة تهتز بشكل غير طبيعي. البراغي والصامولات متحلحلة، أحكمت اثنين منها بالسكين الذي في جيبي لئلا تمزق ثيابي. رئيسة المضيفين

إنكليزية في الأربعين، تساعدها اثنتان أرمنيتان لبنانيتان، وهناك أيضاً الشاب اللبناني الطويل، الذي كان معنا في رحلة المجيء والذي عاتب زميلته على التبكير في توزيع الماء على المسافرين. أظنه مسؤولاً عن مهمة في هذه الشركة اللبنانية التي تعمل في موسم الحج لصالح الخطوط الجوية الإيرانية. شاب حسن الوجه، يتأمّر على الآخرين بسهولة. استخدم أحد المسافرين لسقاية الحجاج بالماء، وسخّر الثاني لتوزيع الخبز، والثالث لبث الإعلانات من سماعة الطائرة. أعلنوا منع التدخين، وربط أحزمة الأمان، وكم من الوقت سنقضيه في الطريق، و... ما إلى ذلك. يلم بالفارسية إلماماً بسيطاً. والعشاء قطعة جبن هولندي، حامت الشكوك أيضاً حول جواز مضغها وابتلاعها، وموزة، وأجّاصة، وقرصان صغيران من الخبز الأبيض، وبيضة، وأربع بسكويتات. لم أعلم ماذا جرى في صالة الطائرة، أما هنا فالكل ينظر إلى الكل بأعين متسائلة؛ هل يأكلون الجبنة أم لا؟ لم أكن أشتهي الأكل، فاكتفيت بالموزة والأجاصة، ثم عدت إلى هذا الدفتر، لأرى هل لدي شيء جدير بالقراءة؟

أراني جئت إلى هذه السفرة فضولاً قبل أي شيء. أدس أنفي في كل شيء كعادتي، لأرى ما هناك، وليس أملاً في شيء. وهذا الدفتر حصيلة رحلتي هذه. مهما يكن، فهي تجربة، أو حدث بسيط جداً، على كل حال، وكل واحدة من هذه التجارب، والأحداث البسيطة الخالية من «الأحداث» أساس لنوع من اليقظة والوعي، رغم سذاجتها. وإن لم تكن أساس يقظة، فلا أقل من أنها أساس شك وارتياب. وهكذا تتحطم درجات سلّم اليقين تحت أقدام التجارب. ثم ما هي حصيلة العمر يا ترى؟ إنها الشك في صحة، وأصالة، وحقيقة البديهيات الأولية المنتجة لليقين، أو الخيال، أو الحاضة على العمل، وخسرانها واحدة، واحدة، وتبديل كل واحدة منها علامة استفهام.

كنت أتصور يوماً أن عيني جديرة بأن يرصدها العالم بأسره، أما اليوم، ولست سوى جزء ضئيل في العالم، لن أنتمي لكل العالم إلا إذا ملأت عيني من كل أصقاع الدنيا، ولكن قرأت بعد ذلك، ربما في «عدن العربية» بقلم Paul Nizan أن (الإنسان ليس مجرد عينين، وإذا لم تستطع في السفر تغيير موقعك التاريخي كما صنعت مع موقعك الجغرافي، فلم تتكلف إلا العبث). وهكذا تنبّهت إلى أن الإنسان مجموعة حيوية وثقافية متماسكة، بكفاءات معينة، وعلاقات محدودة. والإنسان على كل حال ليس مجرد مرآة، إنما هو مرآة تعكس أشياء معينة، حتى ذلك الحاج الهمداني الذي لا يزال يرتدي الجلد. ثم إن المرآة بلا لسان، وأنت تريد أن يكون لك لسانك فقط، أوَليس هذا هو الذي يحجب عين الرأس عن عين الفؤاد؟ وحينما أراجع حساباتي، أرى أنني بعين الفؤاد هذه، لا أعرف حتى نفسي، ولا البيئة التي ألفتها في طهران، وشميران، وپاچنار.[1]

فأية صورة إذن تلك التي قدمتها في هذا الدفتر؟ ثم ألم يكن الأجدى أن أصنع مثلما صنع ملايين البشر. الذين زاروا الكعبة طيلة ألف وثلاثمئة ونيف من السنين، وكان لهم ما يقولونه، لكنهم لم ينبسوا ببنت شفة، وأخذوا ثمار تجاربهم إلى القبور ممسكين؟ أو نقلوها بضعة أيام لإخوانهم، وآبائهم، وأمهاتهم، وأقربائهم بكل تواضع، ومن دون أي تبجحات. ثم لا شيء بعد ذلك...؟

أليس من الأفضل أساساً أن نزهد في كل التجارب، وكأنها نواة في قلب ثمرة؟ بدل أن نأكل الثمرة ونزرع النواة؟ خصوصاً في صحراء كهذا الدفتر، لا يحمل سوى كلام على عواهنه؟ وواضح أنني بهذا الدفتر أجبت نفياً عن هذا السؤال الودي، والسبب هو أن الحداثويين سيشمخون

(1) مناطق سكنها الكاتب في العاصمة طهران.

بأنوفهم، وينفضون الغبار عن أكمامهم: (سافر إلى الحج؟! وهل كانت البلدان قحطاً عليه؟!) ناسين أنها ثقافة، وتراث يدعو مليون إنسان سنوياً، ليمارسوا شعائر واحدة، لذلك لا بد من الذهاب إلى هناك، والحضور مباشرة، والمشاهدة عن كثب، لمعرفة الفوارق التي طرأت (والتي لم تطرأ) منذ زمن ناصر خسرو وإلى اليوم.

قد يعتبر ما سأقوله اعترافاً، أو اعتراضاً، أو زندقة، أو أي شيء آخر، لكنني كنت أبحث في هذه الرحلة عن أخي، وكل إخوتي الآخرين، أكثر من بحثي عن اللّه، فاللّه موجود في كل مكان لمن يؤمن به.

الأحد، 3 أيار 1964

تجريش[1]

يبدو أننا هبطنا في مطار طهران في الثالثة بعد منتصف الليل، وكنت في الخامسة في البيت. متعباً منهكاً لا يفارقني السعال. لم أخرج من البيت إلى الآن، بل حتى لم أستحم، خوفاً من جرح القدم، أو الإصابة بالزكام. والجو لا يزال بارداً، تفوح منه رائحة الشتاء. وأنا إما نائم، أو أستقبل الضيوف. وسيمين تقول: (تحرقت رجلاك بشدة).

(1) محلة في شمال طهران.

الفهرس